معجزة البوسنة وتخاذل الغرب

تـأليـف: دافيـد ريف

ترجمة : عبدالسلام رضوان

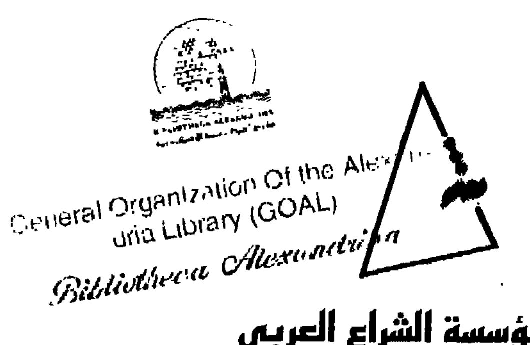
محمد الصاوي الديب



مجزرة البوسنة وتخاذل الغرب

تأليف: دافيد ريف

ترجمة : عبدالسلام رضوان
محمد الصاوي الديب



مؤسسة الشراع العربي

العنوان الاصلي للكتاب :

Slaughterhouse:

Bosnia and the failure of the West,

Vintage,London,1995.

ـ الطبعة الأولى/ نوفمبر ١٩٩٥

ـ الناشر: مؤسسة الشراع العربي

الكويت ـ ص. ب ١٠٠٥ حولي

الرمز البريدي 32011 الكويت

فاكس : ٢٥٢٥٠٧١ (٩٦٥)

مجزرة البوسنة
وتخاذل الغرب

الفصل الأول

المجـــزرة

عندمـا ذهبت إلى البوسنـة لأول مرة، في سبتمبر ١٩٩٢، كـان انتصار القـومية العرقيـة الفاشيـة قد أصبح أمراً محتمـلاً لكنه لم يكن قـد تأكد بعـد. وبفضل الجهود البطوليـة لعدد محدود من العـاملين في الإغاثـة ومن الصحفيين، كانت قـد تسربت تقارير عن عمليات الإبادة الجماعيـة التي قام بها الصرب ضد مسلمي البوسنة. لكن بدا معظم الناس في الغرب غير قادرين على مواجهة الأخبار السيئة. ولقد وصلت الى البلقـان بعـد شهـر من كشف روى جـوكمان، من صحيفـة نيـوزداي، عن وجـود معسكرات اعتقـال أقامها صرب البوسنـة في شمال البوسنة، وبعد أن نجـح «إدفو ليامي»، من صحـيفة الجارديان، وطـاقم سينمائي بريطاني مـن ITN في ان يكونـوا أول أجانب يـدخلوا إليها. وعندمـا وصلت الى شمال البوسنة كـان قد تم نقل بعض المعسكـرات كما كان يجرى إغـلاق المعسكرات الأخـرى بما فيهـا المعسكرات الأكثـر سوءاً– أومـارسكا، مـاناكا، تـرونوبولي – لكن بـدا، من نواح اخـرى، ان الأمور في المنطقة تسير نحو الأسـوأ. فما أصبح معروفا للعالم من عمليـات التطهير العرقي لغير الصربيين من السكـان صـار يحدث في المدن الصغيرة والكبيرة كما في القـرى وأصبح أكثر تشعبا ودناءة.

لقد جئت الى أرض البوسنة لأكتب تقريرا صحفيا لمجلة أمريكية «حول التطهير العرقي» دون أن أفهم جيدا حتى المعنى المقصـود من هذا التعبير. وانتهى بي الأمر الى العودة الى المنطقة مرات ومرات. ولقد قيل ان السلك الصحفي أصبح منغمسا أكثر مما ينبغي فيما يجري في البوسنة، وأنه كان على الصحافة أن تكون أقل انفعالا. والواقع

ان في هذا القـول جانباً من الحقيقـة فحسب . فمن الصعب أن يحتفظ المرء بهدوئه أو يسيطـر على انفعالـه عندمـا يتعلق الأمر بـالتطهير العرقي والإبـادة الجماعية . وبعـد زيارات قليلة للبـوسنة ، لم أعد أرغب في أن أكون في مكـان آخر. و أوقفت منذ وقت طويل اى عمل أو نشـاط آخر لي ، وعزمت أن أكتب بأكبر قـدر ممكن من الصراحة الملتهبة قصـة الرحلات التي قمت بها الى « المجـزرة» التي حلت بجمهورية البـوسنة والهرسك في ربيع عام ١٩٩٢ . ولقد كنت اتصـور وأنا أكتب روايتي لتلك الأحداث أنه إذا ما نقلت الأخبـار السيئة عن البوسنة الى الناس في بلدي - الـولايات المتحدة- فسيؤدي ذلك على الفور الى وضع حد للمجزرة الدائرة .

وعندما استعيد الآن تطور الأحـداث ، أجد أنه كان على أن أتخلى عن الايمان بقوة الحقائق العـزلاء . ان السماء لم تظلم فوق «أوسكيفتش» ولـن تظلم أيضا فـوق تلال البـوسنة . ذلك هـو أحد الأشيـاء التي تعلمتهـا خلال العـامين المنصرمين . لكنني عندما بدأت رحلتي الأولى إلى البوسنـة ، كان أملي هو أن أضيف صوتي الى الأصوات الأخرى الأكثـر شجاعـة مني والذي كانـوا يخاطرون بحياتهم ليكـونوا شـاهدين على مايحدث هنـاك . وحتى شتاء عـام ١٩٩٤ ، وحيث بدا أن الفـرصة مـاتزال سـانحة بألاتطفيء قضيـة البوسنـة ، بدا من المهم أيضـا أن أصور لماذا ظل عـزمنا قـائما- أنا والعديد من الصحفيين والمصورين ومـراسلي شبكات التلفزيون - على إمضاء وقت آخر في الجانب البـوسني (على الرغم من اعتراضـات الأصدقاء والـرؤساء) . لم يكن تفكيرنا منحصرا في مجرد ان مـايجرى هو بمثابـة مأساة- فكل الحروب مأسـاوية- بل كنا نري أيضا أن القيم التي تمثلها جمهورية البوسنة والهرسك هي قيم جديرة بالحفاظ عليها . ان هـذه المثل المتعلقة بمجتمـع ملتزم بالتعـددية الثقـافية (بـالمعنى الحقيقي والجديـر بـالاحترام وليـس بـالمعنى الاميركـي والـوعظـي لهذا التعبير الـذي ابتـذل استخدامه) وبالتسامح ، وبفهم للهوية القوميـة يراها نابعة من المواطنة المشتركة لامن الهوية العرقيـة ، هذه المثل هى على وجه التحديد المثل نفسهـا التي دأبنا على المناداة بها في الغـرب . وقبل أن يمر على وجـودي بالبـوسنة وقت طـويل أصبحت مؤمنـا ، ومازلت مؤمنا حتى اليوم ، بأننا في العالم الغني لسنا ملزمين أخلاقيا فحسب بالدفاع عن استقلال البوسنة بل إن لنا مصلحة ملحة في القيام بذلك .

على أن تلك الحملة انتهت بـالخسارة. ومـاتبقى هو الالتزام بـدور الشهادة على مايحدث، وهو التزام نحو الأموات والأحياء على حد سواء.

إن قضية البوسنة كانت وستظل دائما قضيـة عادلة. وكان يتعين أن تكون قضية الغرب كله. ولو كان الغرب تدخل الى جانب البوسنة لكان هذا التدخل بمثابة دفاع عن النفس، وليس إحسانـا. إن أمريكا، ورغم كل انشقـاقاتها الداخلية، مـاتزال مجتمع التعددية الثقافية الأكثر نجـاحاً عبر التايخ. والبلدان الأوروبية نفسها تصبح الآن بصورة متزايدة مجتمعات تعددية عنصرية وعرقية، واذا ماحالفها الحظ ستصبح مجتمعات تعددية ثقـافية أيضا. ولم يعد كافيا، في هذا الـوقت من الدم والنار الذي تمثل المجزرة الجاريـة على أرض البوسنة الموجة المتقـدمة من موجاتـه، ان ننادى بهذه القيم بـوصفها قيمنـا. فـالحرية لايكفي التـوكيد عليهـا، بل ينبغي الـدفاع عنهـا. ولايمكن لها أن تأمل في البقاء على قيد الحياة اذا لم توجـد سوى في نواح مرفهة محدودة من العـالم، تماما مثلما تشعـر أنواع الكـائنات الحية بـأنها معرضـة للخطر اذا مـاكان المكان الوحيد المأمون بالنسبة لها هو حديقة الحيوان. أو كما قال السينمائي البوسني «أدمير كينوفيك» - الـذي اختار، بالـرغم من أنه كان بـامكانه بسهـولة ان يخرج من سـاراييفو، أن يبقى من أجل أن يـوثق الحصـار - «لمجرد أن النـار تضطرم في الـدور الأرضي، فـان ذلـك لايعني أن سـاكنـي الأدوار الأعلى لن يشعـروا بلهيبهـا في النهاية».

واذا كنت أومن بأن البـوسنيين ليسـوا فقط ضحايـا القتـال الدائر بل هم أيضـا الشعب الـذي يقف الحق الى جانبـه، فـانني لا أقصـد بذلك القـول ان على المرء أن يتجاهل ما اقترفوه من جرائم وغباوات أو أن أعفيهم من مسؤوليتهم فيما يتعلق بتفجر القتـال أو استمراره، أو أن مـاحـدث في البوسنـة بسيط في أبعـاده. فالحرب تجربـة مفسدة ومضيعة انسانيـا، وهي غالبا ماتظهر الأسوأ في البشر، أيـا كان الجانب الذي يقفون فيه، ونادرا مـاتترك جوانب ضعفهم دون كشفها. وتندلع الحرب دائما بسبب المال والسلطـة ربما بأكبر ممـا تندلع بسبـب الأفكار والمثل. كما تقـوم الحرب بـدافع الثأر، والجريمة، والتغطية على الجرائم. وهي تعلّمك أن أكثر شكوكك تشاؤماً حتى فيمن تعجب بهم من المرجح أن تكون مبررة، على الأقل لبعض الوقت. ومن أوضح

الأمثلة على مـا أقول حقيقة أن المدافعين البطوليين عن سـاراييفو كانوا يـدافعون عن السوق السوداء بنفس قوة دفاعهم عن المدينة . ومع ذلك فان هذا لا يجعل مايقومون به أقل إتصافاً بالبطولية . فالبوسنيون ، شأننا جميعا ، بشر وليسوا ملائكة .

وعلى المستوى السياسي ، كانت القصة على نفس الدرجة من التعقيد . فكما كان يعلم من يعرف شيئـا منا عن سلوك الحكـومة البـوسنية قبل أن يندلع القتـال ، فان التـزام قـادة مثل رئيس الجمهـوريـة على عـزت بيجـوفيتش ورئيس الـوزراء حـارس سيلاذريتش بقيم التعدديـة الثقافية بالمجتمع المدني كـان أقل صلابة في وقت السلم عنه بعد ان بدأت عملية إبادة بلادهم تجرى أمام أعينهم .

وقبل عـام ١٩٩٢ ، كان عـزت بيجـوفيتش زعيما لحزب اسـلامي قومي ، وكـان يتحدث عن حقـوق ومطالب المسلمين في البـوسنة بأكثـر مما يتحـدث حول الشعب البوسني ككل . وبعـد عامين ، أصبح بيجـوفيتش زعيما بوسنيـا ، وأصبحت الأفكار التي ربما لم يكن يوليها في البـداية سوى اهتماما ظاهريـا هي الافكار التي تبنى عليها السياسات التي يتبعها .

وقد يكون صحيحـا ان هذا الالتزام بدأ بـوصفه نتيجة لاضطرا رمثلما كـان نتيجة لاقتناع ، وأن هـذا الالتزام بدأ يخفت عـام ١٩٩٤ ، بعد ان أصبح واضحـا أن الدول الكبرى ليست عازمة على القيـام بأى إجراء آخر لمساعدة البوسنـة على البقاء . فمنذ بـداية القتـال ، كانت استراتيجيـة حكومـة بيجوفيتش تتمثل في محاولـة اقناع الغـرب بالتدخل عسكريا . ولقد كان صحيحـا أيضا أنه في داخل حزب بيجوفيتش (حزب الحركة الديمقراطية) ، وخاصة في وسط البـوسنة ، أصبح الأصوليون الاسلاميون أكثر أهمية بصورة متـزايدة مع تزايد حدة الصراع ، وخاصـة بعد أن أصبح الجيش البوسني يعتمد أكثر فأكثر على إيران ، والسعودية ، وتـركيا فيما يتعلق بالامدادات العسكرية . لكن الأمـر اللافت للنظـر ، بالنسبة لأى فـرد أمضي بعض الـوقت في البوسنـة ، هو المدى الـذي بلغـه عمق وثبـات التـزام أغلب الجماهير البـوسنية المؤيـدة للحكـومـة بالتعددية الثقافية .

وإذا ماكـان الناس في البـوسنة قـد بدأوا ، بحلـول خريف ١٩٩٤ ، يعـرفون أنفسهم

بوصفهم مسلمين وأداروا ظهورهم للتعـددية الثقافية التي قاتلوا بضراوة طـوال ثلاثة أعوام من أجل الحفاظ عليها، فليس في ذلك مايـدهش. فقد كانوا يقتلون بوصفهم مسلمين، و يطردون من بيوتهم بوصفهم مسلمين. ولقد قـال لي صديق من سارايفو ذات مرة: «في البـداية، كنت يـوغوسـلافياً. ثم أصبحت بـوسنيا. والآن أصبحت مسلما. ولم يكن الخيـار خيـاري. انني لم أكن ذات يـوم متدينـا. ولكن بعـد مقتل مائتي ألف، مـا الذي تـريدني أن افعله؟ إن على كل انسـان أن يكون لـه بلد ينتمي إليه».

وعلى أيـة حال لم تكن الأخطـاء التي ارتكبها كل من عـزت بيجوفتش وحـارس سيلادزتش قبل الحرب هي السبب في اندلاع الحرب. فمنذ اللحظة التي بدأت فيها يوغسلافيا تتفكك، كان واضحـا أن كلا من القوميين الكروات والصرب أقل اهتماما بالحدود منهم بتكوين دولة ذات تركيب عرقي نوعي. وكان البوسنيون وحدهم، رغم اختلاط أصولهم العـرقية يؤيدون دولـة المواطنة في حين كان الأمر بـالنسبة للصرب، من خـلال وضعهم المتفوق قـوميا، غـايةفي البسـاطة، فإذا لم يكن ممكنـا أن توجـد يوغسلافيـا. فلا يجب أن توجد البوسنـة من حيث أنها ستشكل، مع نسبة للسكان الصرب لاتتجاوز ٣٢٪ من مجمل سكان البـوسنة، إنهاء لحلم أن يحيا جميع الصرب في دولتهم الخاصـة بهم. قال لي محام من بلجـراد: «حتى لو كـان عزت بيجـوفيتش ملاكـاً، وهو ليس كذلك، لظلت لـه حربـه.» وايا كانت دوافع عـزت بيجوفيتش الحقيقية وفشلـه قبل بدء القتال في بـذل جهد أكبر من أجل طمأنـة صرب وكروات البوسنـة، فسرعان ما أصبحت البـوسنة التي كافـح من أجل الدفاع عنهـا، برغم جميع اخطائها، إدانـة حية للتعصب الديني والعصبية العميـاء. وهذا هو السبب، وليس الفكرة المتمثلة في انه كان يؤمل أو أن بـالأمكان أن تصبح البوسنة دولة مثالية يسكنها شعب يتميـز بالتقـوى والتسامح، في أهميـة الشأن البوسني. لقـد كان من الواجب انقاذها وكان من الممكن انقاذها.

ولم يكن مثل هذا التدخل هينا أو سهلاً. وتصور ذلك لايزيد عن كونه نوعا من التمني تماما مثل اضفـاء الطبع المثالي على البوسنيين. ولو ان ذلك حـدث لكان قد حدث من جـانب حلف شمال الاطلنطي الذي كـانت له وحـده القدرة العسكـرية

الكافيـة والسلطة السيـاسية لاجبـار الصرب على وقف الحرب. على أن الحرب التي كان يمكن للناتو شنهّا كانت ستكـون مكلفة في الارواح والأموال والأوهام الضائعة. لقـد كان غبـاء من كثير ممن دعوا الى أشكـال مختلفة من التـدخل أن يتظاهـروا بغير ذلك.

كانـوا يريـدون نتيجة لابـد من حرب للـوصول إليهـا ولكنهم لم يكـونوا يـريدون مواجهة حقيقة انه حتى الحرب العادلة تجلب أكثر أشكال المعاناة فظاعة. ان الحرب يمكن أن تسفر عن أشياء كثيرة مختلفة ولكن الشيء الثابت في كل الحروب هو ذبح الأبريـاء. وكل الكلام الفضفاض الذي دار أثنـاء القتال في البوسنـة حول كيف ان كل مـايحتاجـه الغرب هـو رفع حظـر السلاح المفـروض من قبل الأمم المتحدة ضـد الحكومـة البوسنيـة والقيام بقليل من «الضربـات الجوية الجراحيـة»، ذلك الحديث الـذي صـدر عن بقـايـا اليسار الاوروبي والأمـريكي الشمالي والـذي كـان يسخـر- وياللغرابة - من مفهوم التدخـلات السابقة من فيتنام حتى الكويت -يجب ان ينظر إليه كله كممارسة يائسة. وهؤلاء الذين يدافعون عنه يمكن وصمهم بحق. بالميل إلى التعامل مع مأساة تاريخية كبرى من منظور مبتذل.

وربما كانت النداءات المتكـررة لرفع حظر السلاح عن البوسنـة هي الأكثر نشازاً رغم كون مثل هذا العمل ذا أهميـة رمزية فكل الذين لم يسانـدوه فقط بل تصوروا أنه سيغير الأوضـاع كانـوا يتكلمون وكأن السـلاح سيأتي بطـريقة التنـاضح إلى الحدود المغلقة التي مازالت تحت سيطرة الحكومة البوسنية أو كأن الأعداء الصرب والكروات في البوسنـة كانـوا سيكتفون بـالوقـوف وكأن ميزان القـوى في ميدان القتـال قد تحول بشكل جذري. ولعلهم ظنّـوا أنه بسبب الجرائم الفظيعـة التي إرتكبها جيش صرب البوسنة فإن هذا الجيش غبي أيضا وغير كفؤ. والواقع أنه لم يكن هذا ولاذاك، وأنه كان على جنود النـاتو إما القتل أو الموت لكي يتمكنوا مـن إدخال الأسلحة. ويجب ان يذكـر في جانبهم أن معظم الذين عارضـوا التدخل أدركوا على أقل تقديـر مدى خطورته بشكل لم يدركه الذين أيدوا هذا التدخل.

وعلى أي حال، لقـد فات أوان هذا الجدل الآن فقـد اختار الغـرب - وهو تعبير لطيف لايعني سـوى القوى العظمى لأوروبـا وأمريكا الشماليـة - أن يفعل أي شيء

عدا التدخل . وفي المقابل فقد تبنوا أحد أضخم الجهود الإنسانية في التاريخ الحديث للإغـاثة وأكثرها بطـولة تحت مظلة اللجنة العليـا للآجئين التابعة لـلأمم المتحدة مع المثابرة علي المفاوضـات الدبلوماسية غير البطوليـة . وسرعان ما اتضح أن الغرض من ذلك ليس إنقاذ البوسنة ولكن كما يقول السيـاسيون « إحتواء الأزمة» . وكان العامل المشترك بين كل ماسمى بخطط السلام هو أن الحل الوحيد للنزاع يكمن في شكل ما من التقسيم على طول الخطوط العرقية .

في البدايـة لم تكتمل الإهانـة للسيادة البوسنيـة . فقد قام المفـاوضان الـدوليان - ساويـروس فانس ممثلا للأمم المتحـدة وديفيد أوين ممثلاً للجماعة الأوروبيـة - برسم خريطة تتسم بقدر من العدالة تصورا أنهما يستطيعان بها حث الصرب - الذين كانوا قد استـولوا على سبعين في المائة من الاراضي البـوسنية - على قبـوله ، وذلك بتقسيم البـوسنة والهرسك الى عشر كـانتونـات ذات حكم شبه ذاتي تكـون ثلاث منهـا تحت سيطرة الصرب وثلاث للكروات وثلاث للمسلمين . أما العاشر، والذي يشمل قطاع مدينـة سراييفو فيحكمه ممثلـون عن الجماعات الـوطنية الثلاث في البـوسنة . وتمثلت الفكرة الأساسية لهذه الخريطة ، إسميـاعلى الأقل ، في حفظ السيادة البوسنية في كل أراضي الجمهـوريـة ، رغم ضعف السيطـرة التي يمكن ان تمارسهـا فعليا الحكـومـة المركزية .

وعندمـا رفضت خطة فـانس/ أوين للسلام- بصفـة رئيسية نتيجـة لاحجام إداة كلينتون عن تأييدها -تهيأ المسرح تماماً لفكرة التقسيم . وكان السؤال الوحيد المتبقى - ولأنـه لم يكن من الممكن حلـه فقـد بدأت الحرب - هـو مـا الأراضي التي يحتفظ بها الصرب والأراضى التي يمكن أن يعيدوها للحكومة البوسنية؟

و إلى حد كبير كان تصرف الدبلوماسيين على النحـوالذي تصرفوا به راجعا لحقيقة أنهم أدركوا منـذ البداية ، حتى و إن لم ندرك ذلـك في الصحافة ، أنه لن يكـون هناك تـدخل عسكـري . وعنـدمـا قرّعـزم الحكـومـات على رأيها الجماعي فقـد كـان تأثير الإعلام ، الذي سمى «بتأثير CNN» ، امراً بولغ في تقديره .

لقد عقدت الحكومات الأوروبية عـزمها على أنها لن تفعل أي شيء للبوسنة أكثر

من توفير الإغاثة الإنسانية. والواقع أن شجاعة العاملين في الإغاثة، سواء من الأمم المتحدة أو المنظمات غير الحكومية، وإخلاص كثير من الدبلوماسيين - الذين، بعد كل مايقال ويحدث، لم يتمكنوا من فرض التدخل بأكثر مما فعل الصحفيون وعمال الإغاثة- كل ذلك ربما سهل على الصرب مواصلة حملتهم في البوسنة. وذلك لأن حقيقة أن هناك شيئاً يجري خلف الكواليس بدا- على نحو ينطوي على المفارقة- كما لو كان ذريعة يمكن أن تتخفى وراءها القوى الكبرى وكذلك المجتمع الدولي. وفي كل مرة يرتفع صوت الدعوة للتدخل في فرنسا أو انجلترا او الولايات المتحدة فإن الوزراء في حكومات الدول المعنية وممثليها في الأمم المتحدة الذين يفترض موضوعيتهم حول البوسنة (والذين بدأ كثير منا ممن يغطون الحرب يقتنعون بأنهم في الواقع لايملكون هذه الموضوعية) يسارعون بالتأكيد على وجه السرعة على أن سبب عدم امكانية التدخل - كما استوعبنا العبارة- هو أنها « يمكن أن تعرّض للخطر الجهود الانسانية». وعلى أية حال، فان أيا من الانجليز أو الفرنسيين أو الأمريكان لم يظهر، منذ بداية القتال في يوغسلافيا السابقة، اي رغبة في التدخل عسكرياً. وقد أكد مسئولو الولايات المتحدة، بخاصة مراراً. تأييدهم لبقاء الإتحاد اليوغسلافي. ففي ٢١ يونيو ١٩٩١ زار جيمس بيكر وزير الخارجية وقتها بلجراد وحذر قادة كرواتيا وسلوفينيا بأن الولايات المتحدة لن تعترف باستقلال الدولتين. كما أصدر مسئولو الجماعة الأوروبية تحذيراً مماثلا بعد يومين. لكن وكما إستنتج تقرير من وكالة الاستخبارات الامريكية في اول ذلك العام فإن تقسيم يوغسلافيا كان قد بدأ بالفعل. وبعد أربعة أيام من خطاب بيكر أعلنت كل من كرواتيا وسلوفينيا نفسها «دولة مستقلة ذات سيادة». وبعد يومين، في ٢٧ يونيو، تحركت وحدات من JNA (الجيش الوطني اليوغسلافي) من قواعد في كرواتيا نحو سلوفينيا. ورغم وجود تحرشات طوال العام السابق، فقد كانت تلك هذ بداية القتال الحقيقي في يوغسلافيا.

واستمر الصراع في سلوفينيا أياما قليلة، ولدهشة قادة الجيش اليوغسلافي (سابقا) فقد قاتلت قوات دفاع الحدود السلوفينية ببسالة.

وقرر وزير الدفاع اليوغسلافي الجنرال فيلكو كاديجيفتش سحب قواته بدلا من

استمـرار القتال. وكـان ذلك في واقع الأمر إعترافاً واقعياً باستقـلال سلوفينيـا من جـانب السلطات في بلجـراد. على أن مـا لم يكـونوا راغبين في قبـولـه هو استقـلال كرواتيا، والسبب في ذلك هو القومية العرقية للصرب.

فلم يكن هناك وجود للصرب تقريبا في سلوفينيا، وفي المقابل هناك أقلية كبيرة في كـرواتيـا. وبإسـم الـدفـاع عن هـذه الأقليـة الصربيـة، وليـس بإسم الحفـاظ على يوغسلافيا، بدأ الجيش الوطني اليوغسلافي العمليات الهجومية في كرواتيا في منتصف يوليو ١٩٩١. وأسفرت هذه الحملة عن وضع أيديهم على ثلث كرواتيا ومعظمه على الحدود البوسنيـة. وعندها ادعى الصرب ان هذه المنطقـة لم تعد جزءاً من كـرواتيا بل «جمهورية كرايينا الصربيـة». وبدا للكثيرين ان هناك صربيا كبرى آخذة في التشكل مع تفكك يوغسلافيا.

واستمر القتال في كـرواتيا حتى بداية ١٩٩٢. ومـرارا قصفت بروفينك، فينيسيا الكروات الصغيرة، كما سـويت بالأرض المدينة الكـرواتية الشرقية «فاكـوفار». وتحت ضغط شديـد من المانيا قـررت الجماعة الأوروبيـة الاعتراف بكرواتيـا وسلوفينيـا وقام سايروس فـانس، الذي كان يتفاوض على وقف إطـلاق النار بين الصرب والكروات طوال النصف الثاني من ١٩٩١، بتحذير وزير الخارجية الألماني هانز ديتريش جينشر ورئيس الجماعة الاوروبية وقتهـا السياسي الهولندي هانز فـان دربروك من ان مثل هذا الاعتراف يجعل الحرب حتميـة في البـوسنـة. وقد ردا على تحذيـره بـازدراء وأصرا على الاعتراف. وقد آشار هيلموت كول، في ١٥ ينايـر ١٩٩٢، الى أنه سرعان ما سيعرف كل شخص ان هذه السيـاسة (الاعتراف) صحيحة، فمن دون قرارنـا لن تنتهي هذه الحرب الأهلية.

وفي اوائل ١٩٩٢ نجح فـانس بالفعل في اقنـاع الصرب والكروات بـالموافقة على وقف إطلاق النـار في كرواتيا الذي وإن كـان قد أوقف القتال فـانه لم يسترجع، رغم إنتشار نحـو ١٤ الف من قوات الأمم المتحـدة لحفظ السلام، مـا كسبه الصرب من أراضي. ووجدت قوات الأمم المتحدة في كـرواتيا نفسها في موقف الإشراف على خط ترسيم يبـدو دائما بصورة متزايدة بين الأراضي التي يسيطـر عليها الصرب والكروات. ومن الناحية النظرية كانت خطة فـانس تهدف الى التوصل إلى تسوية سياسية. وكان

من المفترض نـزع سـلاح الصرب وأن تحل قوات الأمم المتحـدة محلهم. ولكن كـانت هناك ثغـرة. فقد سمحت خطـة فانس، بسـذاجة بالغـة، باستمـرار عمل وحدات الشرطة. وما فعله الصرب ببساطة هـو استبدال جنودهم لزيهم الأخضر بزي الشرطة الأزرق ولم يحدث شيء آخر في المناطق التي احتلها الصرب في كـرايينا الكرواتية وشرق سلوفانيا. وكما تنبأ فانس بدأ القتال في البوسنة في ذلك الربيع.

وقبل ذلك، في أغسطس ١٩٩١، كـان علي عـزت بيجوفيتش قـد حـذر من أن سلوبودان ميلـوسيفيتش رئيس صربيا «يريد كل البـوسنة، يريدهـا كلها». وبعد أن أصبح اتحاد يوغسلافيا بصورة متزايـدة هو صربيا الكبرى تحت اسم آخر، بذل عزت بيجوفيتش مع رئيس مقدونيا كيروجليجوروف محاولات يائسة للخروج بحل دستوري للأزمة. وفي ديسمبر ١٩٩١، وقد رأى أنه لايمكن إحياء يوغسلافيا مرة ثانية، طلب عـزت بيغوفيتش اعتراف الجماعـة الأوروبيـة كما طالـب بقوات الامم المتحـدة لحفظ السـلام، ورفض الطلب الاخير رغم أن مقر قيـادة قـوات الامم المتحدة المشرفـة على وقف اطلاق النـار في كرواتيا كان متمـركزا في ذلك الوقت في سراييفـو. لكن الجماعة الاوروبيـة استجـابت بالفعل لطلـب عزت بيجـوفيتش بـالاعتراف مع الاصرار على وجوب إجراء السلطات البـوسنية إستفتاء حول استقلال البوسنـة، وهو ما حدث في ٢٩ فبراير ١٩٩٢. وقـد وافق مسلمو وكروات البـوسنة، الذين يمثلـون ٦٣ في المئة من سكان الجمهـورية، على استقـلال البوسنة بـالاجماع. لكن قيادة صرب البـوسنة طالبت شعبهـا بمقاطعة الإستفتـاء ودعمت طلبها في القرى المتـاخمة لمناطق مسلمي البوسنـة بمنع اقامـة مراكـز الإنتخاب. وفيما عـدا المدن نجحت المقاطعـة الصربية تماما. وكان بدء القتال مسألة وقت.

وفي أوائل مارس قـامت ميليشيات صرب البوسنـة بإقامة الحواجـز على الطرق. وكانـت تلك هي الطريقـة التي بدأ بها القتـال مع الكروات. وبنهـاية الشهر كـانت الميليشيات الصربية، بمساندة مكشوفة من قوات الجيش الوطني اليوغسلافي تستولي على الاراضي في كل انحاء البوسنة. وفي ٦ إبريل ١٩٩٢ بدأ حصار سراييفو وفي نفس الشهر سقطت بانيالوكا، المدينة الثـانية في البوسنة، في أيدي قوات الصرب. وبدأت المذبحة البوسنية.

أقول أنها مـذبحة لان الإشارة الى ما كـان يحدث على أنه حرب يعـد تشويها، بل والاكثر فـداحة من ذلك، تجميلا للطبيعـة الحقيقية لما حدث. قبل بدء القتـال أكد عزت بيجوفيتش أنه لايمكن نشوب حرب لأن جانبا واحدا ـ وهو جانبه ـ لن يقاتل. والـواقع ان تصـور امكـانية تفـادي تلك المجـزرة لمثل هـذا السبب كـان واحـدا من الافتراضات الساذجة العديدة الجديرة بـاللوم التي وقعت فيها الرئاسة البوسنية. على ان الكلام عن «حرب بوسنية» لن يكون اقل سذاجة فالحرب في واقع الامر وبرغم كل وحشيتهـا لها قوانينهـا وشرفهـا الخاص، ويحق للجنود، على الاقل عنـدمـا يكونـون مخلصين لأعرافهم، ان يروا فيها داعيا مشرفا ومضنيا أيضا للقتال. والتفكير بغير ذلك معناه ان لايوجد ما يضحي من أجله، واذا كانت البوسنة قد أكدت شيئا فهو ان مثل هذه العبارة ليست سـوى كذبة مخجلة. على أن ما فعلـه الصرب في البوسنة لايمكن ولايجب على الاطلاق ان نطلق بشأنه مثل هذه الادعاءات. لقد كان هناك الكثير من المعـانـاة ولكن لم يكن هنـاك «صراع» فيما حـدث في البـوسنـة. لقـد أتى الصرب، وذبحـوا، وغزوا، والعـالم يتفرج. وكما قـال حارس سيـلازتش وزير الخارجيـة، ثم رئيس الوزراء، مـرارا وتكرارا: «ان مـا يحدث هو إبـادة جماعية. لقـد اختار كثير من النـاس في أوروبا أن يسمـوها حـربا. ولكنهـا ليست بالحرب، إنها مجزرة». وخـلال كتابتي لصفحات هذا الكتاب، تكاد فصـول هذه المجزرة الجماعية أن تكتمل. ولقد حطمت هـذه النتيجـة أي أمل في أن يـؤدي صـدور كتـاب، أو شريط فيـديـو، أو خطاب علني مؤيد للبوسنة الى اي شيء مفيـد عمليا. لقد فات أوان كل ذلك. فلا يمكن للكلمات أو النـوايا الحسنـة أن تغير الآن ما أنجـزتـه الوقـائع الوحشيـة للقتل والتشريد والدمار وتهجير السكان بالقوة ـ وهي «الحقائق الجديدة على أرض الواقع» كما يسميها التعبير السيـاسي. لقد كـان تدمير البـوسنة والهرسك هـو الثمن المدفوع لذلك ولايعني هذا ان ما حدث في البـوسنة (من المهم ان نلاحظ ان الهزيمة لا تجعل المرء عاطفيا حتـى مع تصور الكارثة) لم يكن ليصير إلى الاسـوأ. إن ابرز شيء يتعلمه المرء من رحلـة الى الحرب هو أنه يمكـن للاشيـاء دائما أن تصير الى الاسوأ. في اوائل شتاء ١٩٩٣، وفي حفل عشـاء خاص في زغـرب، اشار السفير الاميركي في كـرواتيا بيتر كالبريث في يأس الى انه لن يندهش إذا استمر القتـال إلى ما لا نهاية وقال « لقد

استمر القتال في بيروت سبع عشرة سنة».

وقبل قليل من سقوط الصاروخ في سوق سراييفو في أوائل فبراير ١٩٩٤ ــ وهو الحادث الذي، ولصدمة كل من أهل سراييفو وقاطني المدينة الأجانب، دفع أخيرا القوى الكبرى للتداول حول أول وقف لإطلاق النار في الصراع، وهو ما كانوا راغبين في فرضه وأدرك المحاصرون الصرب أنه لا يمكن تجاهله ــ كان يبدو لي أن قصف العاصمة البوسنية قد يستمر للأبد. فأي شيء آخر جديد؟ في اليوم السابق سقطت قذيفة على منطقة دوبرينيا المعزولة في ضواحي سراييفو ولم يتغير شيء. وقبل عشرة أيام سقطت قذيفة على منطقة مأهولة في سراييفو الجديدة وقتلت ستة تلاميذ كانوا يتزلجون ولم يتغير شيء. فما الأمر السحري بشأن مصرع ثمانية وستين إنساناً اذا قورنوا بمائتي الف قتيل سقطوا قبلهم؟

بدا هناك شيء ما في الأفق برغم أن الأقرب منا للوضع ربما كانوا أقل استعدادا لفهم طبيعة ذلك الشيء. وعند عودتي إلى نيويورك، في أعقاب مذبحة السوق وموجات الأثير تزخر بمناظر وأصوات ذلك الإنفجار، تلقيت مكالمة من صديقة سابقة؛ وهي سيدة رقيقة لا تهتم بالسياسة وليست معنية كثيرا بما يحدث في البوسنة، قالت لي: «انني أشعر بالرعب» وكان واضحا أنها تعني ما تقول. ورغم ذلك فقد تعجبت لسبب ذلك. لماذا يثير في النهاية هؤلاء الموتى دموع الناس العاديين وكذلك الأقوياء إلى فورة قصيرة نحو القرار؟ لكن الحقيقة أنهم فعلوا ذلك. فالنقلة في الإدراك الشعبي أدت بحلف الناتو لأن يصر على أن يوقف الصرب على الأقل قصفهم لسراييفو نهائيا حتى لو لم يمتد هذا الحزم، كما أثبتت الأحداث بعد ذلك، إلى غوراجدي أو أي من المناطق الآمنة الأخرى في وادي درينا شرق البوسنة. وبرغم الحديث المفعم بلهجة الإنتصار، ومعظمه كان صادرا عن واشنطن حيث سارعت إدارة كلينتون بإدعاء الفضل في وقف إطلاق النار، فإن المأساة لم تتوقف، بل غيرت فقط مسرح أحداثها.

ومع ذلك فقد سعد كل شخص يهتم بشعب البوسنة بالسلام الهش الذي تهيأ لسراييفو رغم أن صموده غير محتمل. ولكن فلندع الأوهام جانبا. فحتى لو تغاضينا عن مصير غوراجده وزيبا، فان رفع الحصار عن سراييفو وموستار واثنتي عشرة

مدينة صغيرة أخرى غير مشهورة، وكذلك الترتيبات لإقامة اتحاد فيدرالي بين الحكومة البوسنية والسلطات الكرواتية، والأكثر أهمية من ذلك تخفيض معدل القتل - حقيقة أنه لم يتم حتى الآن إضافة عشرات الآلاف من الأسماء إلى الربع مليون الذين لاقوا مصرعهم بين ربيع ١٩٩٢ وربيع ١٩٩٤ - كل ذلك لايجعل ما حدث في البوسنة أقل من الهزيمة، لنا جميعا وليس للبوسنيين وحدهم. فإيقاف التقتيل هو الغطاء الآن أو «ورقة التوت» التي يجري خلفها تقسيم البوسنة، هذا لو كان البوسنيون محظوظين.

وإذا لم يكن الاسوأ قد حدث بالمفهوم الإنساني - على المرء أن يفكر في المذبحة الجماعية للتوتسي في رواندا ١٩٩٤ ليفهم ذلك - فإن الأسوأ قد حدث بالمفهوم السياسي والأخلاقي. فقد نجحت مجموعة من قوميي صرب البوسنة المتشددين، ممولين من حلفائهم وموجهيهم في صربيا، نجحوا من خلال مزيج من الدعاية الماهرة والترويع في حشد غالبية صرب البوسنة حول قضية صربيا الكبرى. ودمروا البوسنة كما وعدوا بذلك. ويتمثل اللغز هنا، ومع سيطرة الصرب على ٧٢٪ من البوسنة ومع احتمال استعادة الحكومة البوسنية سيطرتها على ٥٣٪ من أراضي الدولة لو طبقت الخطة التقسيم، في أن يدعى أي شخص الدهشة من أن ذلك أدى، على جانب حكومة البوسنة، إلى البزوغ المتوقع إن لم يكن أصولية إسلامية بالمفهوم المغاربي أو الايراني فعلى الأقل لنزعة قومية اسلامية. ومهما كانت الاحتمالات بعيدة الأمد فيما يتعلق بالتقسيم الذي تصورته القوى العظمى، وبخاصة فرنسا وانجلترا، مقبولا غالبا منذ بداية أزمة يوغسلافيا وأخيرا في أعقاب مذبحة السوق مرورا بوقف اطلاق النار الملزم الذي نجح تطبيقه بالمساعدة الروسية الأميركية، فإن البوسنة لن تعود متماسكة كما كانت قبل بدء القتال.

ستكون هناك بوسنة بالطبع كما كانت في شكل أو آخر لأكثر من ألف عام، لكنها لن تكون الدولة متعددة الأعراق المكونة من الصرب والكروات والمسلمين، التي كانت قبل بدء المجزرة. ذلك ما أفلحت في إنجازه المحاولة المنظمة من جانب الصرب لإبادة مسلمي البوسنة. وذلك ما فعلته حملة الصرب لاستئصال جيرانهم المسلمين من أرضهم ولتدمير الآثار، وبخاصة الدينية والمعمارية، لتاريخهم هناك.

وهو حدث يمثل ثالث أضخم محاولة إبادة لأقلية أوروبيـة في القرن العشرين، وهو ما يعترف به حتى نقـاد مسلمي البوسنة في الأمم المتحدة ودوائر الحكومـات الغربية. وبدلا مـن التعددية الثقـافية، رغـم كـل نقائصهـا ونفاقها وعـداواتها المستترة، التي تواجدت بالفعل في المناطق الحضرية البوسنية في توزلا وبانيالوكا وموستار وفوق ذلك في العـاصمة سراييفـو، قبل بدء القتـال في ابريل ١٩٩٢، فـان الدمـار لم يطل فقط أرواح مائتي ألف انسـان بل طال أيضا تـاريخا من التعدديـة والتسامح وذلك المزيج غير العـادي الذي مثلتـه البوسنـة، وهو مـا لابد أن يسفـر عن مستقبل لا يخبىء في جعبتـه سـوى العصبية العـرقيـة والتصلب ثم، آجـلا أو عاجـلا، إنتقـام مسلمي البوسنة.

وليست هناك مغالاة في مثل هذا التنبؤ. فـأي شخص قضى وقتا في البوسنة لابد أنه سمع التهديـدات الشرسة بالانتقام، فجميع الضبـاط البوسنيين في مواقعهـم على خطـوط المواجهة والسيـاسيون في مكـاتبهم نصف المضاءة والبـوسنيون المنفيـون على المقـاهي في دوسلدروف وفـرانكفورت يتكلمـون بصوت واحـد حول تلك المسألـة: «ستدفع أوروبا ثمن مـا جرى لنا»: هذا ما قاله لي مسـؤول بوسني بعد أن اتضح أن وقف النـار الـذي أعلن في سراييفو في فبرايـر ١٩٩٤ سيصمـد بـالفعل. ففي ذلك الـوقت بدا أن السـلام كان حـافـزا أقوى على المرارة من الحرب، فبعـد أن تحرروا من الضرورات الملحـة، كمحـاولـة الحصـول على الماء وهم ينحنـون لتجنب رصـاص القنـاصة، أصبح لـديهم أخيرا الـوقت للتفكير. وبشكل متـزايد بـدأ أهل سراييفـو العاديـون، فضلا عن أعضاء المؤسسة السيـاسية، يستوعبون أخيرا لا مبـالاة أوروبا والولايات المتحدة بما حدث للبوسنة. قال لي ذلك المسؤول: «لن يساعدنا كلينتون. انه يهتم بأمور صحته وليس ببقائنا أحياء».

كـان البوسنيـون قـد استوعبـوا بعـد سنتين من التعـرض «لحفظ السلام» لـلأمم المتحـدة، خـواء وعقم نظام عـالمي يفترض أن قـدسيتـه قد كـرِّست في ميثـاق الأمم المتحدة. لقد تعلموا أنه ليس هناك نظام عـالمي، قديم أو جديد. كذلك تعلموا أنه حتى المبادىء التي تبلورت قبل نصف قرن عند تأسيس الأمم المتحدة في محاولة لربط العالم قانونيا لمنع الإعتداءات في المستقبل كتلك التي شنها صرب بلجراد على دولتهم

والقتل الجماعي التالي الذي عاناه مسلمو يالبوسنة، كانت في الواقع مجرد مزحة. وقد يتكلم المدافعون عن البوسنة في الخارج من أمثال سيناتور نيويورك، دانيال باتريك موينهان، عن «تمزيق» النظام العالمي والمناداة بإجراءات جديدة وأن يتخذ عند الضرورة عمل عسكري ضد الصرب. على أرض البوسنة لم يكن هناك أي نظام لتمزيقه. لقد طالب البوسنيون بالمساعدة وردت الامم المتحدة على ذلك قائلة: «لسنا مخولين بالمساعدة» وقال الأوروبيون «اذا ساعدنا فإننا فقط سنسوًى بالأرض ميدان القتل ونحن لا نريد ذلك»وقال الاميركان: «إننا نريد المساعدة ولكننا لا نستطيع». وهكذا إستمر إفناء البوسنيين بعد رفض الدفاع عنهم وحرمانهم من الدفاع عن أنفسهم.

وقد سمى الدبلوماسيون هذه الكارثة انتصارا. وتفاخرت الأمم المتحدة بأنها تنفذ «تفويضها» تحت ظروف قاسية. وهنأ الأوربيون أنفسهم على أنه رغم مأساوية الوضع في البوسنة فقد «إحتوت» دبلوماسيتهم الأزمة البوسنية بنجاح. أما الرئيس كلينتون، الذي وعد في حملته الانتخابية بأنه إذا أنتخب فسيتوقف التطهير العرقي ثم أمضى الثمانية عشر شهرا الأولى من ولايته في حالة تأهب والتطهير مستمر، فقد وبخ في غضب كريستين أما نبور مراسلة CNN في سراييفو، عندما شككت في وصفه للسياسة الأميركية بأنها ثابتة وناجحة، وقال لها مكذبا: «سيدتي، لم تكن هناك تذبذبات».

لا عجب إذن أن بذور مشكلة فلسطين الأوروبية كانت قد بدأت تظهر قبل وقت طويل من توقف النار في البوسنة. وأيا كان المدى الذي بلغته محاولات أوروبا وأميركا لنسيان أمر البوسنة، وما حدث فيها ــ فبعد شهرين من وقف إطلاق النار في سراييفو كان انتباه الصحفيين والسياسيين قد تحول بالفعل إلى كوريا وأميركا الجنوبية، وكان من الممكن أن تصبح سراييفو أخبارا قديمة ــ فإن البوسنة لم تنس أبدا موقف أوروبا ولن تغفره.

لقد بدا لي ذلك، ومازال يبدو، صحيحا، مهما كان ذلك الشعور مدمراً للنفس موضوعيا، وأيا كانت الدرجة التي يؤدي بها ذلك إلى دمار حياة البوسنيين تماما مثلما أدت الذكريات الماثلة للأحداث الدامية في فلسطين إلى دمار مماثل لحياة

الفلسطينيين، وأيـا كـانت درجـة الخوف التـي تسببـه لي فيما يتعلق بمستقبل القـارة القديمة. فقد كان بإمكان أوروبا والـولايات المتحدة أن توقفا الإبادة الجماعية ولكنهما تخاذلتا عن فعـل ذلك. وكان بإمكـان الأمم المتحدة تفسير تخويلها على أنـه يتطلب منها فعل شيء لوقف التطهير العرقي. وكان بإمكـان الأمين العام بطرس غالي، بدلا من الإصرار على أنه موظف مدني دولي تنحصر مهمته في تنفيذ أوامر الدول الأعضاء، أن يجعل الدفاع عن البـوسنة أولويته الأولى. ولقد كانت لـه كذلك مصلحة في فعل ذلك من حيث أن الأمم المتحدة إما أن تكون كيانا متعدد العرقية ومتعدد الثقافة أو لا تكون شيئـا على الإطلاق. وربما يكون الأعضـاء الدائمـون في مجلس الأمن هم الذي رسموا دور الأمم المتحـدة في البوسنة ولكن السبـب في ذلك يكمن مثل أي شيء آخر في أن بطرس غـالي أتاح لهم ذلك. إنـه حتى لم يدافـع عن البوسنـة أو مفهوم الـدولة متعددة العـرقيات ولـو بالكلام. بل على عكس ذلك يتمثل أحـد الأنشطة الـرئيسية لبطرس غـالي وممثليه في أن يفعلوا كل مـا في طاقاتهم لإحبـاط أي مساعدة عسكـرية خـارجيـة يستطيع البـوسنيـون تـوفيرهـا. تلك هي الحقـائق التي تجعل المرارة لـدى البـوسنيين أنفسهم ومن يهتم بالبـوسنـة متأصلة ومتـأججة. وتلك هي النقطـة التي تتحول فيها قصة هزيمة البوسنة لتصبح قصة العار الذي لحق بأوروبا الغربية وأميركا الشمالية. لقد كشف ما حدث في البوسنة إفلاس كل مؤسسات الأمن الأوروبي، من الناتـو حتى مجلس الأمن والتعاون في أوروبـا، وفضح حقيقة أنـه لم يكن هناك في اي مكـان داخل تلك الكيـانـات الكبرى لا الاستعـداد الـذهني ولا الجلـد الاخـلاقي للتعـامل مع أزمات عـالم ما بعـد الحرب الباردة أو لمواجهـة إحتمال أنه قـد تنشب في المستقبل حـروب كثيرة ليس بين الـدول بل داخل الـدول. ان اقنـاع النفس بتحليل الهزيمة بمفردها يقـودنا الى الطريق الخاطىء. فهزيمة الحق أمام القـوة هي في النهاية أمر شائع في التاريخ البشري وحقيقة موجودة وجود الفضيلة الفردية، ولو كانت غير مستساغة. ولكن الهزيمة بلا ضرورة، الهزيمـة التي كان من الممكن تجنبها، والابادة الجماعيـة التي مـا كانت لتحـدث أو كـان يمكن وقفهـا في بـدايتها كلهـا أشيـاء من البشاعة بحيث لا يمكن إصلاحها.

ذلك مـا حـدث: لقي مـائتـا ألف مسلـم بـوسني مصرعهم على مشهـد من

الكاميرات التلفزيونية العالمية، وتم طرد أكثر من مليونين أخرين من ديارهم بالقوة. لقد تم السماح بتدمير دولة إعترفت بها رسميا الجماعة الأوروبية والولايات المتحدة في ٧ إبريل ١٩٩٢ والأمم المتحدة في ٢٢ مايو ١٩٩٢. وبينما يجري تدميرها كانت القوات العسكرية للأمم المتحدة ومسؤولوها يراقبون ما يحدث ويقدمون المساعدات «الانسانية» ويحتجون ـ ويجب أن يقال هنا، وإلى حد كبير بحق، من حيث أنه لو كان للأمم المتحدة أن تتصرف بشكل مختلف لكان على القوى العظمى اعطاءها تفويضا مختلفا. إن الأمم المتحدة «نفذت» العار ولم تخلقه ـ على انه لم يكن لدى المجتمع الدولي الإرادة لفعل المزيد. لقد أعلن رئيسان امريكيان متعاقبان، أحدهما جمهوري والآخر ديقراطي، مرارا وتكرارا أنهما يمثلان آخر القوى العظمى الباقية ومع ذلك كانا يصران في الوقت ذاته على أنهما عاجزان عن تنفيذ التدخل العسكري أو حتى رفع حظر السلاح عن مسلمي البوسنة. وليس ذلك، كما إدعى كثيرون، بسبب قانون للتاريخ مخيف ومبهم بل هو شهادة على اختيارات محدودة قام بها اؤلئك الذين يحكمون العالم الغني والموظفون المدنيون الذين يديرون لهم النظام الدولي الذي وضعوه. في رسالة إلى صديق يصف لورد بايرون إعداما علنيا لثلاثة لصوص شاهده أثناء مكوثه في روما ـ وربما كان مدركا ان روايته لما شاهده أعطت الانطباع بأنه استمتع بما رآه ـ يضيف قوله: «كنت سأنقذهم لو كان ذلك في مقدوري» أما المتحدثون بإسم القوى العظمى فقد أخذوا الاتجاه المعاكس. فعلى مدى ما يزيد على سنتين نجدهم يحتجون على مدى الفزع مما رأوه ولكنهم يصرون في الوقت ذاته على انعدام حيلتهم وعجزهم. ولاشك أنهم كانوا كذلك فرديا وعلى مستوى شعورهم الشخصي لكن الأمم والمؤسسات التي يمثلونها كانت لا مبالية بإعدام البوسنة. كان الأمر بالنسبة لهم أشبه بالقول: «كان من الممكن أن أنقذهم ولكني اخترت الا أفعل ذلك». وفي غضون ذلك، وكما قال الناس في سراييفو، كانت الأمم المتحدة تتفرج «مثل الخصى في ليلة عربدة».

تلك هي الحياة في عالم ما بعد الحرب الباردة. (يبدو أننا لا نملك أسماء لعصورنا، باستثناء استخدامنا لتعبيرات مثل ما بعد الحرب الباردة و« ما بعد الحديث» كعلامات توضح المسافة التي تفصلنا عن مراحل سابقة). لقد ظللت

لأكثر من عـامين أتردد بين نيويورك وكـرواتيا والبوسنة. وكنت كلما عـدت وحاولت إعادة الارتبـاط بحياتي في وطني أسمع الاصـدقاء يقـولون في جـدية أنـه لم تكن هناك بدائل أخرى فـ «نحن» لدينا جداول أعمال أخرى ومعوقات أخرى للعمل واعتبارات أخرى لابـد من أخـذها في الحسبان. ويكـرر أتباع المرشح كلينتـون مقولتهـم: «انه الاقتصاد» وهو ما قد يضيف إليه اليسـاريون، الذين لا يبدون رغبة في التفكير في أي استخدام للقوة الامريكية لانقاذ البوسنة، «إنها الامبريالية الأمريكية». أما الأمريكان العاديـون الوديعـون فربما يضيفون«إن الأمـر يخص أولادنا أمـا البوسنـة فهي مشكلة أوروبـا». أمـا الملمـون بكل المآسي التي تحدث على كـوكبنـا فسـوف يصرون على التسـاؤل: «وماذا عن انجـولا والسـودان وشرق تيمور والتبـت وهاييتي وروانـدا؟».
وأتذكر هنـا أحد معارفي الذي أخذ يسترجع عبـارة لهيجل(ليست تلك التي أعلنها فرانسيس فوكويـاما حول «نهاية التاريخ» بل كانت استحضارا أقل مغـالاة لـ «طاولة ذبح التاريخ») ليـدعم دعواه بأن مـا يحدث في البوسنـة ما هو الا مثـال أكثر ذيـوعا للأهوال التي تحدث طول الوقت في كل انحاء العالم.

وقبل ذهابي الى البوسنة ربما كان من الممكـن أن أتفق مع بطرس غالي الذي أبدى ملاحظـة أثناء زيـارته اليتيمة لسراييفـو في ٣١ ديسمبر ١٩٩٢ مفادهـا أن ما يحدث هناك هو «حـرب الرجل الغني». وكأحد رجال العالم الثالث الجيـدين كان السكرتير العام يعني أن البوسنة هي حرب الـرجل الأبيض. لقد وبخ أهل سراييفو المدهوشين قـائلا «أنني أتفهم خيبة أملكم ولكنكم في وضـع أفضل من عشرة أماكن أخـرى من العالم.. وأستطيع أن أعدد لكم القائمة»، ثم غادر المدينة. وما أن بدأت أقيم لوقت طويل في البوسنة حتى ادركت ان الامر لا يتعلق أسـاسا بالموافقة أو عدم الموافقة على كلام كهذا بل هـو الشعور بأن هذا السجل المقارن للشهـداء وكل تلك الاحصاءات لاعداد أجسـاد القتلى غير ذات صلة بالموضـوع، تماما مثلما كـان التنافس على أفضل وضع للضحيـة والـذي أصبح بـدعـة سائدة في المدن الجامعيـة الأمـريكيـة في أوائل التسعينات. بعـد تواجدي في البـوسنة، لم أستطع أن أجد معنى لعمليـة التمييز بين آلام شعب وآلام شعب آخر. فهي عمليـة غير ذات موضوع سواء بـالمعنى الأكاديمي أو السياسي: «رتب أفضـل شعراء العصر الفيكتوري حسب أهميتهـم»، «رتب أسوأ

المآسي في العالم».

لم أعد من جانبي آخذ بجدية ذلك الجدل حول ما اذا كان حصار سراييفو أسوأ أم حصار مدينة كويتو الانجولية أو ما إذا كانت معاناة مسلمي البوسنة أسوأ أم معاناة المسيحيين في السودان. إنني أعرف فقط ما رأيته، أعرف ما يحدث في البوسنة، وأعرف أن التغاضي عن تلك الأحداث بدعوى أن هناك أحداثا أكثر فظاعة لن يعني، بالمفهوم الأخلاقي، سوى خلق عدو شرس للخير. كذلك عرفت أن ما يحدث في البوسنة لم يكن هناك مدعاة لحدوثه، وأن الغرب كان يستطيع تجنب المجزرة. والكلام عن جميع المجازر الأخرى التي كان يجب الانتباه إليه ليس أكثر من تبرير متفلسف من أجل الشعور بالراحة لعدم فعل شيء: «سأرى بوسنتك وأريك شرق تيمور».

***

إذا ما عدت إلى الحياة التي كنت تعيشها قبل أن تشاهد منظر الذبح وسفك الدماء، على الأقل إن كنت أحد مواطني العالم الغني، فسوف تصطدم بالنفاق وبالشعور الزائف بالرضا عن كل شيء تعودت أن يكون مألوفا ومبهجا لك. سوف تبدأ بالشعور بأنك غريب في الحياة التي رسمتها لنفسك. وبالرغم من أنه يتعين على جميع الكتاب، بدرجة أو بأخرى، أن يكيفوا أنفسهم ليكونوا غرباء محترفين، ورغم كل ألفتي بهذا الأسلوب في رؤية الأشياء فقد كان سفري جيئة وذهابا من مكان مثل سراييفو أو بانيالوكا إلى مكان مثل مانهاتن يبعدني عن أصدقائي وماضي بدرجة لم أكن أحلم بإمكان حدوثها. لم أشعر فقط وكأنني عدت من أرض الأموات بل كأنني أيضا أصبحت كمن بعث بعد الموت.

وإني لأشعر أنني لست وحدي الذي يراودني هذا الاحساس. فحتى المراسلين الحربيين المتمرسين كان صعبا عليهم أن يستعيدوا أنفسهم بعدما مروا به في البوسنة. واذا كنت اكتب الآن دفاعا عن القضية البوسنية ــ هذا برغم أنني أميل إلى الإعتقاد بخسارة هذه القضية ــ واعتراضا على اللامبالاة القاسية، والتشاؤم الضحل والنفاق الذي أحاط بجريمة ذبح البوسنة، فإنني أشك في أنني أكثر دهشة من حالتي هذه

عن أي شخص آخر. لقد تعودت في حياتي السابقة، قبل البوسنة، على إمتداح نفسي لأن الغضب انفعال كنت محصنا ضده. ومثلما لم أكن أتوقع أن ينتهي ذلك في البوسنة، كذلك لم أكن اتوقع أن اشعر بأنني لن أشفى بعد ذلك منه أبدا.

ولادخل لذلك بالشعور بالراحة هناك، ناهيك عن التصور بأنني بشكل ما «منتمي» كما يفعل الناس عندما يحبون دولا أو قضايا. فطوال الوقت الذي قضيته في البوسنة لا أتذكر لحظة واحدة لم أكن فيها على الاقل خائفا، وأتذكر لحظات كثيرة كنت فيها مرتعبا. ولقد كنت وقتها ومازلت شديد الانتقاد للحكومة البوسنية في سياساتها وفي سذاجتها، وكنت غالبا أضج وأغضب من أسلوب كلام البوسنيين بمثل هذه الخليط من استيعاب الذات وقلة الواقعية عن أنفسهم وعن بقية العالم. وبرغم ذلك فقد بدا أن الأسهل بالنسبة لي أن أكون في البوسنة، مهما بدت الأمور فيها ميئوسا منها ومثيرة للسخط من أن أستمع إلى الطريقة التي اعتاد الغرب عادة أن يتحدث بها عن البوسنة أو، وهو الأسوأ، التي لا يتكلمون بها عنها أصلا.

وسرعان ما تعودت على ندرة ما يعرفه الناس عن البوسنة في دول قريبة مثل ألمانيا وايطاليا. لكن اللحظة المميزة عندي (بعد عام من المجزرة وبعد فترة من بدء حصار سراييفو وبعد أن قامت قوات صرب البوسنة بطرد الغالبية من السكان المسلمين من الوديان الواقعة شرق البوسنة وبعد نسف الغالبية العظمى من المساجد في شمال البوسنة و إزالة آثار إسلام أوروبا التي دامت في المنطقة لخمس قرون)كانت عند قيام الرئيس كلينتون بافتتاح متحف «الهولوكوس في واشنطون. لقد كان يوما للتبجح، مفعما بالأفواه المطبقة والملابس الكئيبة وأسراب الطنطنات البلاغية. وكان من بين الحضور رئيس كرواتيا، فرانكو توديمان، الذي أعرب ذات يوم عن شكه في وقوع كل تلك الفظائع في الهولوكوست. كذلك تواجد كثير ممن نجوا منها بمن فيهم «إيلي ويزل» الذي وبخ كلينتون على سياسة أمريكا تجاه البوسنة، وهي نقطة في صالحة. ومن ناحيته أراد الرئيس أن يحصر الحديث في العموميات. وبرغم ذلك فقد كان له بالفعل إقتراح. فلكي لا تتكرر ثانية الإبادة الجماعية التي حلت بيهود أوروبا خلال فترة النازي شدد بيل كلينتون على ضرورة اليقظة غير العادية وقال «علينا أن نحيي الذاكرة».

لقد كان أقل ما يقال في هذا الصدد هو ما صدر عن الرئيس كلينتون من حديث عن الـذاكـرة وكأنها شيء شبيه بصـاروخ بـاليستي أخـلاقي. لكن الخطأ الاخـلاقي الحقيقي كان في أنه يتكلم بتفاؤل عن المستقبل في الـوقت الذي تجري فيه ـ وكما يدرك هو تمام الادراك، كما كـان بإمكان ويزل أن يـذكره على المنصـة ـ عملية إبـادة جماعية أخرى في أوروبا. ولم تكـن الإبادة الجماعية البوسنية ممـاثلة لما حدث لليهود بـأكثر مما كانت إبادة يهود أوروبـا مشابهة للإبادة الجماعية للأمريكـان عام ١٩١٥. لقد مثلت الإبادة الجماعية لليهـود حافزا لتبني المباديء التي قام عليها النظـام الدولي في أعقاب الحرب العالمية الثانيـة مثل معاهدات جينيف الأربعة، ومعاهـدة الإبادة الجماعية عام ١٩٤٩، وفوق هذا كلـه ميثاق الأمم المتحدة. وكل هذه القـوانين تم انتهاكها بشكل منظم في البوسنة.

لقد مثل حصـار سرايفو نفسه جريمـة حرب. فعلى أرض المعركة كـانت الأمثلة على عـدم إرتكـاب جـرائم حـرب أنـدر من الأمثلـة على إرتكـابها. ولم يكن التطهير العرقي، بطبيعـة الحال، مجرد جريمـة حرب، لقـد كان إبـادة جماعية صرفـة. وقول كلمات مثل «لن يحدث ثانية»، التي قالها كلينتون في افتتاح متحف الولوكوست، لن يعني شيئا آخر سوى الانتقال من موقـف إدعاء البلاهة إلى التبجح الكامل، طالما أن الإبادة الجماعيـة مستمرة في البوسنـة وطالما لم يفعل كلينتون شيئـا لوقفها. لقـد كانت كلماته، حـرفيا، بـلا معنى. فإذا لم يكن هنـاك نية للتدخـل لوقف الإبـادة الجماعية الجارية فإن عبارة «لن يحدث ثانية» لن تعني أكثر من «لن يحدث ثانية أن يقتل الألمان اليهـود في أوروبـا في الأربعينـات»، وكأن كلينتون يقـول: «لن تحدث ثـانيـة مجاعـة البطـاطـس» أو «لن تحدث ثـانيـــة مجزرة البيجنـز». والآن، وفي ضـــوء معـدل سير الأحداث، هل يتوقع المرء أن يقوم رئيس أمريكي قادم، عام ٢٠٥٠، بافتتاح متحف للتطهير العرقي؟

خلال الحملة الانتخابية عام١٩٩٢ وعد المرشـح كلينتون باستخدام نفوذ أمريكا في إنهاء هذه الإبادة الجماعية الجارية في البوسنة وبعد مضي كل هذا الوقت قد يصيح أحـد أعوان كلينتـون في وجهي في غضب: «لماذا يأخذ النـاس الآن وعود الحمـلات الإنتخـابيـة بمثل هذه الجديـة؟)أو على الأقل، إعطـاء الحكـومـة البوسنيـة وسيلـة

الدفاع. وبعد عامين ، يبرر تشارلز ريدمان، مسئول الخارجية الامريكية المكلف من الرئيس كلينتون بوضع خطة سلام في البوسنة، قبول أمريكا بمبدأ التقسيم قائلا: « كان علينا أن نقفز فوق الجسر الأخلاقي» للحصول على السلام. لكن على أقل تقدير ظل الأمريكان ملتزمين كلاميا بفكرة السماح للحكومة البوسنية بالدفاع عن نفسها أمام العدوان الصربي، وفي أواخر ١٩٩٤ قرروا أنهم لن يستمروا في تطبيق حظر السلاح. أما الأوروبيون فقد أنكروا أصلا وجود أي عدوان وتحدثوا بدلا من ذلك عن حرب أهلية في البوسنة. وعارضوا بإصرار رفع حظر السلاح الذي مررته الأمم المتحدة قبل أكثر من عام كجزء من مجموعة عقوبات قصد منها عقاب الصرب على الحرب التي كانوا يشنونها ضد كرواتيا المنسحبة من الاتحاد اليوغسلافي. وظلوا متمسكين بتلك السياسة رغم أن الحرب في كرواتيا إنتهت وبرغم أن هذه السياسة لا تؤدي الآن الا إلى تعزيز موقف الصرب في البوسنة. فالصرب ووكلاؤهم في البوسنة لديهم أكثر من كفايتهم من السلاح، فقد ورثوا مخازن الجيش الوطني اليوغسلافي وحصلوا على القليل الذي لا يتوافر لديهم من الروس واليونانيين. أما موقف الكروات فكان أكثر تعقيدا فقد تحالفوا مبدئيا مع الحكومة البوسنية عندما بدأ القتال في ابريل ١٩٩٢ ومع ذلك فعندما صار واضحا أنه حتى وفق خطة فانس ـ أوين فان البوسنة بعد عام سيتم تقسيمها على أساس الغلبة العرقية في المناطق المقسمة، بدأ الكروات حملة التطهير العرقي الخاصة بهم ضد المسلمين. وقد تفجر هذا الموقف عندما لم تتمكن قوات الكروات من الإستيلاء على القسم المسلم من مدينة موستار وعندما قامت قوات الحكومة البوسنية بهجوم مضاد ناجح في وسط البوسنة. وأخيرا ، في عام ١٩٩٤، وبعد هزيمتهم على أرض المعركة وتحت ضغط امريكي وألماني، عاد الكروات ثانية الى العمل المشترك مع حكومة سراييفو بل وحاربوا معهم في هجوم الحكومة الذي طرد قوات الصرب خارج مدينة كوبريس في أواخر اكتوبر ١٩٩٤. ولم يتمكن الكروات فحسب من شراء كمية كبيرة من السلاح من السوق المفتوحة بل إن إحياء تحالفهم مع حكومة البوسنة ضمن لهم نصيبا من أي عتاد تمكن الجيش البوسني من تهريبه للداخل. وبعد هذا كله فالبوسنة محصورة ولابد أن يمر كل شيء عبر الحدود الكرواتية.

وبطبيعة الحال فإن الغرض الحقيقي من الإبقاء على الحظر تمثل طوال الوقت في ضمان وصول أقل عدد من السلاح الى الجانب الحكومي . ورغم أن الحظر قرره مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة في ٢٥ سبتمبر ١٩٩١ قبل أن تعلن البوسنة استقلالها فإن حقيقة أن حكومة البوسنة فقط هي التي تضررت لم تزعج أحدا . بل ان وزير الخارجية البريطانية دوجلاس هيرد رأى أن عدم التوازن العسكري الذي أطال الحظر أمده أكد في الواقع أهمية أن يظل الحظر ساري المفعول : «إننا لا نريد أن يتساوى طرفا القتال» ، هذه العبارة كررها هيرد أكثر من مرة . لقد بدا وكأن ماكان يخشاه هيرد ، في واقع الأمر ، أنه إذا تحسن تسليح قوات حكومة البوسنة فسوف يلقنون الصرب درسا . ومن يدرى ما كان سيحدث عندئذ؟ لقد كان هذا الاختيار أفضل كثيرا ، برغم كآبته ، من أن نتمنى النصر للصرب . فعلى أقل تقدير سيتوقف القتال .

لقد كان هناك مسئولون داخل الحكومة البريطانية راغبين في مثل هذا التنازل : «لم يكن يجب علينا الموافقة على تقطيع أوصال يوغسلافيا دون أن نسوى أولا مشكلة الأقليات والحدود وربما ليس قبل أن يكون في أيدينا برنامج إنساني لمبادلة السكان . إن الإعتراف بالبوسنة وتحريض مسلمي البوسنة على إعلان استقلالهم كان أعلى مراتب العمل الأخرق» ، ذلك ما كتبه السيد ر. د. ويلكينسون من مكتب تخطيط السياسة الخارجية التابع لوزارة الخارجية البريطانية . أما بالنسبة للموقف الأمريكي فإن ما بدا نقطة جوهرية فيه هو الاحجام عن إنفاق رأس المال السياسي اللازم لإنقاذ البوسنة . فقد ذكر أن تيم ويرث ، سناتور كلورادو السابق ومستشار كلينتون ، أبدى تلك الملاحظة : «إننا لا نستطيع ان ندع البوسنة تعرض للخطر أفضل أمل ليبرالي لجيل كامل» . وذكر مساعدو كلينتون الساخطون أن موقفا حرجا قد نشأ عندما كانت الإدارة تفكر في إرسال وزير الدفاع إلى سراييفو فعارضت هيلاري رودهام كلينتون بانفعال هذا التحرك على أساس أن ذلك سيخفي برنامج الرعاية الصحية من الصفحات الأولى خلال زيارة وزير الدفاع للبوسنة . وعندما سمعت بهذه القصص فإن كل ما استطعت أن أفكر فيه هو الموتى وكيف كانوا في حاجة إلى ألا يموتوا . ومازال يراودني هذا التفكير البسيط أيا كانت آثاره على المستقبل السياسي «لأفضل

أمل لجيل كامل».

لقد التحمت آثار كل من العداوة الأنجلو فرنسية للبوسنة مع المراوغة الأمريكية لكفالة أن يكون للحكومة البوسنية، طوال عامين، حصة الأسد من القتلى. فقبل بدء القتال كان لدى الصرب كل السلاح (وبعكس سلوفينيا، فإن البوسنة لم تقم أبدا قوة دفاعية حدودية وإنما أنشأتها بعد بدء القتال) وبعد أن بدأت المعارك جديا، تمكن الصرب من أن يقيموا خطوط إمداد من صربيا مباشرة عبر البوسنة إلى كرواتيا. ولقد كان التطهير العرقي يهدف في جزء منه إلى جعل هذه الطرق آمنة من هجوم العصابات. كما أن الصرب استولوا كذلك على معظم التلال ـ وهي أول بديهية في إستراتيجية الحرب. وسواء تعلق الأمر بالمرتفعات المحيطة بسراييفوا أو جبل فلاسيك في وسط البوسنة مع هيمنته على مدن المسلمين والكروات الممتدة أسفله، فإن الذين أمضوا الحرب منا متنقلين مع قوات الحكومة البوسنية كانوا يقضون الوقت منكمشين تحت وطأة القصف مع شظايا في أعناقنا بسبب رفع رؤسنا لرؤية مواقع البنادق على الجانب الآخر.

ورغم الدعاية عن الجنود غير النظامين الملتحين «التشتنيك» الذين يعلقون شعار النسر الابيض الصربي والدبابيس برأس الموت مع صناديق ذخيرة مدافعهم الثقيلة ليبدوا مثل التشتنيك الاصليين ـ وهم الجنود الملكيين غير النظاميين بقيادة الجنرال ميها يلوفيتش الذي قاتل ضد جنود. تيتو غير النظاميين أثناء الحرب العالمية الثانية ـ فإن معظم المحاربين الصرب في البوسنة كانوا يشبهون ويتصرفون (وغالبا ماكانوا) كأفراد في الجيش النظامي: الجيش الوطني اليوغسلافي. قبل بدء القتال في البوسنة كان قائدهم راتكو ميلاديتش قد قاد فيلقا خلال الحرب الكرواتية. وفقط بعد ان احتل الصرب ثلث كرواتيا تحرك إلى «بالي» ضاحية سراييفو التي أعلنت عاصمة لجمهورية صرب البوسنة التي أعلنها صرب البوسنة من جانب واحد. وقد استولى ملاديتش على مخلفات الجيش اليوغسلافي في البوسنة وعلى مخازنه ومعسكراته بالاضافة الى معظم ضباطه النظاميين وأفراده. وظهر ذلك جليا فيما قاله لي ضابط كندي يعمل مع قوات الأمم المتحدة في سراييفو من أن «الصرب جنود حقيقيون، وأيا كان رأيك فيما يفعلونه، فإنهم بالنسبة لي نوعية متميزة كمقاتلين».

إن كون إنجازهم الرئيسي تمثل في القتـل في واقع الأمر، وإن كان القتل ذا أهداف سياسيـة وعسكريـة دقيقة التخطيط (لم يكن التطهير العـرقي مجرد جريمـة حرب بل مثل تكتيكا للسيطـرة على الاراضي المحتلة دون قلق من وجود سكان منـاوئين)، قد بدا، في ضوء الاحباط المتزايد للصحفيين الذين يغطون القتال ودور الأمم المتحدة في تخفيف آثاره دون التوسط فيـه لا يصنع فرقا على الاطلاق. وفي نظـر الضابط العادي في «قوات الحمايـة» التابعـة للأمم المتحـدة ـ وهـذه التسمية، والمكـروهة من جـانب المسلمين البوسنيين، كانت تعني في الواقع قوات الحماية الذاتية (أي حماية نفسها)ـ لم يكن الجو في ميس الضبـاط في بـالي، مع بعـض التجـاوز نتيجـة لظـروف الحرب وخصوصيـات البلقان، يختلف كثيرا عن أي قاعـة ميس تعود فيها تناول الـوجبات والإستراحة.

وعلى الوجـه الآخر ، كان جنـود الحكومة البـوسنية أقـرب ما يكونـون إلى مدنيين يتدربون على كيفيـة أن يكونوا جنودا. كانوا يستلقـون على كراسيهم ويسيرون بمشية غير عسكريـة بالتأكيـد مثيرين الإنطباع بأنهم بعيدون تمامـا عن الطقوس والتقـاليد التي هي صلب العسكـريـة في كل دولـة تقـريبـا. فكثير منهم إن لم يكن معظمهم مدنيـون والباقـون ضباط صغار. ومن المؤكـد أنه من النادر أن تقـابل ضابطـا ذا رتبة عالية في قوات الحكومة البوسنية كان قبل الحرب يحمل رتبة تفوق رتبة الرائد في الجيش الوطني اليوغسلافي.

إن ما كان يملكه البوسنيين بالفعل هو أوهامهم، وبخاصة إعتقادهم أن ما كان يحدث لهم منذ بـدء القتل مثّل بشكل ما نـوعا من الخطأ الفئوي المروع. كـان الأمر، كصورة معكـوسة لـوصف بطرس غالي لـورطتهم، وكأن البوسنيين تصـورا أن كونهم أوربيين سيحميهم من أهوال الحرب. فأوربا، بـالنسبة لهم ،هي قارة أصبحت فيها القيم العالمية التي يدافعون هم عنها عرفا متبعا .

وفي سراييفو، بصفـة خاصة، وحتى لحظة إنـدلاع القتال، كان متوقعـا أن تكون الحياة في المستقبل لا تختلف في شيء عن الحياة في «مدن الأقاليم» الأوروبية الاخرى، مثل تريستا او غراز. وحتى عندما أدركـوا أنهم وقعوا في خطأ مريع حول ما يخبؤه لهم القدر في المستقبل لم يستطع، سوى عدد قليل منهم ، أن ينبذ تماما تلك التوقعات.

فلم يكن يفترض أن تندلع حروب في غابات أوروبا كثيفة الخضرة في التسعينات، بين أناس أصبحت ملكية أكواخ على شواطيء البحر والسيارات المستعملة والتعليم الجامعي أمرا شائعا لديهم. فالحروب تندلع في العالم الفقير. وفي دولة غنية مثل يوغسلافيا السابقة، كان من المفترض أن يسود سلام راسخ الأسس ومتحضر، برغم تاريخها الدموي.

وعندما جاءت الحرب، أدرك سكان البوسنة من الطبقة الوسطى، وبخاصة في مدن سراييفو وموستار وتوزلا وبانيالوكا، في ألم أنه رغم استماعهم لخطابات القوميين الصرب من أمثال سلوبودان ميلوسيفيتش، رئيس صربيا، ورادوفان كاراديزيتش، زعيم صرب البوسنة، فإنهم في الحقيقة لم يسمعوا شيئا. إن المقارنات بين ميلوسيفيتش وبين هتلر غبية ولا تعني شيئا(ـ تلك الرغبة الجامحة لعهد ملطخ بالشطط البلاغي الذي يصر على أن أي شيء جيد هو الاعظم وأي شيء رديء هو الأسوأ ـ ولكن عجز سراييفو هذا عن السماع يذكرنا برد فعل كارل كراوس الممثل النموذجي للتيار العالمي النزعة في وسط أوربا خلال فترة ما بين الحربين ـ الذي كتب يقول: «عندما أفكر في هتلر لا يرد شيء في عقلي». كذلك لا يستطيع كثير من مواطني سراييفو العالمي النزعة، وحتى هذه اللحظة، إستيعاب ما حدث لهم. والواقع ان ذلك الخلط الادراكي وسوء الفهم لوضعهم التاريخي هو الذي يميز رد الفعل البوسني على الحرب التي أحاطت بهم عن رد فعل الافغان أو الأنجوليين. ففي البوسنة، اكتسى الألم العالمي الذي تثيره الحرب بتلك المسحة من الدهشة لدى أولئك الذين اعتقدوا أن حياتهم المادية ستكون دائما سعيدة.

فلقد قيل الكثير عن أن «نهاية التاريخ»، ذلك المفهوم الذي لم يكن يعني أكثر من «نهاية الشيوعية»، سيتبعها عصر الاستهلاك الذي تسوده البلادة والهدوء.

وأتصور الآن أنني إعتقدت ذلك أيضا، متخيلا أنه قد ولّت بشكل حاسم عهود الدموية، بالنسبة للأوربيين البيض على الاقل. كنت أعرف أن أوروبا لم تكن، تاريخيا، مكانا لطيفا بشكل خاص، وأنها كانت في فترات معينة ـ مثل الخمسين عاما الأولى من القرن العشرين وهي التي يجب أن أوليها إهتمامي ـ مكانا «وحشيا» بصورة خاصة. ولكن رغم أنني كنت أعرف ذلك، فإنني لم أعتقده بعمق أيا كانت مشاعر

الأسف والاشفاق التي كنت أحس بها إزاء هيروشيما وأوزويتش وخراب افريقيا وأرخبيل الجولاج. فهذه الأحداث كان من الممكن أن تقع أيضا في حقبة جيولوجية أخرى.

لقد ظننت قبل بداية ذهابي إلى البوسنة أن الأزمة التي تلوح في أوروبا يمكن أن تتمحور حول الأزمة الدولية العامة التي بدا أن العالم الغني سيمر بها.

لقد كانت أعداد متزايدة من الناس من العالم الفقير غير الأوروبي تهاجر بنجاح إلى دول الإتحاد الأوروبي وأمريكا الشمالية ليقوموا بالأعمال التي لم يعد المواطنون راغبين في القيام بها. كان وجود هؤلاء المهاجرين والتحديات ـ الثقافية والعنصرية واللغوية ـ التي فرضوها هي التي بدا أنها الورطة الكبيرة والعنيدة التي يخبؤها المستقبل للعالم الغني. فلم يكن لأوروبا تقاليد للهجرة. وبعكس الولايات المتحدة، التي مرت بتحولاتها الخاصة المرتبطة بالهجرة، ولم يكن هناك سياق معرفي قوي لما كان يجري. ولكن الأزمة لا تعني الحرب، رغم أنني في لحظاتي الأكثر كآبة وجدت انه من السهل تصور مستقبل أوروبا وقد أصبح القمع والنزعة المناهضة للديمقراطية هو القاعدة. وستتألف أوروبا تلك من مواطنين ومهاجرين أو بعبارة أخرى، ستكون كمجتمع أقرب إلى أثينا جامعة العبيد منها إلى العالم الإجتماعي الديمقراطي فيما بعد عام ١٩٩٥ وقبل الإجماع الأوروبي الغربي عام ١٩٨٩. ولكن ما لم أستطع تصوره هو صوت رصاص الدبابات وصفير طلقات القناصة وهو يدوي عبر نوافذ المباني العالية وعبر الحدائق الأنيقة والمتاجر والمقاهي المتلألئة ومعارض الفن التشكيلي ومعارض السيارات والمراكز التاريخية في مدينة مثل سراييفو. لم أستطع أن أتصور هذه الأشياء بأكثر مما تصورها البوسنيون أنفسهم قبل أن يغمرهم ما لم يخطر لهم قط على بال.

الفصل الثاني

أتيت إلى البوسنة بمحض الصـدفة تقريباً، دون خبرة في الحرب، مدفـوعاً بفكرة أن القتال الـدائر في أوروبا لم يكن نـذيراً للمستقبل بل مفارقـة تاريخية مـرعبة وممـزقة لنيـاط القلب. وربما كـان هذا هـو السبب في أنـه حتى في ذلك الـوقت من صيف ١٩٩٢ ظلت مـذبحة البـوسنة لاتزيـد عندي عن كـونها فكرة مجردة كما كـانت، في اعتقـادي، بـالنسبة لكثير من الأوروبيين والغـربيين والأمـريكيين الشماليين. فـرغم المعلومات الكثيرة التي تسربت عما كان يحدث هناك لم أجـد سياقا أتفاعل معه، لقد تعاطفت تلميحاً ـ وأعني بذلك في ألم ـ عندما كانت الصورة المرئية للمذبحة أقوى ما تكون ولكن التعاطف كان يختفي عندما تغيب القصة عن إذاعات الأخبار المسائية، ولكنني لم أفهم. وفي ذلك الصيف، وبعد ان انتهت حرب الكـروات وبدا أن تدمير البوسنة قد أصبح وشيكا، صار من الشائع ان تسمع أناسا لطفاء ذوي مصادر وثيقة من كلا جانبي الأطلنطي يتكلمون باستغراب عما كان يحدث، كما كان شائعا بنفس القدر ان تسمعهـم يمزجون تعبيراتهم عن التضـامن الأخلاقي بتعبيرات عـن انعدام الحيلة والتي كانت معرفيـة بقدر ما كانت عملية. وبوجه عـام، بدا انهم أقل صدمة إزاء وقائع «التطهير العـرقي» ـ وكـانت في ذلك الـوقت عبارة جـديدة ـ أو بحصار سراييفـو عن صـدمتهم إزاء حقيقـة أن تلك الأحـداث كـانت دائرة في أوروبـا في التسعينات.

لقـد بدت لي العبـارات التي أخـذت تبرز بشكل متواتـر عندمـا ظهـر موضـوع البوسنة بمثـابة التأكيد على أن الحيرة التي أصابت الناس عندمـا أجبروا على مواجهة أي حادثة رهيبة ارتبطت، في حالة البوسنة، بذهول حقيقي بأن ما كان يحدث يجري في أوروبا. ظل الناس يتساءلون كيف يمكن أن يحدث ذلك هنا، (و«هنا» هذه تمتد لتشمل جزيرة مانهاتـن وجورج تاون وكامبردج وماساشوستس إلى جـانب فرنكفورت وميـلانو وبـاريس)، ويهزون رؤوسهم متعجبين من فكرة أن سراييفـو، وهي مدينـة

أوروبيـة، كـانت بطريقـة تتحـول منظمـة إلى أنقـاض على يد عسـاكـر الصرب على المرتفعات المحيطـة. لم يكن هناك مجال للدهشـة في أن أوروبا، في هذا السيـاق، قد أصبحت تصنيفاً أخلاقياً بقدر ما هي تصنيف جغرافي.

وبالرغم من أزمةالثقة المفترضة في أوروبا فإن الصيحات ضد «المركزية الأوروبية» التي أدت إفتراضاً، بعبارة الكـاتب الفرنسي باسكال بـروكنر، إلى «التحلل الأخلاقي غير المبرر في نصف الكرة الغـربي» فإن المفهوم القـائل إن أوروبا أكثر تحضراً أخـلاقيا كان مترسخاً بأكثر مما يزعم عادة. وإذا كان ما يحدث في البلقان يوحي بأنه لا يمكن رسم خط واضح بين قيم أوروبا وقيم الأجزاء الأخرى من العـالم ـ أو بين الغرب وبقية العـالم كما يرى أصحـاب النزعـة المحافظـة ـ فإن الأخبـار السيئة ظلت منفصلـة عن التجربة اليومية للحياة في الغرب التي ظلت فكرة الحرب غريبة تماما عنها.

كان على الحضور إلى أوروبا للذهاب إلى حرب، وكنت قد بدأت العمل في كتاب عن أثر تلك المجموعات الجديدة والمنبوذة مـن اللاجئين والمهاجرين الذين وصلوا إلى القـارة القـديمة من كل مـن تلك المناطق مـن العالم التي يميل معظمنـا إلى تسميتـه بالعـالم الثالث تعبير ـ وهو تعبير فضفـاض بحيث لم يعد له معنى سـوى أنه يعكس نيتنـا السيئة ـــ ومن العـالم الثالث «الأشقـر» الجديـد المكون مـن المناطق المدمـرة من الامبراطـوريـة السوفيتيـة السـابقـة التي تحصنت منهـا أوروبـا الغربيـة منـذ ١٩٨٩ بالأسلاك الشائكـة والنزعة الاستبدادية. لقد انجـذبت لوقت طويل إلى الحدود سواء في ذلك الحدود الفعلية أو النفسية وبعد توحيد ألمانيـا فقد أصبح لنهر الأودر جاذبية لا تقل عن جاذبية نهر ريو جراند أو مضيق فلوريدا. وربما لأنني في سن مكنني من معرفة كثير من المدن الأوروبية الكبيرة على عهـدها قبل عصر الهجرة الجماعية فإنني لم أكن أغـالب الصدمـة، كلما رجعت إليها، من التشـابه المتـزايد بين لـوس انجلوس بالغالبيـة الجديدة المكونة من اللاجئين من شرق آسيـا والمكسيك ووسط أمريكا وبين مدينة بروكسل التي، وعلى نقيض التجانس النسبي عـرقياً وجنسياً التي تميزت به منذ جيل واحد فقط، أصبح أكثـر من ربع سكانها من تركيا والمغـرب وأفريقيا. ولكن ان تصبح لـوس أنجلوس نمـوذجاً لأمريكـا المتحضرة في القرن الحادي والعشريـن فهذا شيء محتمل أمـا أن تمر بروكسل، المدينـة التي أصبحت العـاصمـة الإدارية لـلاتحاد

الأوروبي الجديد، بتحول ديمغرافي مواز، فإن الأمر يصبح أكثر غرابة ويعني في النهاية أن أوروبا بسبب الديمغرافيا، سرعان ما ستكون كذلك متعددة الثقافات والأجناس.

وفي أوروبا كان مثل هذا التحول أصعب بكثير من أن يصبح متصوراً ، فقد كان مفترضا أن يتمثل النموذج الأمريكي أساساً في التغير، أيا كان حجم السخط الذي يبديه كل جيل من أجيال الأمريكان «الأرثوذكس» والذين يتأقلمون في النهاية مع الموجات المتعاقبة من الوافدين الغرباء. وكان المفترض أن تكون أوروبا، إن لم تكن غير قابلة للتغير، فعلى الأقل تكون مستقرة . لقد مثلت ظاهرة أن يكون ميدان بيرشنج وسط لوس أنجلوس غير مألوف في التسعينات لمن كان يرتاده قبل نصف قرن، المأزق الأمريكي في نموذجه الأصلي تماماً عندما تتفاخر في الشوارع الجانبية من «جراند بليس» بمطاعمها التي تبيع الكباب الدسم وعندما تمشي السيدات التركيات وعليهن غطاء الرأس والملابس الأناضولية الطويلة يتجولن في مركز المدينة التاريخي ببوتيكاته الجملية التي تخدم رجال الأعمال البلجيكيين ومسئولي الجماعة الأوروبية فهو أمر مختلف تماما. . لم يكن السائحون الأمريكان فقط هم الذين تخيلوا أن الشخصية الأوروبية كانت بشكل ما أكثر ثباتاً وأقل تمثيلاً لبلدانها وأن أوروباً مهما صارت «أمريكية» في أمور أخرى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فانها لم تصبح بعد، فيما يتعلق بهذه المسألة، بمثل هذا التأمرك. فمع انحسار الحرب الباردة أصبحت الهجرة الموضوع الرئيسي الذي يؤرق الأوروبيين.

على أنه بالنسبة لشخص أمريكي، بدا ما كان يحدث مألوفاً وقد جئت إلى أوروبا، بعد أعمال طويلة على الحدود الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية للولايات المتحدة، بحثاً عن تلك «الأمركة» لمستقبل أوروبا، وهو مشروع دفعتني إليه الرغبة في التوصل إلى إجابة بمثل ما دفعني إليه الاعتقاد الأكثر إنشائية القائل إننا إما أن نكون متعددي اللغات في القرن الحادي والعشرين وإما نقتل بعضنا بعضا.

ولشهور، كنت أتسكع في المناطق التي أعتبرها المهاجرون ملكاً لهم في عدد من مدن القارة الكبيرة ولكن بخاصة في ألمانيا، محاولاً لهم في عدد من مدن القارة الكبيرة ولكن بخاصة في ألمانيا، محاولاً جمع المعلومات عما كان في الواقع متشابها من الطرق

التي تأثرت بـالهجرة في أوروبـا وأمريكا وتلك التـي لم يحدث لها ذلك. وخلال تلك الرحلات، حاولت أيضاً أن أزور أكبر عـدد من مخيمات ومراكز اللاجئين الجدد التي أقـامتهـا مختلف الحكـومـات الأوروبيـة القـومية والمحليـة، وطـول الـوقت أكتب الملاحظات متمنياً، كما يفعل أي كـاتب عند البدء في موضـوع جديد، أن تتضح في النهاية ملامح كتاب أقوم بكتابته.

كنت أقضي أيـامي مع البـاحثين عن مـلاجـىء والشبـان حليقي الـرؤوس، والأخصائيين الاجتماعيين ولكن ظلت الحرب في يـوغوسلافيـا مادة للأخبار المسائية أينما سافـرت. ولكن من منظور روستوك ليختنهاجن، حيث أشعل النـازيون الجدد بيتاً مخصصا للبـاحثين عن اللجوء السياسي، أو في مولـن حيث أحرقوا عائلـة تركية أحياء داخـل متجرها، أو في الجانب البـولندي لنهـر أودر حيث يتجمع العمال غير الشرعيين من وارسو القريبة أو من الصومال كل ليلة ليعبروا المياه الضحلة إلى الجانب الألماني، فقد بـدا لي إنهيار يوغوسـلافيا مسألة ثانـوية أيا كانت مأسـاويته ليس فقط مقارنـة بالموضوع الـذي بدأته بل كـذلك مقارنة بـانهيار الاتحاد السوفيـاتي قبل ثلاث سنـوات. كانت الحرب البـاردة هي التي حددت فهمي للعـالم، وإذا لم يكن لسبب آخر، فقـد جعلت أيضاً نهاية فكـرة الفناء النووي التي صـاحبت ذلك الصراع ومنذ مولدي، يبدو عام ١٩٩٢، رغم أنـه لم يكن وقتا مفعماً مثل ١٩٨٩، فترة يكون فيها أي شخص عاقل على ثقة تامة من تحققها بفعل السير العام للأحداث.

وبعد كل مـا كان يقـال ويحدث، ماذا يمثل سقـوط يوغوسـلافيها إذا مـا قورن بالدمار النهائي والذي طال انتظاره للنظام الشيوعي؟ بالتأكيد كانت يوغسلافيا دولة مثيرة للاهتمام، وإذا كنا قـد ضللنا بالشعور الكـاذب بما صارت إليه يوغسـلافيا من خلال الدعـاية الموالية لتيتو التي أبـرزتها وسائل الإعلام المضادة للشيـوعية في الغرب، فإن الغربـاء مثلي لم يكونوا أكثـر إرتياحاً لإدانتها كما فعلنـا مع بلغاريا وبـولندا بل حتى المجر الأكثر تحرراً تحت شيوعية «الجولاش» في عهد كادار. ولقد بدا تيتو نفسه، أيـا كان خطـؤنا عنـد استرجـاع الأحداث، شخصيـة أبعد كثيراً عن الملامـة من أي شخص آخر في الكتلة الشرقية ــ كان طاغية كما هو واضح ولكنه كـان أشبه ما يكون بكاسترو أو «هوشي منه» الذي لم تكن لهما جاذبيـة «كارزمية» هائلة بل كان كل منهما

يبدو أيضـاً أكبر بكثير من البلـد الذي يقوده. وبعكـس كاسترو أو هـو، وأقرب إلى فرانكـو، كان تيتـو شخصية يمكن أن تنهي حيـاتها، ربما رغماً عنها، بإدخـال نظام أكثر ديمقراطية مما توحي به أيدولوجيته أو تاريخه.

ومع ذلك ومن منظور العالم اللا مبالي، هل يهم الأمر؟ ألم تبدو يوغوسلافيا دائماً، بموقعها بين الشرق والغـرب، والتي تحيا على المساعدات الأمـريكية في الأربعينات ثم على التحويلات الماليـة لعمالها الوافدين إلى أوروبا الغربيـة في فترة الازدهارالاقتصادي لألمانيـا ثم في الشرق الأوسط في عهـد البترودولار وفي نهايـة حكم تيتـو على القـروض واmoيلات غير الناجعة من المعونات الدوليـة والبنك الدولي ـ ألم تبدو يوغسلافيا على الدوام مسألة ثانوية؟

في عام ١٩٨٠، عندما ذاعت الأخبار عن حـرب الإبادة الدائرة على يد نظام بول بوت في كمبوديا لم يدع أحد أن المأساة مهمة بسبب أهمية كمبوديا من ناحية الجغرافية السياسيـة. فإذا استنتج الناس أن حرب الإبادة هنـاك غير محتلمة فقد كانـوا يفعلون ذلك على أساس أخلاقي معتقدين أن هناك حـالات شاذة ـ من حرب الإبادة بشكل خاص ـ العالم ملزم على أساس أخلاقي وربما شرعي كذلك إذا صدق المرء أن اتفاقية حرب الإبادة ١٩٤٩ ملزمة لكل من وقوعها، بالتدخل لوقف استمرارها. وحتى على أيام كمبـوديا، كان هناك من أشـاروا إلى أي عدد آخر من الكـوارث المستعصية التي كانت تحدث في كل أنحاء العالم في ذلك الوقت. أو كما ذكر مدير اليونيسيف جيمس جرانيت للكـاتب الانجليزي وليم شوكروس «انها بـالتأكيد مزعجة»، ولكن بـرويتها بعيـداً عن العاطفـة سنجدهـا واحـدة من كوارث كثيرة ولكنهـا ليست أسوأهـا بكل المعايير. هل ما جعل يـوغسلافيا جديرة بالملاحظة عـام ١٩٩٢ هو أنها كانت تحدث في أوروبـا، في تلك القـارة السعيدة والموهـوبـة حيث لا يفترض للحـروب، بعكس الكوارث الطبيعية والجرائم، أن تنشب؟

هل يعني ذلك أن ما كـان يحدث هناك كان جديراً بـالاهتمام بشكل خاص؟ لماذا البوسنة؟ لم لا تكون. . . . ؟ يبدو أن القائمة تطول وتطول.

لعل هـذا كان السبب في أنـه كان أسهـل كثيراً على أناس مثل مـارجريت تـاتشر والمحافظين الآخرين ـــ والذين لم تكن لديهم شكوك في الحضارة الأوروبيـة بوصفها لا

تمنح فقط الامتيازات بل تتطلب مستوى أعلى من السلوك السياسي لمن هم في فلكها ـ أن ينادوا بالدفاع أولاً عن كرواتيا ثم عن البوسنة. بالنسبة لهم فإن العدوان الصربي، الذي عرفوه بشكل سليم ـ مستنكرين كل الإدعاءات حول الحروب الأهلية والأصولية الإسلامية والعنف الكامن في شخصية البلقان ــ كان ببساطة خطأ وشيئاً غير مقبول يجب تصحيحه. أما بالنسبة لليبراليين، الذين كانوا قد تحرروا من وهم فكرة الحضارة الأوروبية (أيا كان تأصلإقرارهم لها في أعماق أعماقهم) فقد كان الوضع أصعب بكثير، فعلى مدى جيل حاولوا أن يزيحوا عن أنفسهم وحاولوا أن يروا العالم ليس من منظور زاويتهم الضيقة داخله بل بكليته. وقد جعل ذلك مواجهة موضوع يوغسلافيا، وحتى الاهتمام بيوغسلافيا، أصعب بغير حد حيث تعودوا على التفكير بأن أوروبا إحدي مناطق العالم التي لا يجب على أحد الاهتمام بها كثيراً، في الواقع، التي من الخطأ الاهتمام بها بمثل هذا القدر. والذين كانوا مهتمين بالفعل كانوا متأكدين أن شخصا ما، سواء كان بطرس بطرس غالي في الأمم المتحدة أو كاتب العمود المحلي اليساري، يمكن أن يتهمهم بالتأثر على نحو خاص بمعاناة الأوروبيين البيض. ولقد شعر السكرتير العام بالحرية في إبداء ملاحظته الشهيرة عن كيف أن البوسنيين أفضل بكثير من ضحايا العديد من المجازر الأخرى القائمة في العالم وذلك خلال زيارته لسراييفو عشية السنةالجديدة ١٩٩٢.

كان تأثير ما حدث كابحاً، على أقل تقدير، فقد أضاف كبحا أخلاقياً إلى الفوضى التي أفرزتها الحرب عند الكثيرين. وحتى بين أنصار قضية البوسنة كان من الشائع أن تسمع عبارات مندهشة آسفة حول الوقوف في صف واحد مع السيدة تاتشر أو كبار المسؤولين السابقين في إدارة ريجان. أضف إلى ذلك حقيقة أنه طوال الحرب الكرواتية، أياً كانت صدمة العديد من الليبراليين في فرنسا وبريطانيا وبخاصة أمريكا الشمالية بما كان يفعله الصرب، فقد استولت عليهم أيضاً ذكرى فظائع الفاشيين الكروات أثناء الحرب العالمية الثانية. ولم يكن الأمر يتمثل فقط في تذكرهم أن كرواتيا كانت تحت إمرة آنتي بافيليتش وحزب أوستاشا الفاشستي الذي تعاون مع النازيين وكان مسؤولاً عن قتل مئات الآلاف من الصرب واليهود. بل في أن هذه الذكرى جعلتهم يتشككون، بصورة غير منطقية، في أن جميع الكروات ظلوا في

أعماقهم فاشيين ومعادين للسامية حتى الآن. وقد عززت فكرة ان المانيا والنمسا هما أكبر مساندين لكرواتيا التحفظات لدى الناس في دول الناتو الأخرى. كما أن الكروات لم يفعلوا شيئاً لمساندة قضيتهم في الخارج. فقد ألف الرئيس فرانكو توديمان الذي كان في السلك الشيوعي وجنرالاً في الجيش الوطني اليوغسلافي قبل تحوله إلى القومية كتابا يتشكك فيه في حقيقة كارثة اليهود ورغم أنه أنكر بشدة أنه معاد للسامية فقد كان يولي أهمية لربط التحالف الحاكم أكثر من شجب هؤلاء الأعضاء داخل حزبه (الاتحاد الكرواتي الديمقراطي) من ذوي الميول الواضحة المؤيدة لحزب «الأوستاشا». وكان الأكثر جوهرية أن الصرب في التصور الشعبي الغربي كانوا الأولاد الطيبين أثناء الحرب العالمية الثانية. ولم يكن سهلاً وبخاصة على الناس العاديين أن يقفوا إلى جانب أعدائهم السابقين وأن ينسوا بسهولة تحفظاتهم تلك تجاههم حتى بعد تدمير مدينة فوكوفار الكرواتية. وفي فرنسا على وجه الخصوص، حيث كان الشعور لصالح الصرب قوياً، كان من الصعب حتى أن تدافع عن الكروات، وكان من أوائل الكتاب الفرنسيين الذين قاموا بذلك آلين فينكلكروت بكتابه المثير للجدل «كيف يمكن للمرء أن يكون كرواتياً»؟

ومع كل تلك الإدعاءات والمحاذير المتعارضة التي تتدخل في فهم المرء، فليس من المدهش، باسترجاع الأحداث، أن تكون الأخبار من البلقان على CNN والقناة الثانية وسكاي نيوزالبريطانية و ZDF الألمانية في بعض الأوقات منتشرة في كل القنوات ومنطوية في الوقت ذاته على تأثير أقل قوة بكثير من تأثير الأحداث التي تدور على مسافات جغرافية أبعد بكثير.

ولا أظن أنني كنت وحيداً في تعجبي، عند مشاهدة حصار فوكوفار عند انتهائه واستيلاء الصرب على المدينة، من كيفية دمارها الكامل على الطريقة القرطاجية، وفي تساؤلي أيضاً إن كان الكروات قد فعلوا شيئاً يستحقون عليه ما أصابهم وحتى في أوضح حالة، وهي القصف الوحشي لدوبروفنيك التاريخية، وأنا أجفُل لرؤية الصور التلفزيونية التي عرضت قذائف البحرية تفجر حوائط القلعة القديمة وتشعل النيران في المباني الفخمة للمدينة القديمة، ظللت أفكر أنه كان على الكروات المدافعين عن المدينة الاستسلام وإنقاذ المدينة. فحتى بالنسبة ليهودي مقتلع الجذور مثلي، فإن

فكرة أن القومية الكرواتية تمثل قضيـة تستحق الموت من أجلها ـ وهو أمر يبدو لي الآن عادياً بذاته ـ كانت لاتزال تبدو لي عشية قصف دوبروفنيك أمراً يصعب قبوله .

ولقـد مـرت عمليـة تـدمير دوبـروفنيك بسهـولـة ، على الأقل كما عـرضت على التلفزيون . لقـد كانت محاولة تدميرها تخريباً متعمـداً وليس حرباً ، حتى وإن اتضح أن الدمار الحقيقي للمدينـة كان مبالغاً فيه في التقارير الأوليـة للسلطات الكرواتية ـ كما كانت شاهداً أيضاً على الطريقة التي كان يتم بها استقبال الأحداث في يوغسلافيا السابقة ــ حيث تستقبل غالباً بدون تحليل سياسي أو سياق تـاريخي . كان المراسلون في المواقع يعرفون أكثر بـالطبع وحاولوا نقل ما يعرفون بأفضل مـا يستطيعون . وعندما أسترجع الأحـداث الآن أوقن أن الصيغ التـي يعملـون في إطـارهـا كـانت تخذلهم في أغلب الأحيان . فما كانوا يكتبونه في تقـاريرهم ، ما لم يكن للشخص سياق يضع فيه المعلومـات التي تقدم إليـه ، كان قـراءات عاطفية عما كـان يدور في المدينـة الشهيدة والأسرة الـلائجـة ورجـال المليشيـا قسـاة القلب . بـالطبع كـانت كل هـذه الأنماط موجودة ، . لم يكن لأحد ان يمضي أسبوعاً في البـوسنة أثناء القتال دون أن يواجهها . ورغم الابتذال دون شك في قـول هذا فإنني أعتقد أن الصرب كـانوا المدانين في الحرب أكثر ممـا كنت أعتقد عندما كـان كل ما أعرفه عن «التشتنيك» هـو صورة على CNN وما ذكره لي المراسلون مثل كريستين أمانبور عن وحشيتهم .

لقد جعلتني مشاهد الحرب المتلفزة سريع التصـديق ـ فلا أذكر مثلا مجرد التفكير فيما إذا كان هناك المزيد في القصة عما كان يعرض ، وكان هناك بالفعل المزيد حتى في حالـة واضحة مثل دوبروفنيك ــ ولكن وللمفارقة ، فبرغم وربما بسبب عـاطفية ردود فعلي أو ضحـالة احكـامي ، فقـد كان مـن السهل علي أيضا ان انتقل الى اهتمامـات أخرى : الهجرة الكبيرة وانهيار الشيوعية وقيام رأسمالية كونفوشية جديدة في شرق آسيا ـ رغم علمي بأن القتال كـان يدور عن قرب . إن زغرب ، العاصمة الكـرواتية ، تبعد ساعتين بالطـائرة عن فرانكفورت . أما سراييفـو فتبعد فقط بخمس وأربعين دقيقة ، أو كان يمكن ان تكون كذلك لـو ان المجال الجوي البوسني لم يغلق أمام كل الطيران عدا رحـلات إغاثة الأمم المتحدة وغـزو طائرات الهليوكبتر التابعـة للصرب وطائراتهم الحربية ذات الأجنحة الثابتة .

وعلى أية حال فـالمعرفة ليست القوة، ان وعمليـة سقوط يوغسلافيـا متلفزة بكل تفاصيلها تثبت هذه الحقيقة. فعندما ذهبـت أخيراً إلى البوسنة كانت لدي معلومات كثيرة ربما أكثـر مما كـان لدى معظم من ذهبـوا إلى معظم الحروب لدرجـة أنني كنت أعـرف موقع الأرض في أمـاكن لم أطأهـا مطلقاً. وعنـدمـا ذهبت إلى سراييفو للمـرة الأولى، كنت أعرف مسبقـاً أنه لكي أنتقل مـن المطار إلى هوليـداي إن، حيث يقيم الصحافيون، كان علي أن أتحايل للحصول على تصريـح لركوب سيارة مصفحة تنقل الموظفين إلى رئاسـة الأمم المتحدة في مبنى الاتصـالات القـديم في المدينة، الـ PTT حيث أن ركوب سيـارة «مرفهـة» على طريق المطـار كان عمـلاً طائشـاً بسبب وجود القناصة، كما عرفت أنـه للوصول من الـPTT إلى فندق هوليـداي إن، كان علي أن أحتال لأركب ثانية، أما إذا اضطررت لركوب سيارة مرفهة، وليس في سيارة مصفحة للأمم المتحدة أو في لاندروفر مصفحة خاصة بالمراسلين، فآخذ الطريق الخلفي وراء PTT فهو أسلـم من الطريق الـرئيسي الذي كـان يسلكه الناس قبـل الحرب والذي عرف بزقـاق القناصة منذ بـدء إطلاق الرصاص. بالطبع عـرفت كل ذلك لأنني قد رأيت مثل هـذه الطـرق على شبكـة CNN وكـان يمكن أن تكـون سراييفـو مليئـة بالمفاجآت عندما بدأت أخيراً في قضاء وقت هناك ولكن على الطبيعة كانت بالضبط كما توقعتها. ومع ذلك فلم أكن أعرف شيئاً.

يتحدث الناس بشكل روتيني عن المعلومـات والمعرفة وكأنها نفس الشيء والأسوأ أنهم يـواسـون أنفسهم بفكرة أنـه طـالما حصلـوا على المعلومـات ذات الصلـة فإنهم سيبدأون العمل وهـذا وهم قديم. ويقـول الناس: لو أن العـالم علم بالهولـوكوست لكان قد فعل شيئـاً ما ـ ربما ليس الألمان «السيئين» بل بقية العـالم «الطيب» ـ وبعد عامين في البوسنة فإنني أميل إلى التفكير أنه لوكان هناك كاميرات في «أوسكوفتش»، لكان العالم قـد فعل القليل كما فعل في عصر ما قبل التلفزيون، مـا لم يكن مناسباً، بـالطبع لأصحـاب القوة في العـالم القيـام بعمل، صحيح أن منظـر ثمان وستين من الموتى وحـوالي مائتين من الجرحى في السـوق المركزي في سراييفـو ولّد استجـابة أخيراً وأرجو على أي حال أن أكـون مخطئاً. ولكن كان هناك الكثير من أمثـال تلك الصور من قبل وسيكـون هنـاك الكثير في المستقبـل. فإلى متى ستستمـر اهتمامـات النـاس

العاطفية؟ شهـر؟ سنة؟ بالتأكيد، ليس أطول من ذلك، سـواء في البوسنة أو في أي من المجـازر في الامبراطـورية السـوفييتيـة السـابقـة، والتي تمثل البوسنـة تمهيـداً لها فحسب.

كانت العاطفة دليـلاً سيئاً خلال الحرب الكرواتية وكانت كـذلك خلال مذبحة البوسنة. لقد كانت مثل المنشار السوطي. ففي لحظة، يذرف الناس الطيبون الدمع على فوكوفار ودوبروفنيك، ويطلبون في غرب أوروبا بالذات من حكوماتهم أن تعترف بكـرواتيـا وسلوفينيـا الإنفصـاليتين. وفي اللحظـة التـالية، وبعـد أن يكتشفـوا (أو يتصورون أنهم اكتشفوا) أن هذا الإعتراف لم ينـه المذبحة والخراب بل على العكس بدا أنـه أدى إلى قتال جـديـد في البوسنـة والهرسك التي كـانت في سلم من قبل يسـارع الكثيرون برفع أيـديهم في استسلام مقرِّين بالفكـرة التي يروج لها كثير من الأوروبيين الغـربيين ومسـؤولـو الأمم المتحدة مـن أن الاعتراف كان خـاطئـاً على طـول الخط. ويصرون بعـد هـذا الإدراك المتأخـر أنه فقط من خـلال الاتحاد اليـوغسـلافي يمكن احتواء العنف العرقي الذي تعرض له السلاف في الجنوب.

لقد وجـدوا أن الفكرة، التي كـانت متأصلـة في الوعي الأوروبي على أيـة حال، القـائلة إن البلقـان كـانت دوما مـوطن عنف، فكـرة معقولـة جـداً. كان الكـاتب والسياسي الأيـرلندي كـونر كـرور أوبراين يعبر عن رأي الكثيريـن عندما كتـب عام ١٩٩٢: «هنـاك أماكن حيث يفضـل الكثيرون الحرب وكذلك النهب والاغتصـاب والاستبـداد المصـاحبين لها عن أي لـون من الاحتـلال مع السـلام. ومن بين هـذه الأمـاكن أفغانستـان ويوغسـلافيا بعـد إنهيـار النظام الشيـوعي المركزي». لقـد تمثل الـدرس التـاريخي المستخلص من تلك النظـرة في، أنـه القدر المأسـاوي والتـاريخي للصرب والكروات ومسلمي البوسنة أن يحاول كل منهم تذبيح الآخر مرة كل جيل أو نحو ذلك. وتكون النتيجة السياسية المباشرة لذلك هي القول إن البوسنة والهرسك لا يمكن اعتبارها دولـة خارج إطار الاتحاد اليوغسـلافي بأي شكل. قد تجلس في الأمم المتحدة، ولكن كـان ذلك خطأ أوروبا. فمثل هـذا الاعتراف القانـوني، مهما تصوره البوسنيون عقلانيا، لا يمنح الشرعية الحقيقية.

ان مشكلة أي رد فعل لحدث سياسي عـاطفي في أساسه ـ والعاطفـة رغم سهولة

تحريكهـا ، فانها النقيـض للقناعـة الحقيقيـة ـ هـو أنها تجعل المرء متأرجحـاً بين رأي وآخر. لقـد فكر النـاس في أشياء كثيرة عما كان يـدور في البلقان منـذ بدايـة المأساة ، فقبل أن تبـدأ حـرب الصرب والكروات في ١٩٩١ أبـدى معظم الليبراليين في أوروبـا الغربيـة وأمريكا الشماليـة تعاطفهم ثم بعد فـوكوفار ودبـروفنيك أصبح الكروات هم الأبطال . أما وقد بدأت الحرب البوسنية فإن أكبر ضحايا القتال وهم مسلمو البوسنة هم الذين نالوا تعاطف الناس في كل أنحاء العالم . وعندما تناحر المسلمون والكروات عـام ١٩٩٣ ساد الخلط حتى أعـاد عنف صرب البـوسنة المتجـدد مسلمي البوسنـة لوضعهم ثانية بوصفهم الطرف الذي يفترض التعاطف معه .

ولأن أغلب الناس كـانوا قليلي المعرفة فيـاضي المشاعر. لم يكن غريبـاً أن استطاع السياسيـون الأوروبيون والأمريكان الـذين لم يريدوا فعل شيء لـرد عدوان الصرب أن يصمدوا أمام عواطف الغضب والأسى الشعبي الـذي يهيج من وقت لآخر بعد وقوع بعض المذابح و أمرها على نطاق واسع . وعلى أية حال كان معظم السياسيين يميلون للتراخي منـذ البدايـة . وكانت مـلاحظة بسمارك الساخـرة حول ان أهـل البلقان «لا يستحقون حيـاة سمكة الفـرناد البحريـة السليمة من بويـرانيا» هي أشهـر عبارة عن المنطقة كتبها رجل سياسي أوروبي ذائع الصيت . وما ارتجله المستشار الحديدي ، كان متجذراً ، بصـورة أوسع ، في قناعة سبعـة أجيال من الأكاديميـة الأوروبية والتحليل السيـاسي . وقد سـاعد معظمهـا في تضخيم وجهـة النظر القـائلة إن يـوغسلافيـا ، بموقعها على الحدود بين العـالم الأرثوذكسي والعالم الكاثـوليكي ، وقبل ذلك بين عالم العثمانيين وهابسبرج ، هي من أساسها مكان غير مستقر، بل ربما لا يمكن إنقاذه .

ولا يبدو مهما هنـا أن هؤلاء النـاس أنفسهم الذين سمعتهم يـرددون في واشنطن وباريس وفرانكفورت هذه الحجج حول الطابع الوحشي للشخصية السلافية الجنوبية كـانـوا ، قبل سنوات قليلـة ، يستمتعـون بإجـازاتهم في تلك البـلاد السيئة البربـريـة نفسهـا . وكانـوا يشعرون بـالأمـان الكامل رغم أنهم يعتقـدون الآن أن الناس هنـاك متعصبون بالـرواثة . في عام ١٩٨٥ كان الذهـاب إلى ساحل إقليم اقليم دالماتيا ، إلى دوبروفنيك مثلاً ، يمثل أي شيء غير سياحة جريئة ، لقد كانت إجازة أوروبية شاملة لا تختلف عن قضاء وقت على الساحل الإيطالي حول أنكونا وهي تقابل مباشرة مدينة

سبليت على ساحل دالماثيا على بعد مائة ميل على الجانب الآخر من الأدرياتيكي .

في عام ١٩٨٥ كان من الممكن أن يتنبأ معظم الناس ان ساحل دالماتيامن إستريا على الحدود الايطاليـة بطول الطـريق الى دوبروفنيك ، سيلعب نفس الـدور في التقدم الاقتصادي ليوغسلافيـا الذي كان قد لعبه إقليم كوستـاديل سول في الخمسينات في دمج اسبانيا الفاشيه في التيار الرئيسي لتطـور اوروبا الغربية . ولقد ظل ممكنا الاعتقاد ، حتى اللحظـة التي بـدأ فيـه اطـلاق الرصـاص ، أن يكـرر التـاريخ الاقتصـادي نفسـه ، مع امتلاء ذلك الاقليم بسـاحات الكـرفانـات والمناطق البحـرية (المارينـا) والأسـواق الحرة وفنادق المصـايف ، ومع منـاظـر طبيعيـة أجمل من سـاحـل ايطاليـا الأدريـاتيكي وقد تتفـاخـر ايطـاليا بأجمل المدن والمنـافس الـوحيـد كان دوبـروفنيك وسبيليت ، وجزر إقليم دالماتياومنـاخ اقل تلوثا من الجزر اليونانيـة . كما يشهد إزدهار المبـاني على طول سـاحل دالماتيـاوالـذي امتـد في الواقع الى البـوسنـة والهرسك حتى مدينةموستار التاريخية ، بأنه حتى في أواخر الثمانينات كانالمستثمرون راغبين في تأكيد إعتقادهو بإنـدماج يوغسلافيا في أوروبا بأموالهم . فعمـر كثير من الفنادق على طول الأدريـاتيكي والتي تستضيف الآن الـلاجئين لا يـزيد عن خمس سنـوات . وهنـاك مساكن وفنـادق ومناطق لـلالعاب البحريـة نفس الامتداد بعـد ان توقف انشـاؤها . وبالتأكيد فقد اعتقد اليوغوسـلافيون وأنفسهم أنهم سوف يزدهرون وأنهم سيفعلون ذلك من خلال صناعة السياحة .

وحتى الان مازال الشائع ان تسمع الناس في كرواتيـا يقولون أنه لو توقفت الحرب ، بـافتراض ان يترك الصرب كرواتيـا لحالها ، فإن الامـور ستكون على مـايرام فسيعـود السواح وكذلك سيعود الإزدهار الذي صاحبهم . وفي دوبروفنيك لا يزال يوجد بين الزخارف الباقية في الجدران رسم جداري يعبر بدقة عن ذلك الوقت وتلك التوقعات « الغـربية» المسكـرة . لقد خبت الكلمات الآن كما طـوقتهـا وعتمت عليها شعـارات عسكرية وسيـاسية مبتذله . ومعظمها يقـدم مساندة متعثرة ومهزوزة لحزب يـوستاشا الفاشستـي أويحي ذكرى شهـداء فوكوفـار وأوزجيك أو ينادي بـانتقام رهيـب ضد الصرب ولكن هناك شعـار يسترجع ما قد يكون عليه مصيردالماتيـا وينادي « الجنس والماركات الألمانية ، وسيقابى» والأخيرة هي الطبق الشعبي في يوغسلافيا .

ولكن ايا كان ما تشعربه شعوب يوغسلافيـا السابقة نحو أنفسهم وأيا كان ما يفعلوه دون ادراك عندما يقارنـون بين حاضرهم وحياتهم السابقة وايا كـان مدى ما حل بهم ومـا جلبوه على أنفسهم على مـدى السنـوات الثـلاث والنصف سنة الماضيـة . وغير طريقة فهمهم لكل من مصائرهم الفردية ولهوايـاتهم كجزء من أمم ومجموعات عرقية أكبر فإنهم لم يطردوا أنفسهم من أوروبـا لقد اجريت تلك العملية الحسـاسة على يد الأوروبيين الغربيين والأمـريكيين الشماليين أنفسهم . ومع استمرار القتال بدأوا ثـانية كما فعلوا على فترات منـذ عهد بسمارك بالشعور بـالراحة وهم يتكلمـون ويفكرون في البلقـان وكأنها منطقـة في مكان آخـر غير أوروبـا ، وكأنها بـالمثل شيء غير متحضر فأوروبا الحقيقية ، أوروبا التي ظلت مكانا متحضرا ، كانت بالطبع توجد على أراضي الاتحاد الأوروبي المتضمن ستة عشر عضوا بالاضافة لسويسرا وربما ، عند الحاجة ، قد تضم جمهـورية التشيك « وليس سلوفـاكيا» والمجر. وبإختصار ، يمكن صيـاغة هذا النهـج في شكل القياس المنطقي التـالي : « الأوروبيون لا يمكن ان يفعلـوا هذه الأشياء مع بعضهم البعض ، وعلى ذلك فإن سكان يوغسـلافيا السابقة لا يمكن ان يكونوا أوروبيين» .

وغني عن القول ان نظرية الأوروبيـة كانت دوما في أساسها أيديـولوجية تعدلت جغرافيا بمفهوم كان دائما عرضة لإعادة التشكيل الدرامي ـ فكم من مرة أثناء الحرب الباردة تكلم الناس عن بـراغ ، وهي غرب فيينا على انها عاصمـة في « أوروبا الشرقية ؟ـــ لكن ما حـدث عنـد نقطة مـا من مـذبحة البـوسنـة عندمـا تمزق كل من الفهم السياسي والقـرار الإنساني بفعل مـا كان يحدث من أهـوال ، ظهرحـديث مبني على الأفكار الأصـولية العتيقة عن شخصية البلقـان مصحوبا بـذلك الهراء غير التاريخي عن الاحقاد الموروثـة والنزوع الإقليمي للعنف. وهـي قصة طالت جميـع السلافيين الجنوبيين باستثناء السلوفيين خـارج أوروبا . و لم يتصرف الأوروبيون على هذا النحو ـ الأوروبيـون الحقيقيون ـــ على آية حال وكثيرا مـا سمع المرء وما زال يسمع انـاساً لا يـرتاحـون مطلقا عنـد الحديث عن طـابع سكان غـرب افـريقيا أو سكـان امريكـا اللاتينية ، وادعاء أن ما يدور في البلقان رغم مأساويته ، ربما كان حتميا نظرا لتلك الاسباب الثقافية وا لتاريخية .

وخلافـا للامتيازات التي اعطتهـا لهم بشرتهم البيضاء يأتي المزيـد من الادعاءات حول فهمهم للناس ، وربما ساعدت حقيقة أن البـوسنيين كانوا في الاصل قوقازيين على ان ينفض الكثير من النـاس الغبار عن شعـارات يوجينيـة(أي متعلقة بتحسين النسل) لم يكونوا يحلمون باستخدامها في سياقات غير اوروبية

وفي الولايـات المتحدة تـرتاح الشخصيـات ذات التوجهـات الجيدة سياسيا ــ والذين يرتعدون حتى لمجـرد تخيل وقوع الهفوات اللفظية ضد الاقليـات العرقية لكلمات مثل العنق الأحمر و« الـرعـاع البيض» وكـان شيء من نفس هـذا النمط من التصرف الاخلاقي واضحا في اسلوب حديث الناس عن يـوغسلافيا السابقة . ولكن إذا كانوا قد فهمـوا ما اسماه الـدبلومـاسي والمؤرخ سيفيتو جـوب ذات مرةبـ « الشعـر الشعبي المتـوهج للبلقـانيين » على انـه يعبر عن الطبـائع المتأصلـة في الكـروات والبـوسنيين المسلمين فالسبب في ذلك يعود نهاية الأمر الى أن فعل ذلك أسهل من محاولة التفكير في سجلات أقل اختزالا.

و تكاد تكـون حتى الان ، تلك الهفوات القائمـة على « طبيعة » البلقانيين الـوحيدة التي يجدها النـاس مقبولـة. وفي عبارات عمليـة فإن مثل هذه الـروايات لعبت دورا مؤثرا في عقلنـة السبب في عدم بذل المزيد من الجهد لوقف الحرب في كـرواتيا أو انقاذ البوسنـة . وهي تجد تأييدا خاصـا لدى ديبلـوماسي الأمم المتحدة الـذي يستطيعون الإدعاء بشكل عام بأنهم كانوا سيتصرفون بشكـل صحيح في يوغسلافيا السابقة فقط لو أمكنهم تقديم بعثتهم « لحفظ السلام » كأمر ميؤس منه منذ البداية . احد مسئولي الامم المتحدة الذي شارك في عمليات « الحماية»، وهـو ديبلوماسي لامع كان مشاركا عن قرب عام ١٩٩١ و ١٩٩٢ في محاولـة ترتيب وقف اطلاق النار في كـروتيا والذي تم اخيرا بعد سقوط فوكوفار ، إبتسم في في ارهاق أثناء أول حوار لي معه ـ وكان ذلك قبل ان تطأ قـدمي أرض البـوسنة ــ وحـاول الاجابـة على اسئلتي حـول القصف «المجنـون» لمدينةدوبـرفـونيك القديمـة بمقـارنته بـالغيرة الزوجيـة البلقـانية . قـال : «تعرف ، يخبرك الناس انه في ريف يوغسلافيا عندما يفقد رجل المرأة التي يحبها فإنه أحيانـا يشوهها بسكين إعتقادا منـه أنه طالما لن يتملكها فـلا يجب ان يحبها شخص آخر ، فلا تتجاهل هـذا الدافع عندما تفكر في دوبروفنيك . لقد كـانت مدينة جميلة

ومحور جـذب شديـد للسيـاح . ولست متأكـدا ان بعض جنود الصرب لم تـراودهـم الفكرة نفسها « اذا لم نستطع تملكها فلندمرها إذن للكروات ذلك »

وعلى نقيض كتـابـة التقـاريـر عن البـوسنـة أو سماع الأحـاديث عن طبيعتهم المتأصلـه كشعب، قابلت البـوسنيين أول مرة في مـركز لـلاجئين على الحدود الشرقية لبرلين صيف ١٩٩٢ . كان المعسكر يقع على طريق تحفه الاشجار حيث كانت مبانية ذات اللـون الـواحـد المزينـة ، مثل كثير مـن الطـرق المشجـرة في جمهـوريـة المانيـا الديمقراطية سابقا . بإعلانات تجارة السيارات المستعملة واللافتات الملونة المثبتة على اشجـار الـزيـزافـون للدعـايـة عن جميع الاشيـاء بـدءامن المنتجـات الإستهـلاكيـة المستحدثة« جرب الغرب» كان شعار النوعية المحببة للسجائر الغربية ـ الى الأماكن المفتتحة حديثا لنوادي العراة والكازينوهات ومصارعة السيدات .

لقد ذهبت الى يوغسلافيا مرات عـدة ولكن الاماكن التي أدعي معرفتها وبطريقة عابرة أيضا ، كانت الجمهورية الاتحادية سلوفينيا في اقصى الشمال وكرواتيا وبخاصة المنتجعات بين زادار ودوبـروفنيك على طوال ساحل دالماتيـا ولم يكن ذلك بالكثير .
وحتى في الستينات عندما بدأ نظام تيتو يظهـر بوقاحة زائدة الروح القمعية لجيرانه في الكتلـة الشرقية ، فإن سلـوفينيـا شعرت أنها اقـرب للنمسـا المجاورة ـــ التي انتشرت النمسا «البعيدة» في جنوب نهر إنـز كما تقول النكته التي انتشرت على جانبي الحدود في جراز وفي لـوبليانا تقول لست متأكـدا أني اعتقدت في ذلك الكيان الإكثر شـؤما والأميل لـلأجنبيـة المعـروف «بالبلقـان »تـاهيك عن ذهـابي الى مثل هـذا المكـان .
وبالطبع عرفته من الكتب ومن تقارير أتباع تيتو بل وأساسا من تاريخ الأحداث التي ادت الى اغتيـال الـدوق فرانـزفـرديـنـاند في سراييفـو عـام ١٩١٤ وكـذلك من كتب الرحـلات العظيمة لفترة مـابين الحربين مثل كتاب ريبيكـاويست « الحمل الأسود والنسرالرمادي » .

وفيما يخص البوسنة ، فكل مـا كان في رأسي هو البقايا المألوفـة وانصاف الحقائق والكليشيهات والمعلومـات المضللة التي يتشارك بها المثقفون من النـاس ،حول هذا الموضـوع ، أو التي يمكن ان تجدهـا في أي دليل سفـر تقليـدي بـدايـة من أوائل الستينات وحتى الثمانينات والتي يمكن الآن الحصول عليها في أحد مكاتب السياحة

وسط سرايیفو. والـذي ظلت ابوابه مفتـوحة رغم الحرب. من هذه الكتب المعـروضة هناك قد يكـون الزائر قد عرف ـ طـالما استوعب فكرة ان الحقيقة العرقيـة والقومية في يوغسلافيـا قد حلت نهائيا على يد تيتو وأن «الأخـوة والوحدة قد سادتـا » أن البوسنة ممتلئـة بالمسلمين وأنـه بالـرغم من ان البوسنـة والهرسك مثل صربيا والجبل الأسـود ومقـدونيـا ، كانـت جزءا من الأمبراطـوريـة العثمانيـة حتى الثلث الأخير من القـرن العشرين ، فقد كـان المسلمون من أصل سـلافي أكثر منهـم أتـراك أو ألبانيين. وان هـؤلاء المسلمين لم يهاجـروا الى المنطقـة ولكن تحولـوا الى الاسـلام ليس من المسيحيـة الارثذوكية بل من البـوجوميلية ـ وهي بدعة من العصـور الوسطى يقال انها إزدهرت في كل من البوسنة وعلى طـول ساحل دالماتيا ومناطق الهرسك . كانت شـواهد قبور البوجـوميلين ـ مـاأسهل ان تكتب مثل كتيبات السيـاحة ـ عـادة ما تـذكر في نفس اللحظة مع اثنين من معالم البلد السياحية ـ الجسر العثماني القديم على نهر نيرتيكا في موستارأو«ستـاري موست» وجسر آخر أعيدت تسميته بـاسم جسر « برنسيب» بعد الحرب العالمية الأولى لتكـريم الرجل الذي تسبب فيها كما تقـول النكتة المحلية. وأن تعرف ما يعرفه السياح أو ما يود السكان المحليون أن يقولوه للسياح ، فستكون قد تعلمت التاريخ كما يتعلمه الأطفال. فعندمـا يحاول شخص تعلم لغة فعليه أن يبدأ بتلك الأسـاسيات المألوفـة لمواطن في سن الـرابعة . كـذلك تكون متطلبـات دراسة الثقـافات الجديـدة. لذلك عنـدمـا بدأت قضـاء الـوقت في الوسنـة ، سرعان مـا اكتشفت الأمـر الواضح وهـو انه حتى في فترة حكـم تيتـو لم تكن قضية القـومية قـد حلت ربما يكون تيتـو قد فرض شعـار « الأخوة والوحـدة» على جميع شعوب الاتحاد ، ولكن كما اشـار سفييتو جوب فـإن «درس التاريخ هـذا لم ينجح كما كان متـوقعا . فقد ادعى القوميون من كل مجموعة(الصرب والكروات والمسلمون الألبان)أنه قد بـولغ في السلب والنهب من جـانبهم في حين تم التهـوين من شأن السلـب والنهب من جانب العدو» .

تـواجدت في كل مكـان صراعات بـدون حل مع حكـايات متبـاينة حتى عن اكثـر الأحداث مباشرة. وليس فقط الموضـوعات المأساوية كما في الجدل الـدائر حول عدد القتلى من الصرب في معسكـر اليـوستاشـا لـلاعتقـال في جاسينـوفـاك . وحتى على

مستوى المواد الأرشيفية فقد كان من الصعب إيجاد الحقيقة . ففي البوسنة على سبيل المثـال ، كانت هنـاك مسألة أصـول البوجـوميل الملحدين . لقـد افترضت دائما أن تفسير تحولهم يكمن في كـونهم ملحديـن قبلوا الاسـلام أمـلا في الحماية من الجيـوش الصليبية للأرثوذكسية المسيحية واليونانيين والرومانيين على حد سواء على أن البعض قـال ان الامر ليس كـذلك . لقد اختفـت البوجـومولـيـه تماما فترة وصـول العثمانيين وبالنسبة لغريب مثلي فإن مجرد القلق حول مثل هـذه المسائل يؤكد تعليقات الكاتب اليوغسلافي الكبير دانيلـوكيس عن البوسنة قبل الحرب والذي كانت لـه افكار اخرى اكثر تشويقا . فقد كتب عن البوسنة يقـول : « تلك الدولة الغريبةفي قلب أوروبا» . ومع ذلك فعلى اساس قـراءات عن أحداث ملغـزة بنفس الدرجة حـدثت قبل ذلك بمئات السنين هاهم الناس يقتلون ويقتلون في البـوسنة . وقد تكون الأحداث نفسها قـد طواهـا النسيان أو أن ذكـراهـا عولجت ببراعـة من قبل مثيري الـرعاع القـوميين المعـاصرين ، أما في البـوسنة فحتى عنـدمـا اختفى كل شيء فإن أمرا واحـدا تبقى : الحقد ، كما تقول النكتة القديمة عن شمال أيرلنده .

لم أحضر الى معسكر الـلاجئين في ذلك اليوم لأناقش تـاريخ البلقان . فما أملت ان أراه هو كيفيـة تعامل المهـاجرين من العالم غير الأبيض والإمبراطـورية السـوفيتية السـابقـة مع بعضهم البعض ، والتي كـانت في أسـاسهـا غير طيبة . فقـد كـان في المعسكر ، مثل كثير من المعسكرات التي ذهبت اليها خـلال الشهور القليلة الماضية ، مراتب عنصرية وجغرافية ، فقد كان الشرق أوسطيون يزدرون الأفارقة والأوروبيون يزدرون الشرق أوسطيين وكـانت كل من المجموعتين تخاف الغجر وتحتقـرهـم صراحة ويتكلمـون بمـرارة عن مجرد مشـاركتهم لهم ثكنات الجيش الـوطني لألمانيـا الشرقيـة المتبقية حيث تـم اسكـان الجميع . ومع ذلك ، فقد سجل المسـؤولون الذين يـديرون المعسكرفي تقـاريرهم ان معظم السكـان من أي جهة جـاءوا ، سرعان مـا تعلموا ان ينـدمجوا بسهولـة مع بعضهم البعض في الأمسيـات (كـان يسمح لهم بالخروج أثنـاء النهار) . ثم يضيفون بسرعة أن هذه المصادقة لم تمتد الى الغجر .

ذكر لي أحد مديري المعسكر أن عائلة واحدة ليست من الغجر لم تتكيف مع هذا النمط ، والمدير شخص ودود من شرق بـرلين مشيته وحركـاته تشبه كثيرا مدربـا لكرة

القدم في مدرسة أميركية بمدينة صغيرة . ونحن في طريقنا الى المجموعة عهدته استعرض ذلك المزيج الغريب من النفور والقلق الذي قد يقال أنه يميز نظرة دولته نحو وجودهم في ألمانيا . قال ان تلك الاسرة غير الاجتماعية موضوع المناقشة كانت مسلمة . وربما لأنه لاحظ تعبير الدهشة لدي فقد اضاف بسرعة أنهم مسلمون من أوروبا ، من البوسنة « إنهم ليسوا من ذلك النوع من المسلمين الذين تتصورهم . فهم لا يلبسون غطاء الرأس ولا يصلون طوال النهار . في واقع الأمر هم أوروبيون ، مجردأوربيين عاديين» .

بعد ان اكملنا جولتنا في المعسكر ، اخذني لرؤيتهم . اتضح ان زيارتي توافقت مع زيارة مجموعة من التلاميذ من احدى الضواحي ببرلين الغربية والتي كانت اكثر اذدهارا قبل عهد التوحيد، وقام مدير المعسكر بضم الجولتين . كان التلاميذ قد جمعوا الألعاب لأطفال الاجئين وحملوها ربما في خجل وهم يسيرون في عنابر النوم . وقد اصرت معلمتهم ،رغم ان عدم رغبتها في تركي للتحدث مع التلاميذعهدتها في غير حضورها جعلني اتشكك في ان الزيارة والهدايا كانت إختيارية كما تدعي، على القول إن«كان هذا من اقتراحهم» وأخيرا خلصنا أنفسنا ، كانت المعلمة لا تزال تحاضرأطفالها عن «جمال» الثقافة الغجرية ونحن نبتعد عم مجال السمع ـ واتجهنا الى المبنى الذي تقيم فيه العائلة البوسنية .

كانت العائلة مكونة من سبعة افراد ، خمسة كبار وطفلين و تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والخامسة والاربعين وكلهم في غرفة واحدة . كانوا جميعا في هيئة معقولة جسمانيا ونفسيا ما عدا شابة في منتصف العشرينات كانت محمرة العنين وهزيلة . كانت ملابسهم رثة ولكن بالتأكيد ليست اكثر رثاثة ممن يراهم المرء في ذلك الجزء من برلين الشرقية المتاخم للمعسكر. ومثل اللاجئين في العالم كله ، بدا انهم جميعا يدخنون باستمرار مع الاختلاف المضحك بالنسبة لي في أنه على عكس اللاجئين في أماكن كثيرة من العالم الثالث ، كانت السيدات يدخن بشراهة قد تفوق الرجال .

وأيا كانت دوافعه فقد كان مدير المعسكر على حق في الواقع عندما قال ان هؤلاء الناس كانوا يتصرفون بغرابة كلاجئين . فعلى النقيض من السري لانكيين والأكراد والصوماليين بل وبعض البولنديين والرومانيين من غير الغجر الذين تحدثت اليهم

في ذلك اليوم (لم يتكلم اي من بـالغى الغجر الـذين قابلتهم)، فقد كـان مظهرهم كله يفتقر الى السلبيـة السائدة بين اللاجئين في معسكرات الايواء . فقد ظهـر انزعاج واضح لم يستطع مدير المعسكر إخفاءه عنـدما لم يظهر أي من اللاجئين أدنى إحترام ولو مفتعل . فقـد حملقوا فينـا في تعال عنـد دخولنا وبعـد ان أشاروا بـالجلوس . . وأوسعوا مكان لنا بدأوا بالحديث عن عدد كبير من الشكاوى ـ للهجة اقرب الى نزلاء يشتكون الى مـدير الفندق أو مشرف بنايـة سكنية منها للهجة أنـاس فقدوا كل شيء يمتلكونه وهـربوا بجلدهـم من حرب تلتهم بلدهـم . فقد قـالت الشابة حمراء العينين : « لم تعمل التـدفئة الليلـة الماضية أين يمكن لطفلتنـا ان تلعب هنا؟ »كما تسـاءلت أكبر السيدات « ومتى تبدأ الدراسة؟»

أما الـرجال فقالـوا القليل كما يحدث غالبا عندمـا يكون المسؤول رجـلا كذلك، ونتيجة لـذلك فليس هناك أدنى احتمال في مشـاجرة تـؤدي الى العنف الجسدي . ولكنهم كـانـوا يومئـون مـؤكـدين ماتقـولـه النسـاء . وعندمـا تصغى إليهم ينتـابك الإحساس بأنـه و إن كان هـؤلاء البوسنيون متـواجدين هناك في تلك الغـرفة الـرثه في المعسكر، فإنهم لم يجتـازوا نفسيا بعد الرحلـة من وطنهم الى منفي محفوف بالمخـاطر. هو ثقة الطبقـة المتوسطة، وهو شعـوربالاعتداد بالنفس إستطـاعوا حتى الان الإبقاء عليه في وجه خسـائرهم المادية ، في وقت يمكن ان تنتزع منهم (لم أر هـذه ثانية رغم أنني حـاولت بعـد سنـة إعـادة الاتصـال بهم) ، لم يكن ذلك ذخـرا لهم بأي حـال فعندما سألني احـد الرجال « كيف تتوقعون ان نعيش هنا ؟» ذكـرني قوله بأن التنشئة في الطبقة المتوسطة لاتنطوي على أدنى إستعداد لحياة اللاجئين .

لقد كـان مدير المعسكـر على حق، هكذا فكرت وأنـا أنظر اليه . لقـد بدا انهم غربـاء على وضع المعسكربالنسبة لأنفسهم بمثل مـا كانوا بالنسبـة للمسؤول الألماني ولي . . وقال الرجل الأكبر سنا في هدوء وكأنـه قرأ أفكاري : لا يجب ان نتواجد بين هؤلاء الآخرين » فقاطعه مدير المعسكر ردا على ذلك مستجمعا ما بدا بالنسبة لمسؤول سابق في جمهوريةألمانيا الديمقراطية ألفة مستحدثة مغلفة ببلاغيات التسامح العرقي والتعدديـة الثقافيـة : « نحن جميعا آدميـون كما تعلم » لكن البوسني لم يتـأثر بهذه الـدغدغـات من« قصيدة للفـرح» فقال في سخـريـة ثقيلة « أنـا لا اقول أنني ضـد

الآخرين هنا . أنني فقط أقول أنني وعائلتي لا ننتمي لهذا المعسكر، يجب ان تعرفوا ، ورفع صوته « ان ما حدث لنافي البوسنة ما كان يجب أن يحدث. هذه أوروبا . هذا عام ١٩٩٢ لقد كنا نعيش مثلكم وليس مثلما عاش المقيمون هنا قبل ان يصلوا الى المانيا » وأشار بذراعه نحو قوس يطوق كل المعسكر « هؤلاء الآخرون ، نعم ، انني أرثي لهم ولكن ما حدث لهم مأساة اخرى. أما ما حدث لنا . . فهذه مأساتكم مثلما هي مأساتنا وحملق مباشرة في مدير المعسكر وفي.

أومأ مدير المعسكر قائلا في نبرة حكيمة«ان فقدان أي وطن مأساة فظيعة» ثم خطا بسرعة خارج الحجرة وتركني وحدي، كما خططنا ، لأتحدث مع البوسنيين. إستمر الصمت طويلا كما يحدث غالبا في مثل هذا المواقف فهناك دائما شيء مخجل عند القيام بمثل هذه اللقاءات ، إنه الشعور بأنك تسترق النظر وأنك تقترب من خسائر الناس : ، متى غادرتم؟ ماذا حدث لعائلتكم ؟ كم عدد قتلاكم ؟ والمغتصبات؟ والمعذبين؟ لم تكن هذه الأسئلة على نفس طريقة النكته المريرة للصحفي البريطاني الذي وصل الى مسرح الفظائع قائلا « هل اغتصبت إحداكن وتتكلم الانجليزية؟» ولكن الوضع كان قريباً من ذلك، ويسجل المرء القصة الرهيبة وبعد انتهاء المقابلة ينتقل الى الاخرى ـ طريقة لترضية النفس بعد ان يفرغ الاجئون لك مافي أحشائهم أو على الأقل بقدر ما تريد لقصتك ـ أو ينهيها المرء مكتفيا بها قبل ذلك اليوم . ثم يذهب الى حانة أو الى بار الفندق .

يرتبط هذا القلق بالحدود . وما جعل البوسنيين يبدون مختلفين لم يكن بالتأكيد ورطتهم ـ فاللاجئون جميعا أصبحوا ظاهرة مألوفة مع نهاية هذا القرن ـ ولكنني ادركت بأسى حقيقة أنني كنت أخاطب أوروبيين . في باديء الأمر كنت غير راغب في قبول تلك الحقيقة . فلدي، مثلي في ذلك مثل مدير المعسكر ، قناعتي الليبراليه . فوجدت نفسي غير متأكد مما أقوله . إنتهت فترة الصمت . وفي النهاية ، كسرته السيدة البوسنية الأكبر سنا : « هل تريد شيئا تأكله ؟

سألت بنبرة المضيفة التي تحاول ضم ضيف غير اجتماعي الى محاثة عامة . فأومات موافقا وقطعت لي شريحة من السجق الناشف وقطعة كبيرة من الخبز الأبيض وقطعتين من البرتقال متوقفة قبل كل عملية لمسح حد سكين صغيرة للجيش

الســويسري بجانب من الـورق الشمعي كانت قطعـة اللحم ملفوفـة فيه . بعـد اول قضمة أومأت العجوز في سعادة . وبعد ذلك بـدأ الرجال يتكلمون في اقتضاب أول الأمر في طوفان عما حدث في البوسنة و حولهم الى لاجئين . واستخدموا كلمات مثل « التطهير العرقي » و تحدثوا عن مواجهة القناصة ونيران المدفعية والقذائف الصاروخية بألفة لم أكن أتوقع أن أسمعهـا من أي أوروبي لم يكن محاربا أوعاملا في قـوات الاغاثة .

وبعد مرور عامين مازالت وجوههم عالقة في ذهني . وفي مفكرتي وجدت انني كتبت انهم كانوا مسلمين تم تطيرهم عـرقيا من مدينة سانكي مـوست شمالي البوسنة وأنهم اتخذوا طريقا دائريا الى ألمانيـا ، وأنهم إذا ما كانوا قد ألقوا اللـوم على صرب البوسنة فإنهم يـدينـون ببقـائهم أحيـاء لصــديق للعـائلـة يخدم في قـوات صرب البـوسنـة نفسهاقـالت السيدة الأكبر سنـا وتعبير الحب على قسماتها أنه قد فعـل كل ما يمكن لحمايتهم . وكما تقول القصـص البوسنية فإن هـذا الشخص أفضل من الكثيرين . وبينما كانوا يتحدثون عن الاغتصاب والجرائم فإنهم لم يخوضوا هذه التجارب أو حتى شاهـدوها بأنفسهم . وأنه كـان معهم ماركات كافيـة للسفر نحو المانيـا بدلا من أن يجدوا أنفسهم ، مثل كثيرين من منطقتهم في شمال البوسنة ، لاجئين في كرواتيا حيث الحيـاة أصعب بكثير من داخل المعسكـرات في ألمانيـا . لقـد فتنـوني هم وقصصهم بشكل لم استطع تفسيره وقتهـا وبعد وقت قصير ، وبأقـوى شعور بـالالتزام عـرفته ككاتب ، ولكن بإحسـاس غير واضح بما سأفعله عندمـا أذهب الى هناك ، نجحت في تأمين مأمورية من مجلة أمريكية للكتـابة عن البوسنة وحجزت رحلة الى زغرب .

الفصل الثالث

كـانت أول مفاجأة عن زغب، بـالنسبـة لي كزائر أجنبي يتـوقع أن يصل إلى مدينـة في حالةحرب، هو أنها بدت لي كأى مدينة أوروبية غـربية هادئة. فلا توجدمبان عامة أمامها أكياس الرمل ولا بنادق منصـوبة على أسطح المباني التجارية ولا نقاط تفتيش ثابتة للشرطة بعد أن تعبر محيط مطـار زغرب. والشعور السريع الوحيد بأنك لم تصل إلى ركن منعـزل من أوروبا الغـربية يكمن في حقيقـة أنه لا يـوجد عمال وافـدون غير بيض في أي مكـان. فعلى عكس فـرنسـا أو ألمانيـا فإن كـرواتيـا، بصرف النظـر عن العجز، متجانسة عنصريا. وفيما عدا ذلك فإن المفاجأة أنه ليس هناك مفاجأة. فمن الغـريب بمكـان أن تصل إلى فـرانكفـورت أو زيـورخ وتكتشف كم أنك قـريب من الحرب في يوغسـلافيا السابقـة. ولكن الأغرب أن تصل إلى زغرب نفسهـا والتي تبعد أقل من ٣٥ كيلـو متراً مـن خط النـار ومع ذلك لا يكـون لـديك إحسـاس حقيقي بالتعبئـة العامة نـاهيك عن الحرب. فالمبـاني السكنية على مشارف زغـرب تشبه كثيراً أحياء الطبقة العاملة في أي مدينـة أوروبية بينما، وقبل الوصول إلى وسط المدينة، يمر المرء خـلال أراض تتنـاثر فيهـا المواقع الإنشـائيـة والمبـاني التجاريـة الجديـدة كما أن اللافتات بطول الطريق تعلن عن أحدث البضائع الاستهلاكية الغربية ـ كنزات بنيتون والسيارات الألمانيـة وما شابه ذلك. إنها تبعث بـرسالة واضحـة أنه حتى وإن لم تكن مستويـات الرخـاء الأوروبي الغربي قد تيسرت بعـد، فلدى الكـرواتيين كل الأسباب لتوقع بدء التحرك نحوها في المستقبل غير البعيد.

في وسط زغـرب التـاريخي تتضح الـرسـالـة نفسهـا رغم أنها أقل استهـلاكيـة. فلايملك الزائر تحت ظل معمار القـرن التاسع عشر الأنيق بألوانه الصفراء والـرمادية والزرقـاء أن يشك حقيقة في أعمـق مفاخر كـرواتيا وهـي إنتماؤها للغرب. فـرغم أنها لعهد قريب كانت جـزءاً من الدولة المعروفة بيوغسـلافيا، كما يقول لك أهل زغرب، فإن التشارك الثقافي– لكـرواتيا مع أي من دول البلقان عموماً وصربياً بصفـة خاصة،

بأقل بكثير مما تشارك به مع ماضيها الهابسبرجي أو مستقبل أوروبا الغربية. ومن أكثر اللافتات شيوعاً على السيارات ماتشير إلى هذا التطابق مع عالم الاتحاد الأوروبي. فالحروف HR وهي اختصار للكرواتيا (هرفاتسكا) مكتوبة على خلية زرقاء ومحاطة بالإثني عشرة نجمة ذهبية للاتحاد الأوروبي. وبالطبع، فإن انتشار هذه اللافتات يدل على التمنيات الكرواتية أكثر مما يدل على وضع الدولة الحقيقي. ومع ذلك فمن الشائع أن تسمع حتى المثقفين في زغرب يصرون على أنه إذا توقف القتال فقد يصبح الحلم حقيقة.

في زغرب يقدمون الكابتشينو أكثر مما يقدمون القهو ة التركية في المقاهي المطلة على ميدان بان يلاسيك، وكما يحدث غالبا في النمسا، فإن الجلوس على المائدة لتناول وجبة في زغرب يبدو مثل تمهيد طويل للحلوى. على أن هذه التفاصيل الصغيرة عن الحياة ليست مجرد حقائق عن الحياة فهي تحمل في داخلها طابعاً ايدولوجياً ففي رغوة فنجان القهوة وفي كريمة الخباز توجد أصداء رمزية بالنسبة لكثيرمن الناس قد تبدو غير متناسبة مع أهميتها الظاهرية. فالمرء يتوقع أن يتكلم الناس عن مشكلات كرواتيا الاقتصادية أو عن الحرب وبدلاً من ذلك فغالبا ما يتكلمون عن حياتهم العادية متمثلة في أي نوع من القهوة يفضلون. ولأن تذكير المرء أن المقاهي تقدم الكابتشينو ليس كافياً، فالكرواتيون يركزون أيضاً على إخبار الآخرين مراراً وتكراراً بأنهم يفعلون ذلك «تماما كما في مقهى في فيينا».

إن هذا التقديم لكرواتيا كدولة منتمية بحق إلى وسط أوروبا أكثر من البلقان هو جزء من الدعاية الرسمية بمثل ما هو نوع من المفخرة الشعبية. يقول مقال في مجلة الخطوط الداخلية الكرواتية «اليوم بما يتجاوز المليون نسمة فإن زغرب في نواح كثيرة مدينة أوروبية». وفي مكان آخر من نفس المجلة في قسم عنوانه «كرواتيا...» يزود الزائر بمعلومات تقول أنه «في المناطق الشمالية فإن أسلوب الحياة هو على نمط أوروبا الوسطى بينما يسود في نمط البحر الأبيض المتوسط..» والرسالة الحقيقية هناتهتم بما ليست عليه كرواتيا بمثل ماتهتم بما هي عليه، كما أن تلك الرسالة تعني أنه لا صلة لكرواتيا بالبلقان تاريخياً أو ثقافياً.

وهناك في هذه التأكيدات، سواء فيما يخص عضوية الاتحاد الأوروبي أو

السياحة، أو طراز زغرب المعماري، هناك رسالة أعمق تذكر بأكثر من الفخر المحلي البسيط أو روح الدفاعية الإقليمية. فقد كانت يوغسلافيا برغم كل معاناتها، دولة كبيرة بينما لم تكن كرواتيا كذلك. وتتمثل تلك الحقائق أمام الكرواتيين بوسائل واضحة من أسعار البضائع المتزايدة في المحلات إلى صعوبة السفر خارج البلاد. حيث يلزمهم تأشيرات . . . دخول للسفر الآن (عندما كانوا يحملون جوازات سفر يوغسلافية كانت معظم دول أوروبا الغربية تسمح بدخولهم بدون تأشيرات)، وحتى عندما يحصلون على التأشيرة فمع وضع اقتصاد الدولة فإن القليلين هم الذين يستطيعون السفر للخارج. لقد إختفت السياحة التي اعتمد عليها اقتصاد كرواتيا قبل الحرب بشكل كبير. فعلى ساحل والمانيا من زارار حتى دوبروفنيك لم يستطع الزبائن الذين يدفعون للفنادق أن ينزلوا حتى في أفضل الفنادق، على أي حال، لأن حكومة زغرب طلبت من أصحاب الفنادق أن يستوعبوا عشرات الآلاف من اللاجئين من كل من مناطق كرواتيا التي احتلها صرب البوسنة. وفي زغرب نفسها فإن أضخم فنادق المدينة (انتركونتيننتال) وهو برج كئيب شيد رغم إحتجاجات أهل زغرب ذوي العقول المعمارية في منتصف الثمانينات توقعاً لمستقبل المدينة كمركز تجاري على الطراز الغربي، بدأ يستضيف بشكل رئيسي مسؤولي الأمم المتحدة العسكريين والمدنيين عام ١٩٩٢ وهم يحصلون على خصم كبير. يلبس عاملوا انتركونتنتال زياً باللون الأخضر الذهبي مأخوذاً مباشرة من مسرحية هزلية في فيينا، ولكن لا يبدو شيء هزلي فيما يتعلق بأطقم الطيران الفرنسيين والانجليز أو المسؤولين المدنيين من قوات الحماية ومكتب مبعوث الأمم المتحدة للاجئين ،الذين يدخلون ويخرجون من أروقة الفندق مرتدين غالباً سترات المدفعية المضادة للطائرات في لون الأمم المتحدة الأزرق حاملين خوذاتهم البيضاء تحت إبطهم.

يدرك معظم الكرواتيين المصاعب التي يواجهونها مهما كانوا قوميين ومهما كانوا غير مكترثين بمناقشة الزائر عما يدور في واقع الأمر. فسلوكهم نحو الماضي، على أي حال، يكاد يكون مربكا مثل سلوكهم نحو الحاضر والمستقبل. إن التناقضات كثيرة. فمن الشائع أن تسمع الناس يتكلمون عن مدى صعوبة الوضع الحالي عليهم اقتصاديا. فعلى مأدبة عشاء في إحدى زياراتي الأولى لزغرب قال لي جامعي كرواتي

رفيع ، يعمل مستشاراً غير رسمي في حكومة توديهان منذ ١٩٩١ ، قال« قبل الحرب كنت أملك منزلاً على ساحل دالماتيا قرب دوبروفنيك وسيارتين ومدخرات كبيرة بالمارك. أما الآن فقد دمر منزلي جزئيا في القصف ولم يتم إزالة الألغام من بعض الأرض حوله وقد جمدت الحسابات البنكية بالعملة الأجنبية لكل شخص. إنني لا ألوم الحكومة ـ ولكن هكذا تسير الأمور إنها في الواقع صعبة جداً علينا».

ورغم ذلك فبعد لحظات قليلة كان يصر على أن حياته كانت أكثر بؤساً في يوغسلافيا قبل الحرب ، فقد قال لي «لم نكن نستطيع العيش بنفس الأسلوب. كانت حياتنا لا تطاق. فقد كان الصرب يسيطرون على كل شيء. لم نكن أحراراً والأدهى من ذلك فقد بدا أننا لن نكون أحراراً أبداً، فقد أخمد تيتو التطلعات التاريخية للشعب الكرواتي في الاستقلال. وكان هذا سيئاً للغاية. ولكن على الأقل فقد أعطانا تيتو قليلاً من فرصة التنفس. وعندما أمسك ميلوسيفتس بالسلطة في بلجراد وبدأ في تحويل الاتحاد اليوغسلافي إلى دولة متمركزة في بلجراد، فقد أصبح من غير المتصور الإستمرار في بقاء كرواتيا جزءاً من يوغسلافيا، وربما كان الأمر. دائما كذلك. أنني أعلم أن بعض الناس هنا كانوا يشعرون حتى النهاية أنهم يوغسلافيون ، بل كذلك أشعر أنا أحياناً. ولكني كنت أشعر دائما أيضاً بأني كرواتي أولاً وأخيراً».

إذا كان الماضي مستحيلاً من الناحية السياسية والحاضر غير محتمل مادياً واقتصادياً فلم يتبق إذن سوى المستقبل فقط وقد استمر معظم الكرواتيين في الأمل بأوقات أفضل. وكانت هناك لحظات بدا فيها مثل هذا التفاؤل يقترب من مستوى الخيال. فعلى سبيل المثال، وفي يناير ١٩٩٣ ، برر الرئيس توديهان هجوماً عسكرياً كرواتياً في دالماتيا استعادت به قواته ثانية مطار زارار من صرب كرايينا وكذلك الموقع على جسر مالسينيكا المدمر ـ وهو حلقة حيوية في الطريق الرئيسي الذي كان من قبل الحرب يربط بين زغرب ودوبروفنيك ـ بإعلانه أن الهجوم كان ضرورياً من أجل الموسم السياحي الصيفي المقبل، وكأن دوبروفنيك، والتي مازالت مشارفها ملغمة، ما فتئت مقصدا يتوق لزيارته المرتاد الألماني أو الهولندي العادي. ومع ذلك فقد أكد توديهان أنه سيتم بناء الجسر قبل الصيف. وللترويج لخطته وتنبأ على نحو يستحضر للأسف أصداء شعار هتلر «الف عام للرايخ»، فقد واصل حديثه مدعيا أن الجسر

سيعيش «ألف عام».

لكن هذه الصور الوردية لمستقبل كرواتيا التي قدمها توديهان في خطبه لا تتفق مع الـواقع. كانت بعض مناطق الدولـة غنيـة نسبياً. ففي إيستريـا، وهي منتجع يقع شمال غرب كرواتيا بين مـدينة ربيكا وحدود سلوفينيا، بـدأ السياح في العودة بأعداد كبيرة. ولكن إيستريـا كانت آمنـة من الحرب بشكل كبير. وكانت قـد بدأت تشهـد إحياء السيـاحة في فترة مـا قبل الحرب في ربيع ١٩٩٣. كذلك ظلت الأمـور محتملة نسبيـاً في زغرب. ولكن حتى في العـاصمـة، فإن حياة الـلاحـرب واللاسلم كـانت صعبة وتزداد صعـوبة باستمرار على معظم النـاس. فالمتاجر مملـوءة بالبضائع ولكن يمكن تبين وضع المشترين من شراء ربع رغيف من السلال المملوءة بالخبز. أما الخبز الأسمر، والـذي مازال أرخص والمدعـوم من الحكومـة الكرواتية، فيتـوفر في المخـابز فقط في ساعات الصباح الأولى قبل أن تفتح المحلات أبوابها. وتتشكل الطوابير عند الفجر وتختفي عند السابعة. وقد يصـادف رجل أعمال أجنبي يقوم برياضة المشي في الصباح الباكر مثل هذه الطوابير مثلما قـد يفعل شخص عائد إلى بيته بعد قضاء ليلة في سريـر شخص آخـر. فيما عـدا هـذا فمن الممكن قضـاء وقت طـويل في زغـرب متنقلين في سيـارات تاكسي مـرسيدس جيـدة بين المبـاني الحكوميـة وأبراج المكـاتب وفندق «اسبلنديد» الراقي (وهو الملتقى المفضل للصحفيين الأجانب) دون استيعاب للمصـاعب التي يمـر بها النـاس في حياتهم اليـوميـة. نـاهيك عن حقيقـة أن خط المواجهة الأول يبعد حوالي خمسة وثلاثين كيلو متراً.

على أن بعض أوجه القصـور تبدو اكثر وضـوحا فالصيـدليات لم تعمل بشكل سليم لمدة طويلة حتى في زغرب. ففي عامي ١٩٩٣ و١٩٩٤ وبعد وقت طويل من إنتهاء الحرب الصربية والكـرواتية، كـان مألوفـاً أن تسأل عن شيء عادي مثل حبـوب منع الإسهال فيقال بأنها ناقصة ولا يعرف أحـد متى تتوافر. ومع ذلك فإن زغرب في أسوأ حالاتها ليست أدنى من مدن كثيرة أخـرى في وسط وشرق أوروبا بما فيها معظم المدن في ألمانيا الشرقيـة السابقـة. كما أن الهوة بين الفقراء والأغنيـاء أقل وضوحـاً بكثير عن موسكو مثلاً أو حتى وارسو والشوارع نظيفة ومعظم الناس مهندمين، وبينما يغضب سكان زغـرب من وجود المتسـولين والشحاذين في شـوارعهم ــ كما قالت لي الكـاتبة

الكرواتية سلافينكا دراكيوليتش وهي تمديدها إلى ورقة نقدية لتعطيها الزوجين مسنين إقتربا منـا للاستجداء«لسنا متعـودين على هذا ـ فحتى خـلال أسوأ فترات التقشف الإقتصادي والبطـالة الجماعيـة فقد كـان عددهم منخفضـاً حسب معـدلات أوروبا الغربية، ناهيك عن المعدلات الأمريكية .

لذلك كلـه تظل مخاوف زغرب ليست فقط صعبـة التمييز بل متناقضـة داخلياً . فكرواتيا ليست دولـة بوليسية كما أنها ليست دولة مفتوحة ديمقراطيـاً كذلك . فهناك ضغط هـائل على الاعـلام وأمـاكن العمل لتتـوافق مع الأوضـاع . وأيـة معـارضـة لسياسات حكومة توديمان يجري استنكارهـا في الصحافة الحكومية على أنها أقرب إلى الخيانة العظمى تشويه لصورة الـوطن في الخارج بتحريك من أعداء كرواتيا . وقضية صـورة الدولـة مسألـة محورية، فـلا ينتهي الجدل في الدوائر الحكـوميـة حول كيفيـة تحسينهـا . وقبل أن يبـدأ الألمان في الإنضمام إلى القوى العظمـى الأخرى في ممـارسـة الضغط عليهم كان الكرواتيون أقل قلقاً . وقد لخص كتاب يسرد مشاركة الألمان في دفع المجتمع الأوروبي للاعتراف بكرواتيا المزاج عـام ١٩٩٣ في زغرب الرسمية عنوان الكتاب وهو كتـاب رائج : «بون : خط كرواتيا الثاني» . ولكن عنـدما اتضح في ألمانيا مـدى إسهـام الكـروات والصرب في تقطيع أوصـال البـوسنـة وأصبحت بـون غير متعـاطفـة بشكل متزايـد مع نظـرة الكـروات، فقـد أصبح المزاج في زغرب دفـاعيـاً وتآمـرياً . كـان الحديث يتزايـد بشكل كبير عن أعداء كـرواتيا الكثيرين في الخارج . وعبر عن الكثيرين مسؤول حكومي رفيع عندما طالب الكرواتيين «بالعمل معا لرسم صورة إيجابية لكرواتيا في العالم» وبـالطبع فإن الصورة التي كانت في ذهنه تمثل كرواتيا البراءة، والضحية، والفضيلة .

في هـذا الجو مما يمكن اعتبـاره نوعـاً من الحكم العرفي اللغـوي، فإن المعارضـة اللفظيـة العلنيـة كمقابل لكلمات التـذمـر في المقهى أو الشكـوى للزوار، بـالنسبـة انطوت على مخاطرة حقيقية للمواطنين الكـرواتيين وقد أغلقت معظم وسائل الإعلام المستقلة أو وضعت في أيدي صحفيين . . موالين لحزب توديمان . وفي أقصى حريتها نادراً مـا تقترب الصحافة الكرواتيـة من الموقف الإنتقادي الشائع في الإعـلام المطبوع في بلجراد الدكتـاتورية . فمهاجمة الحكومـة بعنف كان يؤدي بالذكـور في كرواتيا بين

سن ١٨ و٥٠ إلى الاستدعاء فجأة للخدمة العسكرية. وقد حدث هذا لفيكتور ايفانيتش رئيس تحرير فيرال تريبيون الأسبوعية الساخرة المعارضة في أوائل يناير ١٩٩٤. وبعد قضاء ثلاثة أسابيع من التدريب سمح له فجأة بالعودة للمنزل مع تحذير بإمكان استدعائه... وإلحاق زملائه في الجريدة بالخدمة العسكرية في أية لحظة. وكانت الرسالة واضحة.

وطوال الحرب فهم كثير من المتحضرين المهنيين الكروات، وليس فقط المتورطين في نشاطات ومعارضة، التعبئة العسكرية (العامة) على أنها التهديد المعلق فوق رؤوسهم إذا لم يلتزموا بخط الحزب. وقد قالي لي طبيب شاب من زغرب: «لا تضحك على نفسك فقد أكون مع الموجه الآن ولكن حركة واحدة خاطئة وأجدني أعمل في مستشفى ميداني في وسط البوسنة. إنني لا أبالي بالبوليس السري يدق بابي بعنف في منتصف الليل. بل أخاف من الموظف الذي يدق الباب برفق بعد الظهر ليقدم لي أوراق التعبئة. وهذا ما يدفعني لأن أؤدي عملي وأطبق شفتاي».

في عهود سابقة في كرواتيا كانت الهجرة إختياراً على الدوام لكن الحرب غيرت ذلك كله. وبسرعة أصبح من المستحيل على الكروات أن يحصلوا على التأشيرة المناسبة لوجهاتهم التقليدية ـ كندا واستراليا والولايات المتحدة وألماني. فقد أصبح الحصول على التأشيرات السياحية غاية في الصعوبة. وإذا حصل كرواتي على إذن بالسفر فلم يكن واضحاً أنه سيستقبل بنفس الحماس كما كان الحال قبل الإستقلال. ففي المجتمعات الكرواتية الكبيرة في الخارج كان المزاج، كما هي الحال مع أهل الشتات، أكثر تطرفاً بكثير منه في الداخل، إذ أصبح ينظر للسفر من كرواتيا إلى ملبورن أو شيكاجو بشكل متزايد على أنه نوع من الخيانة. ففي تلك الأماكن كان الحديث كله يدور حول العودة للوطن ليس بالضرورة للقتال، كما فعل الكروات المنفيون بوحشية وبفعالية عام ١٩٩١ في شرق سلفوفينيا، ولكن للمساعدة في بناء البلد. وكما قال الاستاذ الجامعي فإن الحياة في كرواتيا الحرة قد تكون صعبة ولكن مازالت كرواتيا حرة. وقد لا يكون هذا كافياً لطرد الحرب من عقول الناس، ولكن الناس في زغرب بدوا في الغالب متوافقين مع خوفهم من خلال إبقائهم بقدر المستطاع متسترين بالعيش وكأن زغرب مدينة سلام وأنهم، مواطنوها، يمرون فقط

بأوقات إقتصادية صعبة .

في زغرب ، كانت الشوارع المحيطة بالميادين الرئيسية ممتلئة بالجنود العائدين الى بيوتهم في إجازة ، ولكن بعكس تل أبيب مثلاً لم يكن الجنود الكروات يحملون بنادقهم معهم وهم يتسوقون أو متأبطين صديقاتهم . وليس مثل بيونس ايرس فهم لا يتوقفون عما يفعلون لتحية ضابط مار، فالانطباع الذي تعطيه زغرب هو أنها أقرب إلى مدينة سويسرية حيث يعود الإحتياط بعد دورة تنشيطية ويتوقفون للتمتع وليس كجنود ذوي رتب منخفضة في دولة أراضيها مازالت تخضع لإحتلال الأعداء ومكان في مرمى مدفعية وصواريخ الضرب طويلة المدى . كانت أكثر الشواهد المؤلمة للحرب ، بغض النظر عن العربات العسكرية المتفرقة بلوحاتها الصفراء الرمزية والتي تمر سريعاً وبالحاح في المدينة ، هي منظر الشبان الذين يسيرون في ألم مستخدمين عكازاتهم أو بالأطراف الصناعية المعدنية الطويلة المربوطة في سيقانهم . لقد أصبح العتاد العسكري الحديث من القوة بحيث أن الإثر والتافه الذي كان في السابق يسبب جرحاً في اللحم يؤدي إلى الآن تهشيم العظام بسبب السرعة المطلقة للطلقة . وقد تقوم الصحافة عامة وبصفة خاصة التلفزيون الموجه من الحكومة بإعلان آخر أخبار الحرب بعبارات عالية النبرة ، . ولكن قليلون هم الذين يتوقفون في الشوارع للنظر إلى النصب التذكارية للموتى أو حتى لتصفح مجموعات الحلي الوطنية والفاشية الجديدة الصغيرة- ذات المربعات الحمراء والبيضاء شعار كرواتيا التي تنا شعارات أيوستاشا ، والفانيلات والكاستيات وعلاقات المفاتيح- المعلقة في الأكشاك بين ميدان بان جيلاستين وسوق زغرب المفتوح الجميل في أعالي المدينة .

وبالطبع فمهما كان هدف الناس ، وكما كتبت سلافينكا وماكيوليتش «يتظاهرون بالحياة الطبيعية بقدر استطاعتهم» فبعد قليل تبدأ الأقنعة في السقوط . ومع ذلك فلا يبدو أن معظم الزوار الأجانب لزغرب هذه الزيام يهتمون بالمزاج العقلي للمدينة ناهيك عن مدى «غربيتها» الحقيقية أو المصطنعة . فمعظمهم بدأ بالمجيء إلى زغرب أيام الحرب الكرواتية الصربية وعادوابمجرد بدء القتال في البوسنة . ومن سخرية الأقدارأن قوات الأمم المتحدة متمركزة أصلاً في سراييفو منذ ١٩٩١- حيث بدت العاصمة البوسنية كمكان آمن وحيادي ـ وكان ينظر لعلي عزت بيجوفيتس على أنه

غير موال لأي من الصرب أو الكروات. ولكن بمجرد حصار سراييفو في إبريل ١٩٩٢ مركزت الأمم المتحدة رئاسة عمليات قوات الحماية الدولية وقوافل المساعدات في زغرب. ونتيجة لذلك أصبحت المدينة نقطة الوصول الإجبارية لعمال الإغاثة والصحافيين الذين يلزمهم تصديق الأمم المتحدة، وأي شخص آخر يريد الدخول إلى البوسنة. وقد استخدم معظم الأجانب كرواتيا كمكان لتقديم المؤتمرات.

أما السر القذروراء ذلك. وكما اكتشف الكروات لخيبة أملهم، فهو أن الأجانب لم يهتموا في الحقيقة بما كان يحدث في كرواتيا منذ طبق وقف إطلاق النار بوساطة سيروس فانس وزير الخارجية السابق في أمريكا وتدخلت قوات الأمم المتحدة بين الصرب والكروات في أوائل ١٩٩٢.١

واذا كان الكروات مايزالون يعددون بكل الوسائل مايثبت أنهم شعب غربي ويقارنون بين زغرب والمدن الأخرى في الشمال والغرب، فإنهم أكثر من أي شيء آخر يتحدثون إلى أنفسهم وليس للأجانب الذين أتى معظمهم من تلك المدن. ولا يعني ذلك القول إن مسألة القومية، كما يسمونها في يوغسلافيا السابقة، ليست في صميم السياسة والثقافة الكرواتية والصربية منذ القرن التاسع عشر على الأقل. فذلك النوع من العبارات البلاغية التي سمعها المرء في زغرب عام ١٩٩٢ كانت بمثابة صدى لما كان يمكن أن يسمعه المرء في يوغسلافيا الأولى بعد الحرب العالمية الأولى. ولقد استبدلت كرواتيا القوانين التشريعية والسياسية المأخوذ معظمها من هابسيرج بقوانين وإجراءات حكمت الحياة في صربيا قبل «مملكة الصرب» والكروات والسلوفيين». وكانت تلك الاختلافات حقيقية. وكان عام الاتحاد هو أيضا السنة التي ثار فيها موضوع العقاب الجسدي في الجيش الذي مثّل مسألة رمزية رغم تفاهتها. فقد ألغى الكرباج في كرواتيا عام ١٨٦٩ ولكنه أعيد لسابق عهده حسب الأعراف العسكرية للصرب عام ١٩١٨، وقد دفع هذا القرار بكثير من الكرواتيين للمقارنة بصوت عال بين غربيتهم المتحضرة وبين البربرية البلقانية لمواطنيهم الصرب.

وبعد حوالي عشرين عاما، عندما وصلت ريبيكا ويست إلى زغرب عام ١٩٣٨ في بداية رحلتها إلى ما أصبح مملكة يوغسلافيا، فقد نبهها مرشدها الصربي كونستانتين إلى أنه يمكن الاعتماد على معظم الكرواتيين الذين الذين ستقابلهم في

توضيح مسألة اختلافهم. وقال أنهم سيخبرونها أنهم «ليسوا مثل الصرب في بلجراد، فنحن هنا رجال أعمال، نؤدي الأعمال كما تؤدي في فيينا»!. كانت ويست تكره الكروات بقدر كانت تعجب بالصرب وتكره الألمان على أساس أنهم كانوا يتقدمون لصالحهم هم معتقدة أنهم « أضعفوا بتأثير النمساويين وكأنه مرض عضال» وكتبت تقول: «هذا حقيقي. لقد قالوا لي ذلك باستمرار في البنوك والفنادق والمتاحف».

ورغم أصالتها فإن ويست في كتابها الشهير كانت معبرة عن زمنها تماماً. فرغم كراهيتها «للتفكير العنصري» للألمان فإنها لم تستطع أن تجد معنى لكثير مما رأته خلال ست أسابيع في يوغسلافيامن دون اللجوء للتفسيرات المبنية على مجموعة مزعومة من «الصفات القومية» الثابتة والتي اعتقدت أنها تنطبق على الأفراد من الصرب والكروات والمسلمين والألمان الذين صادفتهم. وسرعان ما يكتشف أي شخص يصل إلى زغرب بعد ستين عاماً، من أماكن في الشمال أو الغرب حيث كانت هذه الإفتراضات. . فقدت مصداقيتها، أنه أيا كان مصير تلك العادات في التفكير في الغرب فإن أحد السبل التي تبدو بها كرواتيا مختلفة عن المجتمعات الغربية « المتقدمة» التي إدعت نسبتها إليهم إنما هو اعتقاد الناس المسبق بفكرة أن كل أمة لها شخصيتها المحددة والثابتة.

فقد يقوم شباب كرواتيا بالتسوق في نفس المحلات مثل قرنائهم في نيويورك ويكون لهم نفس الذوق في الموسيقى الشعبية أو يتبنون عادات جنسية مشابهة ولكن ذلك كله لا يجعلهم موا طنين عالميين بمفهوم «ما بعد القومية» الذي ميز كثيراً من الأروبيين الغربيين والأمريكان الشماليين من الطبقة المتوسطة. إنهم يتحدثون عن أنفسهم ككروات بنفس الأسلوب الذي كان يتحدث به أجدادهم عندما زارت ريبيكا ويست زغرب. وعلى أيام ويست، لم يكونوا مثل الناس في بريطانيا أو ألمانيا فقد إنعكس الفارق بين التفكير الغربي والبلقاني في ملابسهم. ولكن اتضح أن تشابه تسريحة الشعر مع أهل هامبورج أو إرتداء أحذية الرياضة مثل أهل كامدن تاون لم تغير مقدار ذرة من فهم شباب كرواتيا القومي والقبلي. وسواء كان العالم قد أصبح قرية عالمية أولم يصبح فقد ظهر أن المرء قد يصبح عضواً كاملا في مجتمع استهلاكي متجاوز للقومية ــ كما فعل كثير من اليوغسلاف بين عامي ١٩٧٠ و١٩٩٠ ــ ومع

ذلك يظل في نفس الـوقت قبليـا محضاً. ويكمن الخطـأ في تصور أن مجرد اكتسـاب أذواق وهويات جديدة يعني تساقط الولاءات السابقة آلياً. وفي البلقان على الأقل لم يحدث ذلك.

عـلاوة على ذلك فكلما انصت المرء باهتمام أكبر، كلما بـدا أوضح أن الكـلام عن كون كـرواتيا غـربية كـان بنفس الدرجـة- إن لم تكن أكثر- إفتراضـاً سلبياً، طـريقة لإخراج الصرب من أوروبا ومن «الغرب» بقدر ما كانت إدعاء إيجابياً يقصد به تثبيت أحقية كرواتيـا في عضوية أوروبا الموحدة في القرن الـواحد والعشرين. كما أنها كانت وسيلة لإعادة تأكيد الإعتقـاد بأن يوغسلافيا كانت فكرة مستحيلـة منذ البداية، وأن الكـروات كـانـوا يختلفـون عن الصرب لـدرجـة أن الشعبين لم تجمع بينهما أي سبل للعيش معاً في نفس البلـد الواحد. ولو أن الاختـلافات كانت سياسيـة فقط ـ بفعل القرارات السياسية المحددة التي اتخذها سلوبودان ميلو سيفيتسن بعد ١٩٨٧ عندما تولى رئاسة الحزب الشيوعي الصربي ـ لكـان من الصعب على أقل تقرير سيكون من الصعب إنكار إمكانية حلها سياسياً في يـوم ما. أما إذا كانت الاختلافات مبنية على نهجين روحيين للحيـاة لا يلتقيـان، فـان الشعـار الضخم لحكم تيتـو «الأخـوة والوحدة» يكون مـرفوضا كنكتة سخيفة. أما الذين قالـوا بعكس ذلك في كرواتيا فقد استنكـرهم أتباع النظـام ب «معتوهى يـوغوسـلافيا» أو «المتشـوقون لليـوغسلافيـة» وبأنهم أناس، أيا كانت الأسباب، رفضـوا أن يتعلموا دروس فوكوفار ودوبروفنيك.

كـان من السهل في زغـرب، رغم مـا يبـدو عن بعـدهـا من الحرب، التسليم بأسـاليب التفكير القبلية تلك. فبعـد ثلاث سنوات من الحرب، أصبـح التمييز بين الروحـاني والسياسي مستحيل واقعياً في كل مكان من يـوغسلافيا السابقـة. فكل ما حدث في كرواتيا منذ ١٩٩١ أو ما حدث منذ ذلك الحين في البوسنة أصبح يفهم من خلال منظـور فكرة الكياسـة والبربرية اللتـان تم تقديمهما وكأنهما الصفات القـومية المتأصلة في الشعوب المعنية. وغالباً ماكان يعثر على الدليل على هذه الميزة، في زغرب كما في أجزاء أخـرى من يوغسـلافيا السـابقة، في وجود بعض الخطـأالتاريخي، كأن تكون ضحيـة ـ كما كـان كل فرد في البلقان في وقت أو آخـر من التاريخ ــ هي فكرة

تصلح بذاتها لأن تجعل المرء عضواً في شعب جيد» .

النتيجة المباشرة لذلك ، هو أن الكروات كشعب ضحيةلا يمكن أن يقعوا في الخطأ هم أنفسهم ، وفي الوقت ذاته ومن حيث أنهم شعب غربي متحضر، لا يستطيعون التصرف ببربرية . وبعبارة أخرى ومثل كل سياسة متعلقة بالهوية ، فإن القصص التي تروج عن الكروات ، سواء ما يخص الصراع من أجل الدولة والذي دام تسعمائة عام أو شعور شعور الشعب الكرواتي المتأجج بغربيتهم ، تعد مسرحية أخلاقية وليست سياسة على الإطلاق بمعناها المعتاد.

وبصورة حتمية فإن هذه الدرجة من حب النفس ، أيا كانت كيفية فهمها تاريخياً كاستجابة كرواتية للخذلان الحقيقي للطموحات القومية تحت حكم هابسبرج وكل من الحكم الملكي و يوغسلافيا تيتو، حملت معها عجزا مدهشا عن تخيل ألا تكون لدي أي شخص فكرة جيدة عن كرواتيا. كما أدت بكثير من الكرواتيين إلى أن يتستروا حتى على أفظع الفترات في تاريخهم ويصبحوا ساخطين عندما يذكرها الأجانب. وفي حين أن الغالبية العظمى من الكرواتيين ليسوا فاشيين أو متعاطفين مع الفاشيين، فقد رأى الكثيرون فترة يوستاشا بشكل مختلف عما رآه معظم غير الكرواتيين. فبينمارأى الغرباء في مرحلة دولة انتي بافيليتش المدعومة من النازية هبوطا إلى البربرية الفاشية ، فقد ظل كثير من الكروات يستندون إلى حقيقة أنه رغم أن نظامه كان مشيناً، فقد كانت دولتهم مستقلة لفترة قصيرة. وحيث كان الغرب يوبخونهم -كما فعل كثير من الصرب المحليين ـ لإستمرار تمسكهم بشعار المربعات، فقد ردوا بحسم أن استخدام بافيليتش له لا يعني الا يستخدم هذا الشعار القديم للأبد. وحين تعجب الغرباء ، عندما قررت السلطات الكرواتية إلغاء العملة اليوغسلافية وهي الدينار، بسبب أصرارهم على تبني الكونا ، وهي العملة التي كانت مستخدمة في كرواتيا أثناء حكم بافيليتش ، فقد أصر الكروات على أن صورة الكونا ظهرت لأول مرة على عملة فضية عام ١٢٥٦ .

في كل حالة كان الرد الكرواتي صحيحا من الوجهة الفعليةوبليدا من الناحية الأخلاقية في آن واحد. فقد كانت رقعة المربعات رمزاً قديماً وقد استخدمها الاتحاد الثقافي الكرواتي ، لأكثر من قرن، وتوجد في واجهات مباني القرن التاسع عشر في

أجزاء كبيرة من كـرواتيا والبوسنـة بما فيها مبنى منـذ عهد هابسبرج في شـارع المارشال تيتو في سراييفو حيث موقع فرع الاتحاد الثقافي. ولكن رقعة المربعات كانت بلا جدال مصدر تحدي، وبخاصـة للصرب في كرواتيا الذين فقدوا أسرهم في مذابح يـوستاشا زمن الحرب أو أقـاربهم المعـدودين بين الضحـايـا الـذين قتلـوا في معسكـر اعتقـال جاسينـوفاك، حيث ذبح طبقـا للتقديـرات الاكثر تحفظـا مئات الآلاف من الصرب واليهود. كذلك لا تستطيع أي مراجع عليمة بعلم العملات في العصور الوسطى أن تخفف من الإنطباع المتمثل في أن السلطات الكـرواتية باختيارها للكونـا كانت أيضاً تختار استمـراراً رمزيـاً بينها وبين نظام بـافيليتش. وبعموميـة أكبر فإن إدعاءمبررات تـاريخية لاستخـدام تلك الرمـوز في وقت تنكـر على الصرب والآخرين نفس التبريـر التـاريخي خوفـاً من استخدامـه، مثل نمـوذجا بـالغ الدلالـة على التصاق النـاس بماضيهم القومي ولامبالاتهم التامة بماضي الأمم الأخرى.

وبحلول عـام ١٩٩٣، وفي كل أنحاء يـوغسلافيا السـابقة ، وصل هـذا الفهمالذي كونته كل الجماعـات عن نفسها بوصفها الضحية التاريخيـة للمجموعات الأخرى إلى حد أن الـوضع الوحيد المقبول لكـل منها هو البراءة المجروحـة، وبهذه الروح، أعلن الكرواتيـون الذيـن لا تجري في عروقهم دمـاء معادية للسـامية أنهم لا يفهمـون سبب شكوى الغـرباء عندما أصر الـرئيس توديمان على أن زوجته ليست صربيـة ولا يهودية وذلك في حملـة عام ١٩٩٠ حين دافـع عن نفسه أمـام معـارضيه الـذين شككـوا في كـرواتيتـه. كما أنهم لم يفهمـوا لماذا ثـار الغربـاء عنـد إعـادة تسميـة الشـوارع بأسماء شخصيات من عهد يوستاشا مثل مايـل بوداك وزير الشئون الدينية والتعليم في عهد باقليتش. كان الكروات متحضرين. ولذلك فـالرد الحاسم بأن الصرب كانوا كذلك يتكلمون بنفس اللهجـة يعتبر إهانة لا تحتمل. كان الإستشهـاد الصربي عقيدة زائفة ومُجبّرة لمصلحتهم الـذاتيـة أدت بـالصرب إلى ارتكـاب الجرائم الفظيعـة بينما لم يكن الاستشهـاد الكرواتي من ذلك النـوع من الـدفاع الـزائف، بل كان تقييما صحيحـا لما حدث. وقـد لخصت نكتة لاذعة، تحكي في كل أنحـاء يوغسلافيـا السابقة، بـدقة الربط المميت بين البراءة المجروحة والغرور الـزائد. تقول النكتة «لماذا أكون أنا الأقلية في بلدكم بينما يمكن أن تكون أنت أقلية في بلدي؟».

وأجد لزاماً على أن أعلن أنني كنت أجد دائما من غير المعقول أن تكـون مجموعة من الناس فاضلة بشكل خاص أو أن هوية الانسان يمكن أن تكون شيئاً آخر سوى كونها مرنة وطـارئة . كنت أعتقد قبل وصولي إلى يوغسلافيا السـابقة أنه لا شيء محتوم في الحرب هناك- أنها كـانت نتيجة لاختيارات سيـاسية وليس للشخصية القـومية أو لأحقاد وضغائن دموية تاريخية ـ واعتقدها كذلك الآن بعد قضاء ما يقرب من سنتين متنقلاً هنا وهنـاك أشاهد الناس يمـوتون ويقتلون . ومع ذلك فعندمـا بدأت أستمع لأول مرة إلى الأحـاديث المتباينة عـن مدى الاختلاف الجوهـري بين الكروات الصرب فقد وجدتني ، مثل كثير من الأجانب الآخـرين أميل إلى قبول ذلك على علاته . فقد بـدا أن كل الدمـاء التي أريقت وستظل إراقتهـا مستمرة ، الانفصـام أياً كـان الثمن بالتعبير المادي وأياً كـانت التضحيات المطلوبة ، باسم الانفصـال العرقي أو الغرور العرقي ، وذلك في أيامي الأولى في كرواتيا ، بدا أنه يعطي دحضا حاسما لكل الأوهام العالمية عندي .

يتعين على الصحفي ، طبقاً للنظـام المعمول به ، أن يكرس أول يـوم له في زغرب لتوفير أوراق اعتماده كمراسل صحفي . وبعد ساعة في المركز الرئيسي للأمم المتحدة للحصول على بطاقـة قوات الحماية الدولية ، انتقلت إلى فندق انتركـونتنتال للحصول على أوراق اعتماد . صحفية كـرواتية . وكما هو الحال في مثل تلك المكاتب فقـد كان الموظفون شبان كنـديون من أصل كرواتي بعضهـم انتقل إلى هنا لـلأبد والبعض الآخر لم يقرر بعـد أين سيعيش . سألت أحدهم وهـو موظف في العـلاقات العـامة لطيف المظهر - والـذي اضطر إلى أن يملأ بطاقـة هويتي بخطه هـو - متى قرر المجيء إلى زغرب ، فأجاب بابتسـامة عريضة كشفت عن أسنانه النـاصعة البياض : «لقد كنت أحلم دائماً بها . حتى وأنا أشب في ويست فان كنت أنتظر ذلك اليوم» . لقد طلبت أن يسجلوا في الكتاب السنوي للمدرسة الثانوية «أن (جيف يريد أن يعود إلى كرواتيا الحرة المستقلـة) وقـد فعلتهـا كما كنت متأكـداً أنني سـأفعل . فسألت» وهل تشعـر بالراحة؟» فـأجاب مبتسماً «تماماً . فكما قال والداي دائما ـ اللـذان جاءا إلى كندا بعد الحرب العالمية الثانية -إنه شيء رائع أن تكون في وطنك » . كان كل ما قاله عن انتقال والديه أنهما كانـا «ضد الشيوعية» ولم أستطع أن أجعله يقول إذا كـان من يوستاشا أم

لا. و لا أظن أن الأمر يهم بشكل خاص، فكرواتيا الحرة أو وحدة البوسنة أو توحد الصرب داخل أو خارج حدود صربيا والجبل الأسود، كل ذلك مثّل العقائد التي دفعت الناس ليموتوا ويقتلوا ويتنازلوا عن مستوى المعيشة الذي كان متوفراً ببساطة قبل بدء الحرب. سألته «وماذا عن ويست فان؟» فأجاب «حسنا إنني أفتقد الهوكي ـ الكانوك – ولكن من الأفضل أن تكون في النهاية حيث يكون انتماؤك». سألته مرة أخرى: هل كان يمكن أن يعيش هنا عندما كانت كرواتيا جزءاً من يوغسلافيا؟ فضحك قائلا: «لا فرصة لذلك، فحتي لو كان قد سمح لي بالعودة، وهو ما أشك فيه، لم أكن لأرغب في ذلك. ففي تلك الأيام كان الصرب يريدون كل شيء ـ الشرطة والحكومة والجيش ـ هذا ما فعله الصرب والشيوعيون. أما أنا فكرواتي، إنني أستطيع أن أتعايش مع أمريكي مثلك أو أحد أفراد طائفة «السيخ» في فانكوفر أفضل مما أستطيع مع صربي.

إن مايشعر به الناس نحو الإنتماء لايمكن تفنيده فقط بالعقل، ناهيك عن النظريات العقائدية ـ وأكثرها تهوراً الفكرة الماركسية عن «الوعي الزائف» ـ القائلة إن يظن الناس أنهم يحسونه ليس ما يشعرون به في الواقع. ولكنني أتذكر أني كنت أتساءل حتى في ذلك اليوم، ما إذا كانت تأكيدات الشاب المحمومة عن الاختلاف ذات مدلول في الواقع. فإذا كان الكروات، والصرب والمسلمون في الواقع مختلفين، إذن لماذا تتصف الأمثلة التي يختارها الناس للدلالة على ذلك الاختلاف ـ نوع من القهوة في زغرب ونوع آخر في بلجراد وميل بين الكروات نحو الدقة مقابل تفريط صربي «جنوبي» في الوقت وهاجس جرماني معين بين الكروات فيما يتعلق بالنظافة والنظام ـ ليس فقط بأنها تافهة نسبياً بل إنها تبدو كذلك تلخيصاً شاملاً لكل الكليشهات واللافتات التي تقابل الشماليين الاقتصاديين المحبين للعمل بالجنوبيين الجنسيين ومعدومي المسؤلية، والتي يمكن تواجدها تقريباً في كل بلدا أوروبي وكذلك في كثير من البلدان الأسيوية الشرقية؟

وبعد أن قيل لي مرات لا تحصى أن الكروات غربيون في الواقع وأن الصرب بيزنطيون في الحقيقة (في لحظة معينة بعد استقلال كرواتيا أصبح تعبير «بيزنطي» بمثابة لطخة عار في الدوائر القومية، وقد وقف عضو بارز في حزب في البرلمان ليقول

أنه مسرور بأن يعلن أنه لا توجد «دماء بيزنطية» في أسرته لثلاثمائة عام) بدأت، ربما بصورة مشوشة، أتساءل إلى أي مدى، رغم كل الدماء التي أريقت، كانت هذه الاختلافات حقيقية. وبعد كل شيء فإن هذا البرلماني الذي قام ليطمئن لزملائه حول أصوله لم يكن مضطراً لعمل ذلك لو أنه كان يتحدث بلغة مختلفة أوكان من السهل تمييزه شكلاً عن الصرب البغيضين ـ كما يدعى متشددو الهوتو على أعدائهم التوتسو بالخطأ غالباً، أو كما ظن النازيون في اليهود- هل لأنه كان يشبههم بشكل أو آخر وكان يتكلم مثلهم باللغة نفسها ولكنه في أعماقه يشعر في نفسه أو يريد أن يشعر بأنه مختلف ــ في الحقيقة، لأنه اعتقد أن قوته وخلاصه كفرد وككرواتي، تكمن في إحساسه باختلاف العرقي والقومي ـ هل لتلك الأسباب شعر هذا السياسي الكرواتي كفرد بالتزام خاص بإشاعة بأعلان كرواتيته لأكبر عدد من المرات؟

عادة مايصحب ميلاد الدول الجديدة رواية الأساطير. ويعطي المؤرخ إريك هو بسبوم مثالاً كلاسيكياً لمثل هذا النوع من التفكير، الاشارات الواردة في الكتب الدراسية الباكستانية إلى خمسة الاف سنة من التاريخ الباكستاني، يقول أنه في الحقيقة ربما تكون فكرة دولة باكستانية منفصلة قد نبعت عند القوميين من أنصار جناح في الثلاثينات وأن أية علاقة بين حضارة وادي لاندوس وبين حكومة ما بعد ١٩٤٨ هي محض خرافة. ولكن فكما في باكستان كذلك في كرواتيا (وبالطبع في صربيا كذلك) كان السياسيون القوميون يواصلون إختلاق إستمرارية ومجتمعات وهمية لم يكن لها وجود، تاريخياً. وعلى سبيل المثال فإن مدينة «دوبروفنيك» الشهيدة والتي استخدم الكروات دمارها المزعوم كأفظع مثال على بربرية الصرب لم تكن حتى جزءاً من يوغسلافيا الأولى. فلو تركنا جانباً حقيقة أنه إتضح أن قصف دوبدروفنيك كان أقل كثيراً مما يظهر باديء الأمر فإن المدينة كانت تاريخياً بيزنطية وفينيقية وعثمانية لفترة أطول كثيراً من كونها كرواتية.

بدا أن المهمة الأساسية عند القوميين (ودائما وما تكون الإدعاءات في الحرب مبالغة، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة أنها أكاذيب) تكمن في خلق أو تضخيم الإختلافات بأكثر من الموجود فعلاً. لقد فصلت بالفعل العداوات التاريخية بين الكروات والصرب كمجتمعات على فترات مختلفة في تاريخهم. ولكن بعد كل ما

يقـال، فإن أقصر تعـريف يحدد أفـراد الكروات والصرب والمسملين عـرقيـاً وبنفس الأهميـة، يميـزهم عن بعضهم البعض هـو الـدين وبدقـة أكبر، في حـالات كثيرة، الأصل الديني، حيث أن معظم النـاس في يوغسلافيا السابقـة كانوا علمانيين. فهم جميعاً من جنـوب سلافيا ومعظمهم مرتبط بـالمنطقة والطبقة وما إذا كـانوا يعيشون في المدن أكثر من ارتبـاطهم بالعـرقية بمعنـاها التقليـدي، ويمكن ملاحظـة أن الوضع الديني فقط هـو الذي كـان يمكن أن يدل على مـا سمي في يوغسلافيـا بالمجمـوعة القوميـةفيما حدث عام ١٩٧٤ عندمـا كرس تيتو البـوسنيين المسلمين كأحد «الأمم المؤسسة» ليوغسلافيا. ولتسويغ ذلك كجزء من حسبة سياسية معقدة قصد تيتو من خـلالها موازنـة كل من مطـالب الصرب والكـروات، كـان عليه أن يـرجع إلى كلمـة «مسلمين» والتي أصبحت تفهم في جميع الإحصاءات التـالية في يوغسـلافيا على أنها تشير فقط إلى هؤلاء المسلمين البوسنيين. أما المسلمون الألبان في كوسوفو ومقدونيا، والأكثر تدينا، فكانوا يوضعون في قوائم الألبان.

وبرغم كل دعايـة السياسيين القوميين، وبخاصة في كرواتيـا، التي كانت تدفع للربط بين العقيـدة الدينيـة والدول الجديـدة التي يجرى إقامتهـا- أو «استعادتها»كما يفضل القــوميــون ــ فإن معظـم الكـروات، مثل معظـم الصرب ومعظم مسلمي البوسنة. ظلوا علمانيين على الأغلب كما كانوا أثناء فترة الشيوعية. ولم يكن الدين يهم في حد ذاتـه (رغم أن الكنيسة الصربيـة ليست عالميـة، من النـاحية التاريخيـة، بل قومية) بل كان بـالأحرى الأداة الرئيسية للتحالف العرقي والقـومي في الدول الجديدة التي كانت تتجه نحـو تعريف المواطنة من خلال حصرها في الهوية العـرقية وبصورة سيئة السمعة كانت كرواتيا قد أعادت صياغة دستورها القديم عام ١٩٩٠ وهو قرار اعتقـد كثير من نقـاد نظام زغـرب أنـه سيجعل من المحتم حـدوث ثـورة في كرايينـا الخاضعة للصرب. فبينما كـانت الجمهوريـة الكرواتية أثنـاء حكم الشيوعيين مكـونة دستورياً من شعبين ناخبين ـ وهما الكروات والصرب ـ إضافة إلى أقليات أخرى، فإن كرواتيا المستقلة قـد عرفت نفسها بأنها «الدولة القوميـة للشعب الكرواتي ودولة الأمم الأخرى والأقليـات القوميـة الذين هم مـواطنوهـا، وبذلك نـزلت درجة الصرب إلى «الأقلية القومية» وصنّفوا مع اليهود والمسلمين والسلوفيين وغيرهم.

ومع ذلك فقد كانت تلك الاختلافات، على وجه الدقة، ثقافية أكثر منها عرقية. فما كان يجعل من شخص ما كرواتياً هو حقيقة أنه كاثوليكي روماني، تماماً مثلما مايجعل شخصاً ماصربياً هو عضويته، مهما ضعفت، في الكنيسة الأرثوذكسية سواء في كرواتيا أو صربيا. ولم يكن معنى ذلك أن للولاء الديني تلك الأهمية، بل كان المهم، وبعد أن نجحت خرافة القومية هو الطريقة التي يوظف بها الدين. فعندما مايذهب المرء الى قرية كان قد حدث فيها قتال، فقد كان من الاسهل ان تأخذ درساً في التاريخ من أن تحصل على وصف موثوق لما حدث في نفس اليوم. فلم يتحدث الصرب فقط، من خلال الاحاديث المتلفزة والبيانات الصحفية، عن هزيمتهم على يد الاتراك على أرض كوسوفو في أواخر القرن الرابع عشر، بل تحدث الكروات كذلك عن مملكة كرواتيا التي زالت في القرن الحادي عشر، وايضاً تحدث مسلموا البوسنة عن البوجوميليين. بل تحدث بعضهم بهذا الأسلوب في ميدان القتال. ففي موقع لصرب البوسنة قرب مدينة بيرييودور الشمالية ودعوني بالسلام بالأيدي وجركن (وعاء كبير) مملوء ببراندي مصنوع يدوياً من الخوخ المحلي وعليه كلمة «١٣٨٩»- وهو تاريخ هزيمة الصرب في كوسوفو. وفي مكاتب زغرب للـ«مرهاميت»، وهي المرادف المسلم للصليب الأحمر في يوغسلافيا السابقة، فقد أنصتت شخصية محلية مرموقة الى وصفي للظروف في شمال البوسنة واجابني بمحاضرة مسهبة عن التسامح العثماني.

على إن قيمة هذه الروايات كتاريخ ضئيلة. فأيا ماتخيل الكروات فإن فكرة رسم خط مستقيم بين دولة كرواتيا التي حكمها توميسلاف العظيم في القرن الحادي عشر وتلك التي أقامها فرانكو توديمان عام ١٩٩١ هي شيء يتعذر تفنيده. فقد كانت دالماتيا تحت حكم البندقية وسلافونيا الشرقية تابعة للمجر. لكن الرغبة في إعادة صياغة الماضي في صورة الحاضر كان دئماً دافعا قوياً في كل مكان. ففي يوغسلافيا السابقة، ولأكثر من ثلاث سنوات، مات مئات الآلاف دفاعاً عن إحساس بهويتهم بدا، في حالات كثيرة، أنهم يفتقرون أساسا الى تأكيد وجوده وفي كثير من الاحيان كانت الاخطاء التي ارتكبت في سياق كل هذا التلفيق الحماسي باعثة على الضحك. يذكر الكاتب الانجليزي مارك تومسون مسلسلاً عرضه التلفزيون

الكرواتي باسم « الكروات الذين صنعوا العالم »، وكان اولهم البابا سيكستوس الخامس، وهو بابا من العصور الوسطى لم يكن هناك منطق، كما قال تومسون، في افتراض انه كرواتي.

ولكن كثيراً ماكانت النتائج فظيعة مثلما حدث، اثناء الحرب، حين اشارت قوات صرب البوسنة الى قوات الحكومة البوسنية على أنها الجيش التركي وعبأت الجنود بزعم الانتقام لهزيمتهم في كوسوفو عام ١٣٨٩ .

وخوفاً من المستقبل بعد انهيار النظام الشيوعي بدأ الكروات والصرب بصفة خاصة يحيكون الخرافات الكثيرة عن ماضيهم البطولي المحرف وعن آلامهم عبر الزمن وعن مستقبلهم الزاهر. وبلاشك، كانت إعادة اكتشاف شخصية الكرواتي والصربي، قبل بدء التقتيل، عزاء للناس الذين بدا انهم يفقدون بحق السيطرة على حياتهم الشخصية والبلد الذي شبوا فيه. فعندما تقوضت يوغسلافيا انهارت كذلك الأجور الحقيقية. فالطبيب الذي كان يحصل في سراييفوا على الف مارك الماني شهرياً في بداية الثمانينات اصبح يحصل على عشر هذا المبلغ بعد نشوب الحرب. لقد كان الخوف حقيقياً. ولكن رغم ان حياكة الخرافات كانت ضروروية نفسياً فلم يكن من الواجب المبالغة في الاختلافات الحقيقية في أسلوب الناس في الحركة والملبس والايماء في زغرب وبلجراد وسراييفو. والواقع أن ماقد يكون دفع الناس للقتال هوأفكارهم المبتسرة عن العظمة التاريخية وضغائنهم الدفينة . ولكن مايفرقهم الآن ليست الافكار بل الموتى والمطهرين عرقياً والنساء المغتصبات والاطفال المشوهين.

إن من السهل جداأن ننسب ماحدث لسياسات الهوية التي عولجت بمنتهي التطرف. فالناس يتكلمون عن «قبلية» يوغسلافيا السابقة ويعيدون الحياة شبح كل تلك العوائق المنيعة المفترضة للثقافة والعرقية التي تقسم الكروات والصرب ومسلمي البوسنة. وهم بذلك يذهبون في الواقع- حيث أصبح من السهل القيام بذلك في هذا العصر حيث نالت القومية العرقية مكانة في أماكن كثيرة، من جنوب الوسط الي سراييفو حيث فقد الناس الامل أو تغمرهم المعاناة - في البلقان على أدنى تقدير، إلى أن هوية الناس المجتمعية ثابتة ودائمة مثل الـDNA بينما يتوجب عليهم أن يتأملوا في مصير السلافيين الجنوبيين وفي هؤلاء الناس الذين هم أقرب الى التماثل منهم الى

الاختـلاف، وكـذلك في المأسـاة السيـاسيـة التي فعلت فيهـا الكـوادر الصغيرة من المتسيسين والسيـاسيين المتعطشين للسلطـة والجنود والمثقفين كل شيء يستطيعـونـه للتضخيم والمبالغة في الاختلافـات الفعلية القائمة بين الكروات والصرب والمسلمين وذلك من أجل الاستحواذ على، او الوصول الى، السلطة. واذا كانت الهوة بين تلك الجماعات تبدو واسعة كما هي عليه الآن بعد التجـربة الطويلة والوحشية من العنف المجتمعي والحرب، فليس معنى ذلك ان العنف كـان محتـوماً من النـاحيـة الثقافيـة أوالتاريخية. فقد كانت هناك ثقافة لجنوب سلافيا ضمت الكروات والصرب ومسلمي البوسنة معـاً مثلما كانت هناك ثقافـات كرواتية وصربية و«بـوسنياك» فرقت بينهم، . وهذه الثقافـة السلافية الجنوبية تجاوزت، في بعض الأوقـات وعلى اقل تقدير- رغم انها ليست «يوغسلافية» سواء بمفهوم الملكية قبل الحرب العالمية الثانية او الدكتاتورية في عهـد تيتو- الأشكـال السيـاسية الاقليميـة والحدود العرقيـة والمحـاذير الخاصـة للتاريخ والمكـان. وقد استلزم تفتيت تلك الثقـافة، مثل تفتيت يوغسلافيـا، عملاً كثيراً. كـذلك فعلت الحرب في كـرواتيـا. وكـذلك فعلت الابـادة الجماعيـة لمسلمي البوسنة.

فليس الصرب والكـروات والمسلمين جيمعاً سلافيين جنـوبيين فحسب بل إنهم يتكلمون أيضـاً لغة واحـدة، أو على الأقل كان ذلك هـو التصور الشـائع قبل نهاية الاتحاد اليوغسلافي. وقـد كتب الكاتب والناشط السياسي بـوجدان دينيتش، وهو نفسه صربي من كرواتياً، يقول في مرارة «ثلاثة وثمانون في المائة من سكان يوغسلافيا (السابقة) يتكلمـون لغة واحدةو الإختلافـات في طريقة استخدام اللغـة بينهم تشبه الاختـــلافــات بين الطـريقتين الانجليــزيـــة والأمـــريكيـة في استخـــدام اللغـــة الانجليـزيـة». ويضيف دينيتش ان الـدليل على ذلك كلـه هو أنـه رغم إستخـدام الصرب للابجديـة السيريلية واستخدام الكروات والمسلمين للابجديـة اللاّتينية فإن كل لهجـة إقليمية لما كـان يسمى قبل الحرب باللغـة الصرب كرواتيـة كان يتحـدث بهاكل شخص في الاقليم المعنى اياً كان أصله العرقي. وبرغم ذلك فسرعان مايتعلم الـزائر لكـرواتيا الا يسأل عـن معنى هذه او تلـك الكلمة بـالصرب كـرواتي أو حتى بالكـرواتي الصربي بل دائما يقول « الكرواتي» . وفكـرة لغة كرواتيـة قد تكون جـديدة

الاَّ على قليل من غـلاة القـــوميين ، ومع ذلك فقـد أصبحت الـوهـم الأكثـرعمقـا الأكاذيب . فقـد انهمكت زغرب الرسميـة في تضخيم الفوارق التي تـواجدت لفترة ما ووضع فـوارق أكثر كلما أمكن ذلك . وعندمـا بدأت في الذهاب الى زغـرب كانت اللآفتة في المطـار هي نفسها التي مازالت موجـودة في صربيا ، وبحلول ربيع ١٩٩٣ «تكروتت» الكلمة لتصبح « زراكنا لوكـا» وهذه العبارة تعنى ، وعلى أقل تقدير نفس الشيء . وكانت هناك تحويـرات جديدة أخرى ، كاستخدام كلمـة بدلاً من«حزام» تعني تـرجمتها«شيء يرفع السروال» وهـي ببساطة شيء يبعث على الضحـك . وسواء كـان الأمـر مضحكـاً ام لا فقد أصر القـوميـون انـه لابـد أن تحل تلك الكلمات محل الكلمات الصربية أو البوسنية التي شب الناس على استخدامها . ومع ذلك كله ، فقد تم اختراع الكلمات الجديـدة في كـرواتيـا مستقلـة - تلـك الـدولـة التى كـان جميع الكروات . يحلمون بها منذ وفاة توميسلاف العظيم عام ١١٠٩ .

على أنه إذا ما فـاذا بدت تلك الفوارق ضئيلة ، وبخاصة عنـد مقارنتها بشيء ذا وزن مثل وجـود قواعـد لغويـة مشتركة وكـذلك المفـردات والاستخدامـات اللغويـة المتماثلة تقريبـاً ، فإن كثيراً من الكرواتيين ، وهم يمرحون ويعربدون فـرحاً بإستقلالهم الحديث ، يبدون غير قـادرين على التوقف عن الإشارة إليهـا . ففي خندق على خط مواجهـة نشط قرب نتوء خـارج زادار تحت سيطرة الصرب ، حـدث ان أخرجت من جيب سترتي كتيباً للعبارات الشـائعة وبدأت في تصفحه بحثـاً عن كيف أقول عبارة «هل أصبحت هـادئة ؟» فأخذ الضـابط الشاب الـذي كنت معه الكتاب مـن يدي وسحب قلماً من جيبه وقام ، بعد ان التف حولنـا رجاله ، وشطب فوق كلمة « صربي على الغلاف ليصبح العنـوان : «كتيب العبارات الشـائعة الكـرواتية» . وأتـذكر انني قلت في صـوت واهن : «عليهم أن يعيـدوا طبعه» وأتـذكـر دهشتي عنـدما أجـاب الضابـط بجدية : « أتمنـى ذلك» ومع ذلك فمحتوى الكتـاب كان هـو المستخدم في كرواتيـا وفي البوسنـة وفي صربيا كـذلك . و مايقسم النـاس هو لهجـاتهم واستخدام ابجديتين وليست الكلمات نفسها .

ولا أريد أن أقول أن الناس قبل الحرب لم يكونـوا قد رسموا هويتهم وفق أعراقهم أو أن أنكر أن القضية القـومية كانت الخط الفاصل في التـاريخ اليوغسلافي - في كل

من ملكيـة مـابين الحربين وجمهوريـة تيتـو - كما كان العنصر هـو الخط الفـاصل في التاريخ الامريكـي . ومع ذلك فخلال الحرب قام معظم الناس في كـرواتيا وصربيا ثم مع استمرار الحرب ، في جـانب الحكومة البـوسنية أيضاً ، بتقـديم تلك الاشياء التي تقسهم وكأنها واضحة وملمـوسة . ذات مرة سـأل رادفان كارادزيتش مجمـوعة من الصحفيين ، وكنت بينهم ، حيث ذهبنا لمقابلته في مكتبـه في بالي في ضواحي سراييفو التي اعلنهـا «عاصمتـه» في الحرب ، سأل «لماذا تصرون أيها الغربيـون على أن يعيش الصرب مع المسلمين؟»واستطـرد وهـو يبدو بخصلـة شعـره الكبيرة البـارزة وبذلتـه الزرقاء الأنيقة مثل مغن شعبـي فرنسي : «الصرب والمسلمون يشبهون القط والكلب . انهم لايستطيعون ان يعيشوا معاً في سلام . هذا مستحيل» .

كانت« الصربية» و«الكرواتية» و «المسلمِّية» حسب صياغة كرادزيتش ، جواهر- ثـابتة لاتتبـدل . فكـان يتكلم عن العـرقية كما قـد يقـول معـالج من تلامـذة يـونج عن«النماذج الأصلية» ، رغم أنه ، وكما حـدث فعلاً ، قام الدكتـوركارادزيتش كأحد أتباع فـرويد بالتدريب قبل التحـاقه بقسم العلاج النفسي في مستشفى كـوسيفو في سراييفو. وأيا كانت صياغته الخاصة فلم يكن وحده الذي يستخدم مثل هذه اللغة . فإن وحشية الحرب التي أطلقها جعلت آراءه المجنونة مقنعة للناس ، بل و الادهي من ذلك ، جعلهم يبدون وكأنهم متأكدون من تجربتهم . ولم تغيرحقيقـة أنه كانت لديهم تلك الخبرات بسبب الخطط التي صممهـا كـاراديـزيتش وميلـوزوفيتش وزمـلائهما ، حقيقة ان النـاس الآن يميلون الى الشعـور في أعماقهم بأنهم كانـوا على حق على طول الخط . وكما قال زرافكوا جريبـو وهو استاذ قانون من سراييفوومعـارض سياسي قديم لكاراديزيتش في مـرواغة «إن رادوفان كارادزيتش هو أعظم عبقريـة أفرزتها البوسنة . فهو يقول شيئاً يعتبر وقتها أكذوبة كبيرة وبعد سنتين يتحول الى حقيقة» .

وأيا كان ادعـاء كارادزتش فإن الصرب لم يعتقدوا دائماًبأنهم لايستطيعـون معايشة المسلمين والكروات . فقد كـانوا جيراناً لعقود طويلـة : كانوا يذهبـون معاً الى المدرسة كما عملوا معاً ، والى درجة مذهلة كانـوا يتزاوجون -وبخاصة في المناطق الحضرية من البوسنة والهرسك . لقد بذلت دعاية كبيرة لكي يبدأوا أول الامر في الخوف من بعضهم البعض - لقد بـدأت الحرب بالخوف وإنتهت بالإبادة الجماعيـة - ثم بتذبيح بعضهم

البعض. ومع ذلك فما أن بدأ التقتيل حتى إعتبر الكثيرون ان العنف يؤكد صحة تشخيص كارادزتش الأصلي. و غالباً ماكان ذلك صحيحاً لكثير من أعتى خصوم قائد صرب البوسنة كما كان بالنسبة لأولئك الصرب الذين بدأوا في إتباعه عن تراخ. ان كثيراً من هؤلاء الذين اعتبروا الصرب الطرف المعتدي في كل من كرواتيا والبوسنة ورأوا في كارازدتش مجرم حرب مازالوا يقبلون مع ذلك واحداً من أهم مزاعمه- أن العداوة العرقية الثابتة هي التي أوقدت الحرب التي شنها الصرب. كان يقال للمرء - وقد لاقت هذه الفكرة قبولا لدى مسئولي الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة والذين كانوا ملزمين «كحافظين للسلام» بالتعامل مع كل الجماعات في حياد، ومن ثم انجذبوا بصورة طبيعية نحو هذا الموقف - أن الشيوعية فقط هي التي كانت تمنع شياطين القومية من الاقتراب. أما وقد تهاوى النظام، فقد أصبح إحياء العداوة العرقية أمر حتمياً حتى ولو خفف من شكل الكارثة التي اتخذته تلك المناوشات جهود دبلوماسية دولية أكثر الهاماً او قادة أفضل من داخل جمهوريات يوغسلافيا السابقة.

ذات مرة قال لي ضابط روسي يعمل في الأمم المتحدة: «إنكم أيها الأمريكان غير قادرين دستورياً على فهم مايحدث في البلقان. إنكم أولاد وبنات طيبون، طيبون جداً. إنكم لاتريدون أن تروا أن الأمر ليس سياسة هنا، بل الدم والتاريخ. إن كل ماتستطيعون عمله هو الافلات من دوامات القتل ومحاولة رعاية الجرحى. أما بالنسبة للآخرين فإنه كالزلزال لايمكن السيطرة عليه. عليكم بفهم فن تشويه اديم الاض لرؤية مايجري في يوغسلافيا». وتوقف قليلاً ثم قال في تكشيرة « سترى! سيقتل كل منهم الآخر حتى يشبعوا ثم سيتوقفون ولكن ليس قبل دقيقة من ذلك مهما فعل اي منا».

أما صديقه، وهو رائد مظلات بلجيكي، فقد كان ينصت في هدوء. ثم قال فجأة: « لو أن الامر بيدي لبنيت سوراً حول كل ذلك البلد الملعون وتركت آخر الأحياء ينادي على الأمم المتحدة بعد أن ينتهى كل شيء. إنك حين تنزل إلى البوسنة سترى مانعنيه. »

في صباح اليوم التالي، كنت في طريقي لأرى بنفسي للمرة الأولى. لقد مثلت

مغادرة زغرب دراسة للتنافر المعرفي الذي سرعان ما أصبح مألوفا لدي . وللوصول الى كراينا الصربيـة أو الى شمال البوسنة الذي احتلـه الصرب على المرء ان يغادر الفندق ويقـود السيارة عبر شـوارع زغـرب الي الطريق الـرئيسي الحديث الـذي كان يـوصل السـائحين عبر البوسنـة الى ساحل دالماتيـا - سـابقا كنت أشكـو من أن الحليب في الكابتشينو ليس بـالدفء المطلوب، وكان احـد الصحفيين الانجليز قد طلب من المضيفة في غرفة الطعام بعض الكرواسان الطازج حيث ان تلك الموجودة على طاولة البوفيـه متعفنة . لم تكن زغـرب تبدو، من خـلال زجاج السيـارة أقل من أى مـدينة أوروبية . ولفترة من الوقت وحتى بعد أن دخلنا الطريق السريع ، كان الشيء الوحيد المختلف عن أى طريق في النمسا أو إيطاليا هو عدم وجود حركة سير.

كـانت اول علامـات حالـة ل الحرب هي أن محطات البنـزين الضخمة والمراكـز التجاريـة كانت مغلقة أو إذا كانت مفتـوحة فكان الذي يعمل بها مضخـة أو إثنتان فقط . ثم وصلنـا إلى مخرج جمارك خـال مـن الموظفين كـان هنـاك شيء مبهج في الإستمـرار في القيادة عبر سـاحة جمارك بسرعـة ٩٠ كم في السـاعة . لعلـه إنقضت حتى الآن خمس عشرة دقيقةمن الرحلة وبعد خمس عشرة دقيقة أخرى لم تكن محطات البنزين مغلقة فقط بل منفجـرة وقد غربلت المدافع الرشاشـة اكشاك العمال، وسلالم الخروج اصابتها شظايـا الهاونات . أما علي الطريق نفسهـا ومن ثم فعليك أن تقود، أياً كـان تجاهك فقد الحاجـز الفاصل بين اتجاههـا وكأن دبـابة دهسته ، على جـانب واحد فقط من الطريق . وبعـد دقائق قليلة ، تعبر آخر نقطة تفتيش كـرواتية ثم بعد دقائق قليلة اخرى - ها انت تقود الآن فوق مسـار قمامة وقرى دمرتها القنابل وجسور هدمتها المتفجـرات وحقول ألغام ومواقع مدفعية، ثم تمر من حـاجز مزين بشرايط بيضـاء وزرقـاء وحمراء - علم الصرب- وتـدخل الى كـرايينـا الصربيـة وبعـد ذلك بعشرين ميلاً تجد نهر سافا ثم على الجانب الآخر تجد البوسنة .

الفصل الرابع

كان شمال البوسنة الذي دخلته في أواخر صيف ١٩٩٢، وبخاصة ذلك الجزء من المنطقة المعروف ببوسانسكا كراينا المتاخم للحدود مع كرواتيا، كان قد بدأ بالفعل في تحويله ماديا. ولم يكن القتال هو الذي فعل ذلك: فعلى عكس وسط البوسنة أو في سراييفو أو موستار، كان الدمار في الشمال بسيطا نسبيا. ولكن في القرى حيث كانت تقوم المساجد، كان يتم وضع الأساس للكنائس الأرثوذكسية وكان أناس جدد ينتقلون إلى الشقق النظيفة في العمارات السكنية الحديثة حول مدينة بانيالوكا.

وحسب قول المسؤولين في الوكالة العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة فإن كثيرا من المائتي ألف صربي الذين هربوا من بيوتهم في كرواتيا أثناء الحرب الصربية/ الكرواتية عام ١٩٩١ كانت تتم إعادة توطينهم في بوسانسكا كراينا ومعظمهم في أملاك العائلات المسلمة والكرواتية الذين عاشوا في المنطقة لأجيال. فما كان يغير وجه شمال البوسنة لم يكن الحرب بل العملية التي قام بها الصرب لتعزيز نصرهم. ماكان يغير وجه شمال البوسنة كان مشروع التطهير العرقي.

وهذا تقرير وصفي للتطهير العرقي، أو رؤية شاملة: «تحولت المنازل وقرى بكاملها إلى ركام وكان السكان الأبرياء يذبحون بالجملة مع أعمال عنف لا تصدق وسلب ووحشية من كل لون ـ كانت تلك هي الوسائل التي إستخدمت ومازالت تستخدم من قبل جنود الصرب والجبل الأسود بهدف التحويل الشامل للشخصية العرقية (لتلك) المناطق، وبعد أن يهدأ القتال في أي منطقة معينة ويتم طرد السكان المحليين الباقين على قيد الحياة يتم جلب المستوطنين الصرب وأبناء الجبل الأسود وغالبا من على بعد مئات الأميال ليحلوا محلهم ويسكنون في المنازل ــ تلك التي لازالت قائمة ــ التي يمتلكها الناس الذين أجبروا على الفرار. كذلك كان تحويل الأماكن العامة يتم بشكل جذري. كانت المساجد تدمر بالنار والمتفجرات لتحويلها

في كثير من الحالات إلى مواقع إنشائية حيث يبدأ أفراد المليشيا من الصرب في وضع الأساس لكنائس أرثوذكسية والتي كان تشييدها معياراً على انتصارهم لا يقل أهمية عن قتل أو تشتيت السكان غير الصربيين.

هذا التقرير الوصفي ليس معاصرا. فهو مأخوذ من «تقرير البعثة الدولية لبحث أسباب ومسيرة حروب البلقان» الصادر عن منحة كارنيجي للسلام الدولي عام ١٩١٤ . وما حدث في البوسنة وكرواتيا منذ ١٩٩١ لم يختلف كثيرا في الايديولوجية والأسلوب عن ذلك الذي حدث في أوائل القرن في كثير من نفس المدن والقرى وحدث مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية. ولكن كان هناك وهم أوروبي ــ تولد عن التمنيات وعن الرضا الذاتي الذي أصاب أجزاء كثيرة من أوروبا الغربية حتى جعل انهيار الشيوعية كل شخص يفكر مرة أخرى ـ في أن الناس في القارة القديمة وحتى في البلقان لن يستمروا في ذبح بعضهم البعض بمثل هذا الانتظام. وبالفعل انتهى هذا الفصل. بالطبع هو لم ينته. والاختلاف الآن يكمن في أن الكارثة في نظر الغريب عن المنطقة من نوعية ناشزة فالأمر يبدو وكأن يوغوسلافيا قد تغيرت أكثر مما تغير اليوغسلافيون. فهذه المرة تنشب الحرب في بلد توقفت عن أن تكون إحدى «الأراضي السيئة» في أوروبا لعقود مضت. إنها مجزرة تدور في بلد سياحي سواء في المدن الفينيسية على ساحل دالماتيا أو منتجعات التزلج أو ضواحي سراييفو أو كرمات غرب الهرسك حول موستار.

على جبل ياهورينا فوق العاصمة البوسنية تربض استحكامات مدافع صرب البوسنة في ظل بوابات مصاعد التزلج المدمرة وعلى طول مدارج الزلاجات العملاقة للألعاب الأولمبية التي استضافتها سراييفوا عام ١٩٨٤ كان ضباط جيش صرب البوسنة يقضون ساعات الراحة في مطعم سياحي على طراز شاليه يلعبون الشطرنج ويشربون في غرف مزينة الآن باللافتات الدعائية ـ خارطة أوروبا مغطاة بالصبغ الأخضر «الإسلامي»، وصورة لمصافحة بين رجل يلبس في كمه حلقة مزينة برقعة المربعات الكرواتية وآخر يلبس سواستيكا وهي أمثلة نمطية للهيئة. وفي كل أنحاء البوسنة، عبر أرض المعركة التي انتشرت فيها القمامة وفي وسط المنازل التي هدمتها القنابل والسيارات المهترئة والأرض المحروقة والحيوانات النافقة، يرى المرء لافتات

كتبت عليها «مكتب تبـديل العملة» و«المنطقة الحرة» و«الأوبرج السيـاحي» و«المنظر الخلاب».

برغم كل ما حدث منذ بدء القتال لا يـزال يوجد في الحياة اليومية وكذلك في هذا الحطام ما يذكر بيوغسلافيا السياحية القديمة التي جذبت ملايين الزوار كل عام قبل سنة ١٩٩٠ . على أن المحرك هو أميل، وفي الوقت الحاضر إلى الشرعية السياسية منه إلى المكسب، حتى في «مكتب تحويل العملة» الذي كان يعمل أحيانا في بعض المدن المدمـرة. فتحويل العملـة ليس لـه معنى عملي. فالعمـلات في أيدي المحـاربين في البوسنة ليست لها قيمة حقيقية و إذا أراد أي شخص شراء شيء ذي قيمة من البيرة إلى البنزين يلـزمه دولارات أو الأفضل مارك ألماني ـــ العملة العالمية الجديـدة في البلقان. أمـا في المدن والقرى حيث تنـدر الكهربـاء والمياه الجاريـة فمازال من الممكن غالبـاً، وأحيانـاً كمطلب من السلطـات المحلية، أن يقوم الـزوار بتبديل العمـلات. وليس مهما أن مثل تلك الرحلات إلى البنك ليست ذا فائدة عمليـة، فهذا موضوع جانبي. فالرسالة تعني «أنك في جمهوريـة صرب كرايينا» أو «جمهورية صرب البوسنة» أو أنك (حتى أوائل ١٩٩٤، عنـدما أوقفت الحكـومة البـوسنيـة وميليشيا كـروات البوسنـة القتال بينهما وقبلـوا بالوسـاطة الأمريكية بإقـامة اتحاد فيدرالي) في «دولـة الكروات في البوسنة غـرب الهرسك». إنها نفس الرسالة التي تجعل أصحـاب الفنادق يطلبوا من الصحفيين تعبئـة نماذج التسجيل المسهبـة التي كـانت تستخـدم قبل الحرب (وكأن السلطات المحليـة لا تعلم بمن دخل مدنهم) أو تجعل محاربي كـروات البوسنـة عند نقاط التفتيش في وسط البوسنة والذين لم يستحموا أو يحلقوا لمدة أسبوع يلبسون أربطة ذراع بيضاء نظيفة عليها الرموز المعدنية اللامعة التي تدل على أنهم موظفب الجمارك، أو تجعل صرب البوسنة يجددون نقاط التفتيش التي أقـاموها بين المطار الموضوع تحت إشراف الأمم المتحدة ومدينة سراييفو البوسنيـة «كمعابر حدود» ويطلبون، إذا شاءوا التشدد، أن يعرفوا ما إذا كان لدى الصحفيين تأشيرات أو يغادروا «جمهورية البوسنة والهرسك» ويظهرون سخطا حقيقيا وليس مصطنعا إذا كانت الإجابة بالنفي.

كانت سيطـرة الصرب قد اكتملت مبكرا في معظم بـوسانسكا كرايينـا وتجسدت مـؤسسيا في معظم المنـاطق في أواخر صيف ١٩٩٢ . وقبل بداية القتـال كانت بـانيا

لوكا، المدينة الـرئيسية في المنطقة وثاني أكبر مدن البوسنة، مركـزاً للتجارة والصناعات الخفيفة كما كانت السوق الزراعية الرئيسية في المنطقة. وبتجهيزاتها الوافرة من الفنادق المريحة والكنائس والمسـاجد الجميلـة كانـت مكانـا بورجـوازيا ممتعـا دن أن يكون لها الجاذبية السياحية لموستار ولا الجو العمالي لمراكز الصناعة الثقيلة مثل زينيكا أو توزلا.
ولقـد اعترف بعض الناس في بـانيالـوكا بـأن مدينتهم كـانت راضية عن نفسهـا قبل الأحداث، ولكنهم أكدوا ـ وبفخر رغم كل ما حدث ـ أنه نفس النوع من الرضا عن النفس السـائد في كثير من مدن الأقاليـم الأوروبية. قال لي مسلم مـن الأعيان ذات مساء، وهو يتوقف كثيرا لينظر بعصبية تجاه باب شقته أو ليخفض عينه عندما ينطلق صوت طلقـات الكلاشينكوف على مقـربة كما يحدث غالبا في بـانيا لوكـا: «كنا مثل الناس في برجـامو أوبريستول. فأنـا لا أعرف المدن المماثلة في أمريكـا» واستمر يقول وهو ينظـر إلى كسوة مطـرزة على الحائط «كنا قلقين على أبنـائنا الـذين يستمعون كثيرا للـروك آندرول ويفقـدون «قيمهم» بسبب امتيـازاتهم المادية. كنـا قلقين ألا يدرسـو الأبجديـة بما يكفي وأنهم يمضون وقتـا طويـلا في «نيويـورك»، وهو حمام سبـاحة في المدينة، وتظاهرنا بأنهم لا يتعاطون المخدرات. وأحيانا كنا نكتئب من المستقبل الذي سيواجهونه. لكننا لم نقلق في الواقع على أنفسنا. كانت همومنا في طريقها لأن تصبح شخصية ـ الطلاق والشيخوخة والموت. لكننا لم نكن نعتقد أن مجتمعنا قابل للزوال. فتلك السنوات عنـدما كان كل شيء قاس ــ الحرب العالمية الثانيـة، والرعب من أن يستولي مناصرو الحزب على السلطة ــ ظننا أنها ولت إلى الأبد. إنني حتى لم أقلق على شيخوختي. كان كل ما يقلقني هو هل سأستطيع تحمل نفقات الذهاب إلى الساحل أو إذا كنت سأستطيع شراء قطعـة فنيـة كنـت أشتهى اقتنـاءهـا ولم آخـذ السيـاسـة بجدية. كان الناس يصيحون ويصرخون ولكني لم أتصور مطلقاً أن أحدا منا سيكون غبيا لـدرجة أن يدمر مـاكان لنا في يـوغوسلافيـا أياً كان دافعه. لم أفكـر مطلقا أنهم سيكونون من الغباء بحيث. . . !» وهنا خفت صوته وسكت.

وفي وقت لاحق حـدثني بإسهـاب عن مسرح العرائس الطليعي في بـانيـا لوكـا: «كان الناس يجيئون من كل أوروبا ليشاهـدوا العروض، مارسيل مارسو ومسرح يارما التجريبي وسكوبـولين برلين. وكان زياد صديقي هـو المخرج وهو مسلم مثلي ولكن

رفقته كـانت مختلطة تماما ـ صرب وكـروات ومسلمين وشاب نصف يهودي، ولم يكن هناك غـرابة في ذلك. كان الأمـر طبيعيا فقـد كنا جميعا مختلطين على أي حـال. فقد تزوجت إبنتي من كـرواتي ـ وهما في زغـرب مع والديه والحمـد لله. يقولـون إن شعبنا كان منقسما إلى أعداد متساويـة من الصرب والمسلمين ومجموعة من الكروات، ولكن معدل التزاوج بيننا كـان مرتفعاً لدرجة أنني أعتقـد أن هذه الفوارق ستكون غير ذات معنى بعد جيلين لأي شخص باستثناء قليل من عجائز المتعصبين وبعض الريفيين» ثم توقف: «لكـن ذلك لن يحدث مطلقا الآن. فإذا قدر لنـا أن نعيش فسنعيش كل في حيه الخاص ـــ الصرب هنا، والمسلمـون هناك، والكـروات في مكان آخـر. يقول كارادزتش إننـا مثل القطط والكلاب، ولكننا لسنـا حيوانات، إننـا آدميون. أو على الأقل آمل أن نكون كـذلك. فأحيانـا لا أكون متأكـدا من ذلك. أحيانـا أظن أن ما يجري الآن هـو الحقيقة الإنسـانية وأن الغـرابة كمنت في كيفيـة معيشتنا قبل أن يبـدأ هذا. ربما أن كارادزتش عبقري أو على أقل تقديـر على صواب. هل تعلم ما حدث لمسرح زياد؟ حسنـا، قبل الحرب كـان لزياد، وهـو برغم كـلامه الـلاذع، شخص عـاطفي، تابع وهـو ممثل صربي شـاب. كان المسرح جمعيـة تعاونيـة ولم يكن بعض الممثلين يـريدون انضمامـه ولكن زيـاد أصر. وكـان الشـاب لطيفا. وعلى أي حـال فعندما بـدأت الحرب اختفى لأيام قليلة ثم عـاد إلى المسرح، وفي هذه المرة بمسدس في حزامه وفي ـ يده ورقة رسمية. كانت الورقـة تخوله أن يصبح مديراً لمسرح بانيالوكا للعرائس، يمكنك أن تخمن البقية. كان زياد أول من فصلوا».

لقد حلت الحرب ببـانيالوكا فجأة واستـولت قوات حرب البوسنـة بقيادة الجنرال راتكوميـلاديتش على المدينة في أبـريل ١٩٩٢ تقـريبا بـدون رصاصـة واحدة. كـان ميلاديتش نفسه صربي بوسني بالمولد وطوال الفترة الأكبر من عمله العسكري لم يظهر أي حماس قومي خاص. قال لي محام من بلغراد يعرفه جيدا: «كان ميلاديتش ضابطا عاديا قبل الحرب وكـانت القومية تكبت في الجيش الوطني اليوغسلافي وكـان ضباطه مرتبطين بـالنظام وبالدفـاع عن يوغسلافيـا ونظام الإدارة الذاتية الاقتصـادي، كلام فارغ! لا أعتقد أن ميلاديتش كان قوميا أيام تيتو». ومع ذلك فقد أشار أناس آخرون يعرفون ميلاديتـش كما أشار هو نفسه إلى موت أبيه وأمه على يـد الفاشست الكروات

أثناء الحرب العالميـة الثانية . فإذا لم يكن قوميـا قبل ذلك فذلك بسبب ولائه للجيش القومي اليوغسلافي ولفكرة يوغوسلافيـا التي أقسم هو وزملاءه على الدفاع عنها . أما وقد تهاوت الدولة فقد استحوذت عليه القومية الصربية وسرعان ما أصبح ميلاديتش أحد أشرس مؤيديها .

وخلافا لميلاديتش فلا يعرف على وجه التحديد ما إذا كان سلوبودان ميلوسيفتش نفسه قـوميا في الحقيقـة أم مجرد سياسي بـراجماتي وجامـد المشاعـر اعتقد منـذ أواخر الثمانينيات أنه لكي يستمر في السلطة عليه أن يلعب على أوتار القومية الصربية . أما الأمر المؤكد فهو أنـه بعدأن قرر أنه طالما لن تكون هناك يـوغسلافيا فلتكن هناك إذن صربيا الكبرى ، وجد أداته النموذجية عندمـا تخطى العديد من الضباط الأعلى مرتبة ذوي رتب أعلى في الجيش القومي اليوغسـلافي (كان معظم الضباط من الصرب لكن لم يفرغ من غير الصربيين حتى عام١٩٩٢) وطلب من ميـلاديتش تولي قيادة الجيش القومي اليـوغسلافي الموحد وقـوات الانفصاليين الصرب في كنين وهي على بعـد مائة وخمسين كيلومتراً إلى الجنوب الغـربي ، خلال الحرب الصربية الكرواتيـة عام١٩٩١ . وقد نجحت تماما في تحقيق أهدافها تلك الحرب التي شنها ميلاديتش في كرواتيا والتي كان الهدف منها رسم حدود صربية عرقيـة صرفة على أشلاء الدولة الكرواتية . وحين تم ترتيب وقف لاطلاق النار بوساطـة الأمم المتحدة ، كان قد تم لميلاديتش ما أراد . كما كـان قـد تـوفـر لـديـه نمـوذج للحـرب التي سيتـولاهـا في البـوسنـة في أواخـر ربيع١٩٩٢ .

وكـان من المنطقي أن يكون شمال البـوسنة إحـدى النقاط الأسـاسية لعمليـات ميلاديتـش . فجميع أراضي البوسنـة والهرسك كانت مـركزا عسكـريا وصناعيـا قبل الحرب ، فقـد كانت كل من كـرواتيا وصربيـا قـريبة جـدا من الحدود مع دول حلف وارسو . ولخوف تيتو مـن غزو روسي والذي لازمه حتى النهـاية ، فقد قرر أنـه في حالة قيام الروس بالغـزو فعلى قوات يوغوسلافيا الانسحاب إلى جبال البـوسنة ولذلك فقد كـدس الأسلحة وأقـام القـواعـد هناك . فكـان أكبرهـا مجمع القـواعـد العسكريـة والمطارات تحت الأرض ــ يقال إنها من أكبر وأحـدث التجهيزات في أوروبـا ـ وذلك قرب مـدينة بيهـاتش في الشمال الغربي . ولكن بيهـاتش كانت في منطقـة ، أكثر من

تسعين بالمائة من سكـانها من المسلمين. ومن ثم فعندما اتضح أن القتال في البـوسنة كان على وشك الحدوث بـدأ الجيش القومي اليـوغسلافي في نقل معظم المعـدات من بيهاتش إلى بانيالوكا (بعضها أرسل إلى قاعدة جوية في كنين) وحطموا ما لم يستطيعوا نقله. وحين بـدأ القتال في البـوسنة جـديا كـان المفهوم العسكـري السليم أن تصبح بانيـالوكـا أحد مناطق الهجـوم الرئيسية لميـلاديتش، وهي مركـز قوة الصرب في شمال البوسنة. واستتبع ذلك أيضا أن يصبح شمال البوسنة، المقسوم بالتساوي بين الصرب والمسلمين والذي يتاخم المنـاطق الصربية من كرايينا الكـرواتية، أصلح أرض لحملة التطهير العرقي الذي بدأته قوات صرب البوسنـة منذ اللحظة التي غادر فيها رادوفان كارادزتش سراييفـو إلى بالي، عاصمـة الصرب الإقليمية، والوعيد بـالحرب والانتقام الصربي مازال على شفتيه. كانت بيهاتش شـديدة التمسك بالاسلام بحيث يصعب صربنتها على الأقل في البدايـة. أما بانيالوكـا المعزولة عن أي إمكانيـة للمساعدة من الحكومة الكرواتية أو البوسنية فكانت مثالية.

بعـد قليل من إستيـلاء الصرب على بانيـالـوكـا، قامت السلطـات المدنيـة التي وضعوها لإدارة شؤون المدينة بإنشاء «لجنة أزمات». كانت تقوم بأعمال يومية روتينية ـ فأنت تحتـاج إلى مهندس ميـاه وفنيين في مصانع الغـاز للقيام بـوظائفهم أيـاً كان مـا بذهنك من أجل مواطنيك ـ ولكنها أصدرت كذلك سلسلة من القوانين التي منعت حق الاقتراع عن غير الصرب في المدينـة. لا تتشابـه إبـادتان جماعيتـان، وقد يكـون الجنرال ميلاديتش الذي كان في شبابه ضحية للفاشية، جزارا ولكنه ليس بهتلر. ومع ذلك فهناك عامل مشترك بين جميع الإبادات الجماعية، ومثل «الحل النهائي» فقد كان التطهير العرقي عمليـة بطيئة وملتزمة بـالقانون ومتعمدة نسبيـا، وتضيق الخناق دائما حـول العنق الجماعي للسكان، أكثـر منهـا حدثـا فـرديا فظيعـا. لقـد كان بإمكـان الجماعات شبه العسكـرية للصرب، مثل اليوستاشا والأنيسـانتزجروبن، قبل خمسين عاما، أن يقتلو الناس بسرعة في مهمة مسـائية في قرية منعزلة. أما في المدن الأكبر في شمال البـوسنة حيـث أدى الحضور المتقطع لقليل مـن الصحفيين والعاملين بقـوات الحمايـة الـدولية إلى صعـوبـة تغطيـة القتل الجماعي الذي يعـد لـه الصرب في ريف البوسنة، وكانت هناك مراحل كثيرة لابد من اجتيازها وكثير من الحواجز البيروقراطية

لابد من تجاوزها قبل أن تبدأ في الواقع إراقة دماء المسلمين.

ولقد لعب الطابع المتدرج للعملية على وتر مخاوف الشعب الصربي الذي يعيش تحت الأحكام العرفية ولا تعرض عليه سوى الأخبار التي يصدرها الإعلام الحكومي في صربيا والبوسنة. بينما كانت جميع شبكات البث التلفزيوني بالأقمار الصناعية مزدحمة جدا وبالطبع كانت الجرائد هي أول المؤسسات المعرضة للرقابة وغالبا لسيطرة جيش صرب البوسنة. وفي هذا الجو، فإن الصرب في شمال البوسنة، وكثير منهم كانوا وافدين جدد من كرواتيا حيث تم تطهيرهم عرقيا كذلك، إعتقدوا تماما أن جيرانهم المسلمين كانوا جميعا إرهابيين عازمين على تدمير الصرب. لم يكن الوضع وكأن المسلمين يقتلون في الشوارع، ليس غالبا على أي حال. وعندما يحدث ذلك، وقد حدث ذلك في بانيالوكاوفي بريدور وسانسكي موست، وهو ما كانت تعترف به السلطات بين وقت وآخر، كانت تصر السلطات على أن الجرائم كانت إما بفعل مثيري الشغب - وهي محاولة أخرى للعالم للتعتيم على سمعة الصرب الأبرياء - أو تم اقترافها من قبل «عناصر خارجة» سيتم تقديمهم للعدالة. ولم يكونوا كذلك مطلقا بالطبع حيث أن التمييز بين الصرب «الرسميين» وغير النظاميين كان بلا معنى في بانيالوكا كما في معظم الأجزاء التي احتلها الصرب في البوسنة طوال القتال. وعادة ما يكون الأمر ببساطة تقسيما للأدوار. فالصرب غير النظاميين والمسمون بالتشتنيك - وهم أعضاء في مجموعات بأسماء أقرب إلى عصابات الشوارع منها إلى جيش - النسور البيضاء والنمور (الاسم الحركي لقائدهم هو الجنرال مادزر) وما شابه ذلك - يقومون بالأعمال القذرة التي يطلبها مساعدو رادوفان كارادزيتش ولا يمكنهم الإقرار بها. ثم يدعى الصرب «الرسميون» أنهم يبذلون كل وسعهم لضبط الأمور في وقت عصيب.

أما الصرب العاديون من شمال البوسنة، والذين لم يكونوا مجرمين في ذاتهم، فلم يكونوا يريدون -وذلك لأمر مفهوم- الاعتقاد بأن قادتهم مجرمون. كان الصرب الذين فروا من كرواتيا أثناء القتال عام ١٩٩١ أو تم تطهيرهم عرقيا على يد القوات الكرواتية - قد يكون الصرب قد أتقنوا لعبة التطهير العرقي ولكن الكروات يحملون الذنب كذلك - كانوا في موقف مختلف. كانوا يفكرون في أنفسهم فقط كضحايا أيا بلغ عدد

المسلمين الذين كانوا ضحايا لهم أو كيفما كان المسلمين أبرياء مما حدث في كرواتيا عام١٩٩١ . وقد أتاحت اللغة المبهمة والمبتذلة للبيروقراطية الصربية للناس أن يتظاهروا أمام أنفسهم بأنه لم يجر تطهير عرقي في الواقع . كانت معسكرات الاعتقال - أومارسكا وترونوبولي وماناكا - على بعد كيلو مترات قليلة فقط ولكنها في أعماق الريف وبعيدة عن الأنظار، وتسمعهم يقولون : تحدث أمور سيئة في الحروب ، وفي الحروب الأهلية يكون الوضع أسوأ، وعلى أي حال فإن الصرب كانوا فقط يدافعون عن أنفسهم .

ولو كان التطهير قد بدأ في بانيا لوكا بمذبحة جماعية فربما تمرد الصرب المعتدلون . ولكن لم يحدث ذلك كما لم يحدث في ألمانيا النازية . ففي شمال البوسنة ، راحت معايش الناس أولا. فقد بدأت لجنة الأزمات في منع غير الصرب من العمل في وظائف مديرين في الشركات الكبيرة . وسرعان ما استبعد غير الصرب من جميع المراكز العليا التي تتطلب «قرارات مستقلة» كما تصفها السلطات . وعمليا فإن ذلك يعني أنه ليس فقط مديرو ورؤساء الشركات بل كذلك مسؤولي المحلات والمحاسبين وماسكي الدفاتر- أي شخص ، كما تشترط اللجنة ، يتعامل في المعاملات المالية- يتم طردهم أو خفضهم إلى أدنى المراكز في شركاتهم . وبذلك ، فإن غير الصرب في بانيالوكا الذين لم تتأثر مكتسباتهم بقرارات اللجنة كانوا من الذين لم يتعدى مستواهم مطلقا الوظائف الحقيرة في المكان الأول . وحتى الأطباء ، والذين كانت مهاراتهم مطلوبة بصفة منفصلة ، طردوا أخيرا من مناصبهم . وهكذا ، وفي سلسلة من الخطوات غير العنيفة قضت السلطات الصربية على مستقبل الطبقة المتوسطة من السكان المسلمين والكروات في مدينة كانت تطلعات الطبقة المتوسطة فيها هي المعيار أكثر فأكثربالنسبة لغالبية السكان .

كانت بعض المراسيم اللاحقة للجنة موجهة بصفة خاصة للبالغين الذكور من غير الصرب فيما يختص بالخدمة العسكرية . وهنا ، كذلك ، كانت الأهداف الحقيقية للسلطات تختفي تحت قناع من المساواة الإجرائية الظاهرية . فعندما اتضح أن مقاومة الحكومة البوسنية كانت أصعب في التغلب عليها مما ظن القادة الصرب في بادىء الأمر، بدأت السلطات في استكمال القوات التي بدأت بها الحرب من خلال سلسلة

تـدابير التعبئة لأفـراد معظمهـم من الجنود النظـاميين في الجيش القـومي اليوغسـلافي والذين، كما أصرت سلطات بلغراد برقة، لم يكونوا مستدعين بل متطوعين عن اقتناع قومـي بالخدمة في جيـش صرب البوسنة الجديـد «فقط للدفـاع عن أنفسهـم» كما ردد كارادزيتش مرارا.

كان كل رجل بين الثـامنة عشر والستين مؤهلا، وكثير من رجـال الصرب الذين تعدوا بكثير سن الجنـدية في أي جيش عـادي كانـوا سعداء بالمشـاركة في المعـركة من أجل صربيا الكبرى خـاصة وهم يتفـوقون في العتاد عن الجيش الـذي كانت تـرتجله الحكومة البوسنية. وكانوا في الغالب مشغولين ببث الرعب في المدنيين المسلمين العزل في القـرى. ولكن، ولأسبـاب واضحـة، كـان معظم الأفـراد المسلمين والكـروات مرعوبين من جرهم إلى جيش كارادزيتش. وكانت هناك وحدة مسلمة واحدة تقاتل إلى جانب القـوات الصربية حـول مدينـة بوسـانسكي برود في شمال البـوسنة، ولكن بغض النظـر عن ذلك الفيلق الملعـون، فقليل من غير الصربيين كـانـوا انتحـاريين بحيث يتقدمـوا للخدمة عنـد استدعائهم. وبذلك خـدمت التعبئة العامـة غرضين معا، زيـادة القوات المطلوبة لجيش كـانت نقطة ضعفه، خـلال القتال، النقص في الـرجـال وكـذلك منع حق الاقتراع عـن السكـان غير الصرب الأسرى في الـوقت نفسه.

كانـت نتائج رفض الخدمـة في ذلك الجيش الذي، في الـواقع، لم يرد مواطنا أيا منهم، وخيمة بصورة لا تصدق على غير الصرب في شمال البوسنة. فالذين لم يستعدوا اكتشفوا بعد أيام أن عدم تقدمهم كلفهم وظائفهم. قال لي عمدة بانيالوكا، في دعة متـوددة، في أكتـوبـر ١٩٩٢: «نحن في حـالـة حـرب. وعلى كـل مـواطن واجب القتال». ولكن المسؤولين الصرب الذيـن أجبروا على التحدث مع أغراب بشرط عدم النشر فقـد حاولـوا التظاهـر بأن الفصل لم يكن متعمدا. وعنـدما كلمني العمـدة لم يستطع أن يكبت ضحكته وهو يقول مع ابتسـامة خافتة: «أصر على أنك تصدقني. يستطيع كل الناس في بانيالوكا أن يعيشـوا معا فقط لو أن المسلمين توقفوا عن مهاجمة الشعب الصربي. إننا لا نـريد الحرب ولكن حيث إن الحرب فـرضت علينا فعلى كل شخص يدين بالولاء أن يتقدم للمساعدة. فإذا كان المسلمون يريدون أن يعيشوا معنا

فعليهم أن يثبتوا أنهم ذوي ولاء. وبدلا من ذلك فماذا يفعلون؟ إنهم يرفضون أن يكونوا إخوانا لنا. وإذا لم يحاربوا إلى جانبنا فلماذا يجب أن نعمل بجانبهم؟».

في واقع الأمر، كان هذا التوزيع الأوركسترالي مكتملا. ففي جزء من العالم لم يعرف عنه أبدا الكفاءة التيتونية، تكون إنذارات رفت الناس المتزامنة مع تواريخ أوراق التعبئة العامة لهم سرا مفضوحا. في مطعم فندق بوسنا الرئيسي في المدينة، قابلت محاربا صربيا شابا كان عائدا لتوه من خط القتال قرب مدينة بوسانسكا كروبا. كان هو وزملاؤه مخمورين بتأثير شراب «سيلفوفيتش» وكذلك مخمورين بفعل نجاح معركتهم. كانوا في منتهى لسعادة وهم يشرحون لي اللعبة. فقد قال المقاتل: «يسجل المسلمون في الجيش فنجعلهم يحفرون الخنادق فورا في الخط الأمامي. وهذا ضار بصحتهم»، وضحك وصب له أحد أصدقائه شرابا آخر. وأتذكر الآن التفكير الذي راودني ساعتها أنه رغم أننا في منطقة لا تتميز بحسن الرعاية الطبية للأسنان، كانت أسنانه جميلة، وأتذكر تساؤلي، كما حدث منذ ليال قليلة سابقة، ما إذا كانوا مع الزيادة في السكر سيبدأون في تهديدي أو يدعونني للعشاء أو كليهما، واستمر المحارب وهو يخبط على ظهري «ولكن إذا لم يأتوا إلى الجيش نعطي الوظائف التي سرقها أسلافهم الأتراك السفلة منا منذ أمد بعيد إلى صربيين أمناء هنا في بانيالكوا – تحولت الجلسة في النهاية إلى عشاء وصداقة، فقد كانوا شبابا محببين رغم أنني كنت أتمنى ألا يكون الأمر كذلك–، أجاب أصدقاؤه في جوقة «هذا صحيح».

انحنى المحارب نحوي عبر الطاولة وقال «كما تعلم، قبل الحرب العالمية الثانية كانت بانيالوكا مدينة صربية. ولو لم يرتكب الكثير من المذابح ولو لم يحاول المسلمون واليوستاشا إبادة الشعب الصربي في البوسنة لكنا الأغلبية هنا بدلا من أن ندافع دائما عن أنفسنا ضدهم كل خمسين سنة».

قاطعه رفيقه موجها كلامه لي: «لماذا تكرهون أنتم الأمريكان الشعب الصربي الآن؟ كنا حلفاء في حربين عالميتين نقاتل معا. فلماذا تساندون الفاشيين؛ هذا وضع سيء. يجب أن نكون أصدقاء» وتوقف ثم قال «يقول كثير من رفاقي إن أمريكا أصبحت بلدا سيئا. أنا لا أعتقد ذلك. إنني أعتقد أنكم لم تفهموا ما حدث هنا.

هل تعرف شيئـا عن معركة كـوسوفو عـام ١٣٨٩؟» لابد أنني كشرت لأنه هـز رأسه وأمسك بمعصمي وقـال «لا، في الحقيقة إنـه أمـر مهم . أنتم الأمـريكان لا تهتمـون بالتاريخ ولكن عليكم أن تهتموا . الصرب لـديهم التاريخ فقط . فلخمسمائة عام كنا نحن الصرب ندافع عن الحضارة الغربية ضد الأتراك وقد فعل فوك كارادزيتش ذلك في القرن التاسع عشر ويفعل ذلك الآن قائدنـا رادوفان كارادزيتش . إننا جميعا نفعل ذلك، جميعنا! ومع ذلك تجعلون منا العـدو وهذا خطأ» . وترك معصمي وربت على ظهري بلطف ثم . قـال «الأمر لا يهم : دعنا لا نضيع الوقت في الكـلام عن الأتراك الملاعين فإننا سنتشاجر . دعنا نطلب شرابا آخر» .

والتفت مشيرا للمضيفة . ثم قـال من فوق كتفـه : «ولكني أقول لك بعـد كل ما رأيت إنني لا أظن أن الأمر سيكون فظيعا إذا فقد أحدهم وظيفته» .

لم يقل المقاتلون شيئـا آخر عن «الأتراك» ولا عن الذين كـانوا يحاربونهم على خط النـار قـرب بـوسـانسكي ولا عن أولئك الأشخـاص الـذين كنت أسألهم عنهم في بانيالوكا . وكان المقاتل على حق بشكل ما . فـالحياة بالنسبة للمسلمين في بانيالوكا لم تكن بالسوء نفسه الذي عاشوه في القرى أو في مناطق القتال . على أننا حتى لو نحينا جانبـا حقيقة أن حرمـان الناس من وظائفهـم كان فقط خطوة في سلسلـة من تدابير التطهير العرقي الذي أدى في النهاية إلى القتل ، فإن خسارة العمل كانت أخطر بكثير مما بـدت للنظرة الأولى . إنها لم تكن ببسـاطة مسألـة فقدان الشخص لـوظيفته ، كما يمكن أن يحدث في دولة أوروبيـة غربيـة ، في مكان ووقت يصعب فيـه الحصول على عمل . ففي الغرب يغير الناس وظائفهم طوال الـوقت ولكن في يوغسلافيا السابقة ، فإن منظمي المشروعـات والمهنيين فقط الـذين هم الـذين كـانـوا يتحركـون في سـوق الوظائف بحريـة . وقد تغير هذا بالطبع حين أصبحت يوغسلافيـا أقل شيوعية حتى بهذا المعنى المؤسسي . ولكن معظم الناس مازالوا يتوقعون العمل في المكان نفسه مدى الحياة وتعـودوا على النظر إلي مكان العمل من أجـل المنافع المصاحبـة . والطرد يعني خسارة مـاهو أكثر بكثير من شيك الراتب . فقـد كانت النقود تفقد قيمتهـا كل يوم على أي حال كلما استمرت الحرب ، بعد أن أصبح كـل شيء يباع بالمارك عدا الجرائد والمواد الغذائية الأسـاسية ، أما ما لا غنى عنه مطلقا فهـو التأمين الصحي وخدمات

الدولة الأخرى التي ترفع فورا عندما يفصل الشخص من عمله.

بل إن الناس أصبحوا غير آمنين حتى في بيوتهم حيث إن كثيرا منهم حصلوا على شققهم من خلال اتحاداتهم أو منظماتهم المهنية التي كانت مالكة لها فنيا. وفي صربيا نفسها كان خوف الناس من أن يفصلوا (في مقارنة بأن يتم تسريحهم مؤقتا أو يحرموا من الأجر وهو ما لم يكن يهم كثيرا في عصر زيادة التضخم والندرة) من مشروع حكومة أو يفقدوا شقة يملكها ذلك المشروع هو أحد الوسائل التي يجبر بها نظام ميلوسيفيش الناس على القبول: الأجدر أن تساند النظام من أن تجد نفسك مشردا في الشارع. وفي بانيالوكا أعطى إرث عصر تيتو السلطات الصربية الدفعة التالية في عملية التطهير العرقي للسكان غير الصرب الحضريين. وكان الفصل نفسه هو المقدمة. ففجأة يعلن طرد الشخص رسميا وتكون الخطوة التالية إرسال خطاب بإخلاء الشقة التي كان يعيش فيها.

وبذلك يكون الحرمان من الوظيفة مثل الحرمان من المواطنة، ومثل أن تنتقل بالقوة من وضع غير الصربي إلى وضع غير البشر فقط بقرارين رسميين. وقد تصادف هذا الطرد من مراكز التشغيل مع ارتفاع أهمية مراكز العمل في السياق الأساسي الذي يحصل فيه الناس على لوازمهم المتزايدة الندرة. فمع نضوب إمدادات الدواء مثلا، حلت الصيدليات في مراكز العمل محل تلك التي كانت تعمل في المدن. كما أن مراكز العمل كانت توجد حيث تتوافر حصص الوقود، رغم أن ذلك أصبح أقل أهمية مع استمرار الحرب حيث أصبح الوقود يشترى تقريبا بالعملة الصعبة في السوق السوداء. ويستطيع الناس شراء الأشياء الأخرى التي تلزمهم بالعملة الصعبة، في السوق السوداء طبعا، ولكن قبل وقت طويل استنفدت معظم العائلات المسلمة والكرواتية مدخراتهم بالمارك وكان ذلك أيضا لصالح اللوردات الصرب الجدد في بانيالوكا حيث إن غير الصرب كانوا في الواقع، يحولون ما يملكون من العملة الصعبة إلى تجار السوق السوداء الصرب. كذلك كان من غير المستغرب، حيث إن البندقية والسوق السوداء يعملان معا وقت الحرب، أن يتجه هؤلاء الناس لا إلى أن يكونوا مجرمين عاديين وراء عملية سريعة بل مجرمين في الزي الحربي، أعضاء في المجموعات شبه العسكرية، التشتنيك، الأكثر تطرفا ودموية. ومن سخرية الأقدار، أن كثيرا

من المقاتلين أنفسهم الذين يعبّون الخمر في فندق بوسنا ثم ينطلقون في شوارع بانيالوكا ويقذفون القنابل اليدوية على نوافذ بيوت المسلمين هم أنفسهم الذين اضطر المسلمون لأن يدفعوا لهم للحصول على ما يقيم أودهم. ولكن هنا أيضا أتى على خاطري بشكل لا إرادي مقارنة مع كارثة اليهود، فقد كان المسلمون يدفعون لمعذبيهم ولكن ألم يكن يهود هولندا وفرنسا يدفعون للألمان أجور القطارات إلى أوسكوفتز؟

لم تقدم الجهود المتكررة للجنة العليا للاجئين في زغرب لتنظيم قوافل الإغاثة الإنسانية إلى بانيالوكا، سوى القليل، من الناحية المادية في تحسين وضع غير الصرب. فعندما أصبحوا بشكل عام على وعي بما يدور في المدينة، نجح مسؤولو اللجنة العليا للإغاثة UNHCR في حث السلطات الصربية بعد مفاوضات طويلة على السماح بدخول عدد من القوافل كل أسبوع. بالطبع، كانت الفكرة هي مد يد المساعدة لمن كانوا يعرفون لدى الإنسانية البيروقراطية «بالسكان في المحنة» أو بعبارة أخرى، إلى القسم الأكبر من غير الصرب في بوستانسكا كرايينا. ولكن كانت السلطات الصربية هي سيدة الموقف هنا أيضا. فمع الموافقة على طلب اللجنة العليا للإغاثة فقد أرفقوا شرطا وهو أن ينال السكان الصرب نصيبا يساوي نصيب المسلمين والكراوت. كان هذا هو النمط الغالب في أنحاء البوسنة وهو أن يرفض الصرب بادىء الأمر السماح بمرور المساعدة ثم يطلبون أن يحصلوا على نصيب وترفض الأمم المتحدة بادىء الأمر في إصرار على أن يكون التوزيع على أساس الحاجة ثم يكسبون الوقت، ثم في غالب الأحيان يواجهون الاختيار بين مرور بعض المساعدة أو ألا تدخل المساعدة ثم يرضخون لمطالب الصرب.

كانت سياسة لجنة الإغاثة دفاعية تماما لأن الصرب كانوا يسيطرون على الطرق وإما أن تصل المساعدات على أساس شروطهم أو لا تصل على الإطلاق. كانت المشكلة تكمن في أن هذا الاتفاق يكون نافذ المفعول عندما تعبر القوافل المناطق التي يسيطر عليها الصرب حتي تصل إلى المناطق التي تسيطر عليها قوات الحكومة البوسنية - كان الصرب يأخذون حصتهم وإذا حالف الحظ يسمحون للقوافل بالتحرك - ولكن بانيولوكا كانت مختلفة. فهناك كان الصرب يسيطرون على حصص

الكل، صربيين وغير صربيين. كانت قوات الصرب شبه العسكرية تحرس البوابة ومحيط المخزن حيث تذهب القوافل للتفريغ عند وصولها إلى بانيولوكا. وكان نفس بيروقراطيي صرب البوسنة من مكتب العمدة والصليب الأحمر الصرب، والذين اخترعوا فكرة إبطال حق اقتراع غير الصرب في بانيالوكا، هم أنفسهم الذين يشرفون على توزيع إمدادات لجنة الإغاثة UNHCR بعد أن يدور السائقون الدنماركيون المتطوعون بشاحناتهم المرسيدس البيضاء بحرف UNHCR وهي شعار الأمم المتحدة وكلمات «المساعدة الإنسانية» المطبوعة باللون الأزرق على أبواب الشاحنات ويعودون أدراجهم شمالا عبر بوسانسكا كرايينا نحو سافا وكرواتيا.

وإذا كان هناك القليل القليل الذي تستطيع لجنة الإغاثة UNHCR أن تفعله لإسعاف، وليس إنقاذ المسلمين والكروات في بانيالوكا -كانت هناك فترة في أواخر ١٩٩٢ وأوائل ١٩٩٣ عندما حجزت المساعدات عن المدينة كلية- فقد بدأ غير الصرب أنفسهم ييأسون بالفعل من وضعهم في المدينة في خريف ١٩٩٢، بعد مضي نصف سنة فقط من القتال. فمن دون وظائف أو مستقبل، كانت حياتهم عبارة عن جولة بحثا عن، ومقايضة، ضروراتهم اليومية، و الإذلال المنتظم على يد سلطات بانيالوكا والعنف على يد المليشيات الصربية، وفي التحدث في الأمسيات عما إذا كانوا يحاولون دفع رشاوي للخروج من بوسانسكا كرايينا ودخول كرواتيا. كانت الرسوم التي تتقاضاها المليشيات الصربية تصل إلى ألف مارك؛، ولكن بالنسبة لمعظمهم كان ذلك أمرا غير مأمون على أي حال، حيث كان الكروات لا يرحبون باستقبال مزيد من اللاجئين من مسلمي البوسنة (كان يسمح للأفراد الكروات إذا استطاعوا الخروج من كرايينا). وقد قام الأعيان والقادة المسلمون لما كان قبل بدء القتال الفرع المحلي للحزب الحاكم في سراييفو بمحاولة التفاوض مع السلطات الصربية، ولكنهم قاموا بذلك من مركز الضعف المهين، ومع مرور الشهور نجح القليلون في الهرب وقتل الكثيرون ولم تثبت أية مسؤولية عن الوفيات. وكان صديقي الذي سبق الحديث عنه أحد الأعيان الذي «اختفوا». كان حيا في أكتوبر ١٩٩٢. وعندما عدت إلى بانيالوكا في فبراير ١٩٩٣ لم يكن موجودا في أي مكان واحتلت عائلة صربية شقته وادعوا أنهم لم يسمعوا به مطلقا.

ليست الحروب أقل تعقيدا من الأفراد. ففي بانيالوكا تصرف كثير من الصرب بولاء وأمانة نحو أصدقائهم المسلمين والكروات. فقليلون فقط من غير الصرب المطرودين من وظائفهم في بانيالوكا نجحوا في الحصول على عمل أدنى ومن حصل على عمل كهذا إنما كان يدين به للمناصب الجيدة للأصدقاء من الصرب. ولكن حتى تلك الوظائف يمكن أن تكون خطرة. فالآن تعمل سيدة مسلمة كانت طبيبة قبل الحرب في بيع ملابس الرجال. قالت إنه رغم أن مالك المحل الصربي ربما لم يكن يتوقع أن تأتي إلى العمل وإنما استأجرها فقط لكي تحصل على بعض المال وعلى الرعاية الصحية، فقد أخذت عملها بجدية. كانت تقوم بواجب الجلوس خلف طاولة العرض كل يوم مرتدية ملابس وضعها السابق في الحياة. وذات صباح دخل المحل صربي من الميليشيات وعلى كتفه بندقية وصوب سلاحه نحوها وأشار إلى قميص في شباك العرض وقال: «أريد ذلك القميص ولن أدفع ثمنه». ودون اعتراض قامت وأحضرت القميص وناولته إياه فوضعه رجل الميليشيا على كتفه وخفض السلاح. وقبل أن يغادر رمقها من أعلاها لأسفلها وفهم مركزها رغم التنورة الرثة والسترة والبلوزة وقال في نبرة مجلجلة راضية «إنني لم آخذ حماما منذ خمسين يوما».

تلك حادثة تافهة بمقاييس بانيالوكا بما أن المرأة لم تقتل أو تصب بسوء، رغم أنها بكت بصوت خافت، خلف نظارتها السوداء، وهي تحكي لي القصة. حتى في وضح النهار ومن الإنشاءات السكنية الحديثة على أطراف المدينة وحتى قاعة احتفالات المدينة في الميدان الرئيسي -التي كانت يوما مكتبا للملازم اسمه كورت فالدهايم، الناشط في التطهير العرقي في زمنه- كانت بانيالوكا مكانا كئيبا ومخيفا. وفي الليل تكون المدينة مرعبة. فلا يسمح ظلام البلقان فقط بتصفية العشرات بل بانفلات الأعصاب بلا سبب محدد، ويأخذ التنكيل غير السياسي حقه كذلك. إنني لم أقض ليلة أبدا في بانيالوكا دون أن أسمع طلقات البنادق وصوت الصيحات والزجاج المتهشم. ولكن عندما أنزل من غرفتي في فندق بوسنا فإني لا أستطيع أبدا أن أحصل على إجابة مباشرة من أي شخص عما حدث. إذ يخرس موظفو الفندق، ويتكلف المسلحون الابتسام وهم يحتسون شرابا مبكرا أو ينتهون من الإفطار. ومرة

نظر أحدهم إلى أعلى تاركا طبق البيض وقال «إنكم تسألون أسئلة كثيرة أيها الصحفيون الأجانب».

وفي أحيان كثيرة يستحيل تغطية ما حدث في الليلة السابقة. ففي أواخر سبتمبر ١٩٩٢ فقد فندق البوسنا معظم واجهته الأمامية وكذلك منطقة الاستقبال الرخامية من يوم لآخر. حدث هذا قبل أقل من أسبوع من سفر سايروس فانس وديفيد أوين إلى بانيالوكا للمرة الأولى وعقدهما أحد اجتماعاتهم مع كارادزيتش. وقد أوضح بعض الناس، ومعظمهم في الزي العسكري، أنه حدث هجوم على الفندق بهدف منع المفاوضين من الحضور إلى بانيالوكا وقالوا إنه من فعل المجاهدين المسلمين. (كانت الإشارة إلى جنود الحكومة البوسنية وكأنهم ناسفو الشاحنات الشيعة مسألة شائعة بين صرب البوسنة مثل الإشارة إليهم كجنود أتراك أو «انكشارية») بينما همس الآخرون، وهم عادة مسلمون أو كروات، بأن الهجوم كان استفزازا صربيا بقصد إثارة جولة جديدة من العنف الانتقامي ضد غير الصربيين.

بعد أيام قليلة صادفت أحد جنود صرب البوسنة ممن كنت قد قضيت معهم أمسية في الشراب قبل ذلك بأيام قليلة. ابتسم بحزن وهز رأسه قائلا: «إنها ليلة رهيبة يارجل» واتضح أن ماحدث في الواقع هو أن أحد أفراد الميليشيا الصربية كان يحتسي الخمر في فندق بوسنا. وفجأة وقف ونزع مسمار الأمان من قنبلتين ورش المكان بسلاح AK- 47. قال الجندي «لا أعلم لماذا أصيب بالجنون. المجنون ابن الزنا» كان قد قتل ثلاثة أفراد وجرح كثيرون غيرهم - خضبت دماؤهم الرخام البني الرخيص لمدة أسبوع قبل أن تستطيع عاملة النظافة أن تزيل آخر آثارها- قبل أن ينجح أفراد ميليشيا آخرون أقل سكراً منه بقليل فقط، في سحب أسلحتهم وإردائه قتيلا. قال الجندي: «الأفضل لي أن أعود إلى الخط الأول. فعلى الأقل تعرف هناك من أين يأتي الرصاص. في تلك الليلة كانوا يصوبون من جميع الاتجاهات. لقد ظننت أنني سأصاب بالتأكيد عند تقاطع النيران»!

بالنسبة لغير الصرب، بالطبع، كانت بانيالوكا هي الخط الأول منذ بدأ جيش صرب البوسنة في عربدته. كان معظمهم تقريبا في حداد على فرد من الأسرة قتل أو «اختفى» وكانوا مصدومين، كما كان الناس ومازالوا مصدومين في كل البوسنة، من

الطريقة التي انقلبت بها حياتهم رأسا على عقب. ولكن في بانيالوكا، حيث عزاء المقاومة غير متاح وحيث انعدم حتى تدفق الأدرينالين بفعل الخوف الذي كان يساعد أهل سراييفو على البقاء خلال الحصار يعطي غير الصرب الانطباع بأنهم في حداد على أنفسهم وهم يستعرضون موتتهم وهم في حالة من الدهشة المنعزلة المتأملة. قال لي ذلك الرجل من الأعيان في نهاية آخر أمسية أمضيتها معه: «إنني أحيانا أفكر فيها إذا كنت سأموت بطلقة أو أذبح في معسكر أو أموت بصورة غير متوقعة. إنني متأكد أن قرار موتي قد صدر. فلي صديق صربي كنت أذهب معه للمدرسة -إنه شخص لطيف وستحبه- في مكتب العمدة. وقد أخبرني أنني على قائمة أعضاء حزب SDA المخطط لقتلهم. لقد قال لي إنه رآها».

وجدتني مصرا على أن الأمور ستتحسن رغم أنها كانت بالتأكيد تبدو كئيبة في الوقت الحاضر. فقد تنجح قوات الحماية الدولية أخيرا في نشر الكتيبة الكندية التي ظلوا يحاولون إدخالها إلى بانيالوكا لمراقبة الأوضاع في المنطقة. وقد تقدم اللجنة العليا للاجئين يد المساعدة. فقد قيل إن روبين زيبرت الرئيسة الأمريكية الجديدة للمكتب جيدة جدا. وقد كانت عاملة في المساعدات في أمريكا الوسطى، وهي شجاعة جدا ومخلصة جدا. كانت تعرف أن مهمتها حماية الناس من أمثاله أيا كان ما يفعله موظفو الإغاثة. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان العاملون في الإغاثة يحاولون أن يعطوا الأولوية لبانيالوكا ولهذا السبب فقد ضغطوا على فانس وأوين للحضور إلى بانيالوكا: كرسالة إلى كارادزيتش وميلاديتش بأن أنظار العالم تتجه الآن إلى مايجري، ولكي يدقوا ناقوس الإنذار حول التطهير العرقي.

بالطبع، الشيء الوحيد الذي كان يجري ويجري هو أنا، فقد كنت أتكلم بالهراء الكامل وكنت أنا والرجل المرموق نعرف ذلك. كانت الحقيقة هي أنني سأغادر بانيالوكا بعد أيام قليلة وأن هذا الرجل المرموق سيقتل. وسواء حدث موته بعد أيام قليلة أو أسابيع قليلة أو شهور قليلة فهذا خارج الموضوع. والواقع أن حقيقة أنه استطاع أن يتفوه بذلك لا تجعل منه بطلا ولكن ربما كانت هي الطريقة الوحيدة الباقية أمامه ليكون رجلا حرا. وقد أظهر زميله، د. محرم كريزيتشو والذي كان الطبيب البيطري الأول في بانيالوكا وأصبح الآن الرئيس الإقليمي لحزب عزت

بيجوفيتش SDA بعضا من القدرية نفسها عندما ظهر في فندق بوسنا وقابل فانس وأوين على انفراد ثم أدلى بحديث في مؤتمر صحفي في قاعة طعام الفندق للصحافة الدولية شرح فيه عملية التطهير العرقي بالتفصيل. وعندما قام ليغادر المكان قال: «اجعلوا من ذلك قصة جيدة» ثم أضاف بهدوء بعد التوقف ليتأمل يده المرتعشة قليلا: «لعلي كتبت الآن نعيي بنفسي».

وقد نجحت روبين زيبرت بالفعل في ضمان حياة كريزيتش لفترة طويلة، كانت ترسل سيارات الإغاثة إلى منزله على فترات متحدية خطر التجول ومعربة عن اهتمامها بسلامته في كل اجتماعاتها مع سلطات بانيالوكا. وربما مازال حيا رغم أنني لم أستطع مطلقا التأكد من ذلك. وهي مشكلة عامة. والواقع أنني لم أعد أستطيع معرفة عدد مرات المحادثات التي أجريتها في البوسنة والتي تبدأ بـ: «هل تذكر السيد إكس؟ أمازال على قيد الحياة؟» أو عدد الردود التي اتخذت شكل: «لست متأكدا. فلم أسمع شيئا؟». عندما تخبر شخصا في سراييفو أنك ذاهب إلى بانيالوكا فإنهم أحيانا يعطونك أسماء أقارب هناك، آملين أن تزيل شكوكهم. وقد تعلموا بحق أن يتوقعوا الأسوأ. أما عن موت الرجل المرموق فإنني وللأسف لست في شك من أي نوع. فقد قال لي إنه لا يستطيع مطلقا أن يغادر بانيالوكا فالبعد عن فنه وسجاجيده سيسبب ألما شديدا له: «إنك تعرف طبيعة جامعي التحف. إنهم لا يصدقون أن هناك فرقا بينهم وبين كنوزهم» فأوضحت له قائلا: «ولكنك ذكرت لي أنك تملك منزلا على الساحل. فلعلك وضعت بعض كنوزك هناك كذلك». فما زاد عن أن ابتسم وهز رأسه وأجاب في حزن: «كما تعرف فالأمر ببساطة ليس ممكنا لي. فقد أخرجت أسرتي وهذا يكفي. إن مكاني هنا، وسواء كنت مستريحا فوق الأرض أو تحتها فعلي أن أن أبقى في بانيالوكا».

كان الرجل المرموق يتلو صلوات موته. فطالما كان أحباؤه في سلام فأي عناء آخر هو قادر على تحمله. كان غير الصرب الآخرين في بانيالوكا مازلوا يحاولون التوافق مع موت أحبائهم. وكان أحدهم هو الذي حكى لي حكاية مازلت أشعر بأنها تجسيد صادق لمأساة مسلمي البوسنة أو «البوسنياك» كما أسماهم. قال: «كان أخي غير الشقيق أول القتلى. كان مدرسا في مدرسة ابتدائية في قرية صغيرة. ولم يكن الهجوم

مفـاجئـا . جـاء الجيران وأخبروه : «إنـك مثقف والشتنيك يقتلـون جميـع المرمـوقين المسلمين. وعليك أن تهرب. اذهب إلى نهر «السـافـا»، فالتيـار ليس قـويا هنـاك. وأنت تستطيع السباحة والنجاة بحيـاتك». لكن أخي رفض وقال: «إنني لن أغادر فلم أفعل أي شيء ضد أي شخص إنني حتـى لست مسلما متدينا فأنـا أشرب الخمر وآكل لحم الخنزير» وبذلك فقد بقى وأتي الجنود وقتلوه كما سبق وحذره القرويون. ثم استطرد يقول: «والآن أظل أفكر في موته ولكنني لا أستطيع الكراهية.

إنني لا أستطيع خلق الكراهية. إنني أحيانا أتضرع إلى الله وأنا مسلم غير متدين أن يأتي ويزيل من وجه الأرض أولئك الخنازيـر الذين قتلوا أخي ولكنني أدرك أنني لا أستطيع أن أرفع اصبعي للمسـاعدة في إزالتهم. إنني أتسـاءل طوال الوقـت هل أنا على حق في أن أكره؟ هـل أنا على حق في التمسك بمشـاعري العالميـة؟ أظن ذلك، رغم أنني لست واثقا. ففي المدارس، عندما كنت صغيرا درسوا لنا اضطهاد النازيين لليهود. بـدا وكأن ذلك تاريخ سحيق، قطعـة فنية في متحف، شيء قد تقـرأ عنه. أتذكر النظر في الصور حيث يصطف اليهـود ليركبوا القطارات إلى أوسكوفتز وبصورة ما لم أكن أصدقها مطلقا. لا أقصد أنني لم أصدق موت ست ملايين يهودي، فأفكر فقط لم أصدق أن هـذه حقيقة. ربما لأن الصور كانت بـالأبيض والأسود. الآن نحن اليهود، نحن مسلمو بـانيالوكا. فأنا أرى أصدقـائي مصطفين على محطة الباص هنا بينما هنـاك شـائعـة بأن من الممكـن أن نغـادر فأفكـر أحيـانـا «أن الأمـر حـدث في الأربعينيات، ولكنه الآن بالألوان وهـم ليسوا اليهود بل نحن».

وكـرر قائلا «أحـاول ألا أكره. أحـاول ألا أسترسل في أفكاري السـافلة» بعبـارة أخرى وأخـلاقيا على أدنى تقدير، استمـر الرجل في محاولة أن يكـون بطلا – وهي في مفهوم شمال البوسنة تعني أنه يستطيع فقط أن يكون شيئا واحدا: ضحية. قابلته في خريف ١٩٩٢. وبعـد عام ونصف كانت الأمـور قد صارت إلي الأسوأ. لقـد هرب بالفعل من بـانيالوكا كما فعل كثيرون آخرون. فبـالنسبة لغير الصرب أفسح الأمل في عـدم الأمل السبيل إلى إدراك أن كل شيء قـد ضـاع. فبـدلا من التمسك بمنـازلهم وهويتهم المدنية في بـانيالوكا كما فعل الـرجل المرموق، وبشجاعة عظيمـة في مقاومة جميع ضغوط السلطات الصربيـة لمغادرتهم، فقد كان النـاس يستجدون إجلاءهم.

فقد احتشدوا أمام مكاتب لجنة الأمم المتحدة للإغاثة وطالبوا مع ممثلي ICRC الزائرين لجنة الصليب الأحمر الدولي بالمساعدة على مغادرتهم.

في فبراير ١٩٩٤، وبعد سلسلة وضيعة من التقتيل والقصف حول مدينة بريبودور (حذرني عامل في الإغاثة قائلا «إنهم جميعا سفلة في تلك المنطقة ولكن جماعة بريبودور هم أسوأ السيئين») حاولت لجنة الإغاثة تنظيم إجلاء العشرة آلاف مسلم المتبقين في بوسانسكا كرايينا. وفي ضوء أهداف صرب البوسنة ظن المرء أن السلطات المحلية ستقفز فرحا لفرصة التخلص منهم. وقد وافقوا بالفعل على الصفقة، ولكن رادوفان كارادزيتش تدخل عندئذ قائلا بأن كل شيء على مايرام وأنه لن يكون هناك تقتيل بعد ذلك -قائلا إن ماحدث كان حوادث منعزلة- وأنه سيرسل محققين من بالي لمعرفة ماحدث في الواقع. وقال من مقر رئاسته: «إذا قام أحد بقتل المسلمين أو سلب حقوقهم الإنسانية فسوف ينال العقاب» وتراجعت لجنة الإغاثة عندما لم تستطع إجبار الصرب على السماح بالإجلاء. وتم تعليق الإجلاء ثم ألغي. وأعقب ذلك توقف مؤقت خمدت فيها اهتمامات الإعلام.

ثم استؤنف التقتيل والقصف وظل الضحايا كما هم ضحايا أيا كان التهديد الذي شكلوه ومهما تضاءل عددهم. وسواء شاهد العالم أو غض الطرف وسواء عملت وكالات الإغاثة والأمم المتحدة أم صمتت فقد استمرت الإبادة الجماعية. وانتظر مسلمو البوسنة الموت أو التشريد.

الفصل الخامس

كان التطهير العرقي في البوسنة بقصد إذلال شعب وتدمير ثقافتهم بمثل ما كان بقصد قتلهم. فلم يكن العدوان الصربي على التراث المعماري العثماني والإسلامي في كل أنحاء البلد ناتجا عن القتال -وكما يقول الجنود دمارا مصاحبا- بل كان هدفا مهما للحرب. فبالنسبة لقيادة صرب البوسنة لم تكن صربنة مناطق في البوسنة، والتي كانت مختلطة قبل الحرب، لتتحقق بمجرد طرد كثير من غير الصرب الذين عاشوا في القرى. فحتى بعد عامين من القتال، كان من المألوف أن تقابل أناسا في معسكرات اللاجئين يسألون متى ينتهي «كل هذا» ومتى يعودون للعيش مثلما كانوا من قبل. فطالما استطاع المسلمون من الطبقة المتوسطة الاستمرار في حياتهم المهنية في المدن وطالما استطاع اللاجئون المسلمون أن يتصوروا أنهم في يوم ما، عندما ينعكس الميزان، يستطيعون العودة إلى منازلهم التي طردوا منها، إذن فالتطهير العرقي غير ناجح. لقد كانت المذابح عند بدء القتال في ربيع ١٩٩٢ مجرد البداية. أما العملية أو البرنامج الذي مثّل تطهير عرقيا بالضرورة فكان ينطوي على إعادة كتابة التاريخ البوسني كذلك.

في مدينة زفورنيك، والتي كانت تضم قبل بدء الصراع غالبية مسلمة رغم متاخمتها لصربيا، كانت السلطات الصربية تحب أن تتفاخر أمام المراسلين الزائرين بخططها لإعادة تسمية المدينة، حيث يصرون على أن الاسم الصربي القديم كان زفونيك ثم أضاف الأتراك حرف الراء. كما يقولون لك إن ذلك كان جزءا من الإبادة الثقافية التي ارتكبها العثمانيون ضد الشعب الصربي، والآن أمكن تصحيح الخطأ أخيرا. وإذا طرحت على المسؤولين من صرب البوسنة في المدينة أن المسلمين، فوق كل اعتبار، شكلوا الأغلبية في زفورنيك لفترة طويلة، فإنهم عادة ما يردون بحقائق مضادة فيقولون إنه لو لم يكن كثير من الصرب قد قتلوا على يد الفاشيين في الحرب العالمية الثانية لظلت الأغلبية للصرب في زفورنيك. كما يضيفون أن الصرب كانوا

يمثلون الأغلبية قبل ١٩٣٩ . كانت تلك إحدى المجازات المألوفة في التفكير القومي الصربي . فحتى في مقاطعة كوسوفو الصربية حيث كان ٩٠٪ من السكان عام ١٩٤٤ من الألبان غالبا ما يبدي القوميون الصرب ملاحظة تقول -وكأن تلك الملاحظة ذات مغزى كبير- أنه لم يكن هناك وجود ألباني في المنطقة قبل القرن الرابع عشر. ومقارنة بذلك فإن محاولة إلغاء شرعية مسلمي البوسنة تصبح مهمة أسهل بكثير.

قبل بدء القتال كان يوجد تقريبا ألف مسجد في بوسانسكا كرايينا . وبحلول شتاء ١٩٩٤ بالتأكيد لم يكن هناك أكثر من مائة وربما أقل كثيرا . وحتى مسجد فرهابد الكبير، وهو ربما أجمل مثال على العمارة الإسلامية في البلقان في القرن السادس عشر، لم يسلم كذلك . فعلى مدى السنة الأولى من القتال كان يقف، غير بعيد من الميدان الرئيسي في المدينة ، كأثر على كل من الماضي الإسلامي والحاضر المسلم لبانيالوكا . لقد تم تشويه جانب من واجهته بصليب مخدوش طبع على كل طرف فيه أربع حروف c (وهي حرف S في الأبجدية السيريلية) تمثل الشعار «الوحدة وحدها تنقذ الصرب» ولم يكن في ذلك شيء لافت للنظر. فقد كان أي مسكن لغير الصرب أو مساحة في متناول اليد على أي حائط في القرى والمدن التي استولى عليها التشتنيك ملطخا بذلك الصليب الأرثوذكسي وتلك الحروف الأربعة مصحوبة غالبا بالحروف JNA (الجيش القومي اليوغسلافي) وعبارة تفاخر أو الأسماء الأولى للجنود . لكن أحدا من معظم أهل بانيالوكا - الصرب وغير الصرب على السواء- أو الصحفيين الزائرين وعمال الإغاثة لم يكن يساوره قلق بشأن المسجد الكبير. فعلى عكس المسلمين أنفسهم بدا آمنا .

وخلال زيارة سايروس فانس وديفيد أوين لبانيالوكا في سبتمبر ١٩٩٢ كان رادوفان كارادزيتش يتفاخر علنا باستمرار وجود المسجد . فقد حيا مفاوضي الأمم المتحدة والمجتمع الأوروبي عند توقف موكب سياراتهما في الميدان الرئيسي لبوسانسكا جراديسكا على الشاطىء الجنوبي لنهر سافا . وقال كارادزيتش، وهو يلوح بذراعه نحو برج كنيسة مجاورة : «كما ترون، هذه كنيسة كاثوليكية وهي لم تدمر مثل المسجد تماما . نحن نعيش جميعا في سلام هنا وفي كل أنحاء مناطق البوسنة الواقعة تحت

سيطرتنا وحيثما لا يهاجمنا المسلمون. إننا لا نستطيع العيش في بلد واحد مع المسلمين. أما إذا عاشوا معنا ولم يهاجمونا فلن نؤذيهم وسنحترم دينهم. وهو ما ينطبق أيضا على بانيالوكا».

وفي بوسانسكا جراديسكا اتضح أن الكنيسة الكاثوليكية المذكورة كانت مغلقة بالمتراس وكان المسجد مفتوحا كما ذكرت. لكن كان خاليا ومشوه الجدران وكانت تسري نكتتان بين غير الصرب في ذلك الوقت في بانيالوكا. تقول الأولى «ما تعريف السلام الصربي؟» وتكون الإجابة: «صربيا الكبرى حتى المحيط الهادي». وتسأل النكتة الثانية كيف يعرف المرء الفرق بين كنيسة كاثوليكية وأخرى أرثوذكسية ويكون الرد: «الأرثوذكسية هي التي مازالت قائمة». ولكني عندما سمعت النكتة للمرة الأولى لم يكن هناك شخص واحد، فيمن أعرفهم على الأقل - أجنبي أو بوسني - يتصور أنه بعد ست شهور وفي أمسية واحدة وبعد تسوير الميدان الرئيسي، ستقوم المقاتلات الصربية بنسف جميع المساجد الخمسة في شمال شرق مدينة بيلينا البوسنية (كان يمكن ألا يذاع سر الدمار لو لم يهرب جابي رادو مراسل ITN فيلما عما حدث) أو أنه بعد ست شهور أخرى سيتم تدمير مسجد بانيالوكا الرئيسي بالديناميت. لقد رأينا كيف كانت الأمور سيئة في الريف ولكننا كنا نعزي أنفسنا بتصور أنه، في مدن مثل بيلينا أو زفورينك أو بانيالوكا، وهي الأماكن التي أخذتها القوات الصربية في الأيام الأولى من القتال، أسوأ الأمور قد حدثت وانتهت. وفي النهاية، ألم يحصل الصرب على كل شيء أرادوه؟ ألا يمثل استنزاف جهد القوات في عمليات اضطهاد السكان غير الصرب أو إضاعة المتفجرات في نسف الكنائس والمساجد من الناحية العسكرية عملا أخرقا طالما أن الحرب مازالت قائمة.

أو هكذا كنا نفكر على أية حال. وباسترجاع الأحداث، فإن تدمير المساجد في بوسانسكا كراپينا كان شاهدا على سذاجتنا حين اعتقدنا أن عدم وجود سبب عملي لدى الصرب لفعل شيء يعني أنهم لن يقوموا بفعله. وأظن أن ما فات الكثيرين منا هو أن الصرب اعتبروا أنفسهم الجانب المجروح وأنهم يقومون بحرب دفاعية.. ففي مقابلة بعد أخرى يركز كارادزيتش علي تلك النقطة بدرجات متفاوتة من اللباقة والبلاغة. كانت إحدى جمله المأثورة: «نحن الصرب ندافع فقط عن أنفسنا ضد

هجوم المسلمين» وفي تراجع واضح نجده يستخدم كلمة أهوال الحرب، فقد قال مرة «إنها الحرب الأهلية، فماذا تتوقعون؟» ليثبت أن الصرب والمسلمين لا يستطيعون العيش معا في البوسنة وأن مايحاول الصرب في الواقع إنجازه هو في مصلحة المسلمين أيضا سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه.

والواقع أن هناك شك فيما إذا كان كارادزيتش نفسه يصدق أيا من ذلك. وفي محاولتنا لاستشفاف كنه ما يحدث في البوسنة فمن المهم ألا نأخذ ادعاءات القيادة الصربية بشكل سطحي. فعلى أية حال غالبا ما كانت الحروب تدور بسبب المال أكثر منها بسبب الأيديولوجيات. ولقد لعب كارادزيتش نفسه على إوتار سياسية عدة قبل أن يصبح قوميا صربيا، بما في ذلك نشاطه لفترة قصيرة كأحد مؤسسي حركة الخضر في البوسنة. أما الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسيفيتش، وهو اقتصادي بالممارسة، فقد قدم نفسه على أنه معاد للقومية، وبرجماتي تابع لتيتو قبل أن يختار اللعب بورقة القومية في صربيا. وعندما كان يلبس المسوح الأيديولوجي السابق فقد تمادى إلى درجة أنه استنكر مذكرة الأكاديمية الصربية للفنون والعلوم - التي اعتبرها كثيرون المخطط الأيديولوجي للقومية الصربية التي ستظهر في أواخر الثمانينيات - على أنها مدمرة بصورة مرفوضة للوحدة اليوغسلافية.

من جانب آخر، بدا الجنرال ميلاديتش بالفعل خلال الحرب مقتنعا بأنه قومي صربي في الوقت الذي أظهر عدد محدود من المسؤولين في بالي بوضوح أنهم أعطوا إجازة لأحاسيسهم كلية. أما بيليانا بلافيتش والتي كانت بغير حد أغرب المجموعة فقد استقبلت مرة جوزيه ماريا منديلوس، رئيس المفوضية العليا للاجئين في يوغسلافيا السابقة وهي تشكو من أن «الرضع الصرب يقدمون أحياء طعاما لحيوانات حديقة الحيوان في سراييفو». قالت ذلك في اللحظة نفسها التي كان يجازف فيها حراس الحديقة بحياتهم للذهاب إلى الحديقة لإطعام الحيوانات، وهو عمل بطولي بلا طائل، حيث نفقت جميع الحيوانات أخيرا من الجوع. وحتى منديلوس، رغم كونه دبلوماسيا محنكا، لم يستطع حفظ اتزانه العقلي وصاح بلكنته الإنجليزية الثقيلة «يا سيدة بلافيتش إذا كان البوسنيون يقدمون الصرب الأحياء طعاما لحيوانات الحديقة، فلماذا تموت حيوانات الحديقة جوعا؟».

ولقد كان هنــاك أناس مثل بيليانا بلافيتش بين الصرب العــاديين، والذين كانت التصريحات الغريبة من النوع الذي قالته لمنديلوس بالنسبة لهم هي العملة السائدة في التلفزيون الذي يشـاهدونه والراديو الذي يستمعون إليـه . ولكن كانت هناك أفكار أقل تطرفا تؤثر فيها يفعلونه، وبصفـة خاصة فإن الصرب الذين أتوا من أماكن بعيدة مثل بلجراد أو نــوفي ساد ليستقروا مـع عائلاتهم في المنازل التي أجلي منهـا المسلمون والكروات في بانيـالوكا أو بيلينا أو فـوكا قد يكونـوا قد أصيبوا بحمى القوميـة العرقية ولكنهم كانـوا يحصلون على شيء مقـابل لا شيء. وربما كان بإمكـان كارادزيتش أن يدعي قبل ١٩٩٢ أن صرب البـوسنة كانوا يسيطرون على ٦٠٪ مـن الأرض (قال مرة إن المسلمين يفضلون الاحتشاد في المدن فليس من طبعهم العمل في الأرض)، ولكن أرقـامه ليست مشكـوكا بها فحسب بل إن منـاطق قليلة في البـوسنة كـانت للصرب وكانت معظم القرى والمدن مختلطة بعكس منطقة كرايينا في كرواتيا. وقد مثل التطهير الصربي، والذي كان استراتيجية عسكرية وهدفا لحرب قوات صرب البوسنة، سبيلا لقلب ذلك. بهذا المعنى فإن حرب الصرب علي البوسنة لم تكن حربا أهلية أو هيجانا فالتا لشعب أصــابه الجنون بفعل الخوف والأيديولـوجية بقدر ما كانت اغتصـابا فظا للأرض وآلية سافرة لاستئثار جماعة بعينها بامتلاك الأرض، والتربح منها، ثم توريثها لأطفالها في النهاية.

إن محاولـة البحث عن معنى لما كـان يجري في البـوسنة من خـلال التحـدث مع كارادزيتش، وهـو درس تعلمته أخيرا الموجات المتلاحقة من مسـؤولي الأمم المتحدة مدنيين وعسكـريين والذين أرسلـوا للتعامل معه، كـان أمرا ميئوسـا منه. فقـد كان كارادزيتش كـذابا ليس بمعنى أن جميع السيـاسيين يكذبون، بل بـالمعنى الفصامي المشابـه للحالات التي سبق أن عـالجها في قسم العــلاج النفسي بمستشفى كوسـوفو بسراييفو. وسواء تعلق الأمـر بزعمه، قبل فرض حلف الناتـو لمنطقة «حظر الطيران» فوق البـوسنة والهرسك -بأن طيران جيش صرب البوسنة لا يقـوم بأي غارات أو نقل للقوات، أو إنكاره أن القـذائف الصربية التي تمطر سراييفو كانت من مـواقعه- لقد قـال مـرارا وتكرارا: «إنهم المسلمـون الـذين يطلقـون القـذائف على أنفسهم. إنهم يأملون في كسب عطف العـالم» - أو حتى الادعاء بأنه لا يوجـد شيء اسمه التطهير

العرقي، وهـو تعبير أحياه كارادزيتش نفسه، فقـد بدا أنه ليس هناك حـدود لما كان راغبـا في الوصـول إليه. ولم لا؟ فما تعلمـه كـارادزيتش والقادة الصرب الآخـرون على مدى السنتين اللتين غزوا فيهما البـوسنة هو أنه مهما فعلـوا فإن القوى العظمى والأمم المتحدة لم يكـونوا سيحركـون ساكنا لإيقـافهم. وإذا كانت أفعالهم لن تنـزل العقاب فوق رؤوسهم فلماذا تكون لكلماتهم أية نتائج؟

بل لقدقـام فريق سينمائي تـابع لمحطةBBC كـان يتابع كـارادزيتش في صيف ١٩٩٢ بتسجيل حـديث بينـه وجنرال ميـلاديتش وبيليـانا بـلافيتش عن شكـاوى الحمايـة الـدولية بخصـوص نشـاط الصرب الجوي وكـان المنظر سيريـاليـا: يبلغهم كارادزيتش بالاحتجاج فتقول بلافيتش ببساطة «لم تكن الطائرات في الجو» لكن حتى كارادزيتش لم يستسغ ذلك حيث قـال لها بغضب «بالطبع كانت في الجو يا بيليـانا، كنا نطير كالمجانين ذلك اليوم». أما رد فعل ميلاديتش فكان أن «ينفلقوا» وظهر وهو ينقر بأصابعه وغضبـه يتزايد من المحادثة كلها. ومع ذلك ففي النهـاية تقرر أن يقوم كارادزيتش بإعلام الأمم المتحدة بأن الطائرات كـانت في الجو لأنه كان يوم الاحتفال بـ «يوم الطيران» الصربي. أمـا مسألـة ما سيفعلـونـه إذا لم تقبل الأمم المتحدة هـذا التفسير فلم ترد في الحديث مطلقا.

وكـان كـارادزيتش وميـلاديتش وبـلافيتش على حق في افتراضهم أن على الأمم المتحدة أن تقبل أي تفسير يقـدموه. ورغم أن ما حـدث بعد ذلك أثبت أنهم كـانوا مخطئين في نشـاطهم الجوي – إذ تم فعليـا تطبيق قـرار المنـاطق التـي «يحظـر فيهـا الطيران – فإن ما وقع من أحداث فيما بعد، سواء كان ذلك في بانيالوكا عام ١٩٩٢ أو في سراييفو منذ البداية وحتى فبراير ١٩٩٤ أو في جيب غوراجده بعد ذلك بشهرين، أثبت صـواب رأيهم في الاعتماد على إمكـان التصرف في حصـانـة ويقـولـون مـا يريدون.

بعد أن سقطت قذيفتـا مورتار بجوار مخبز مـركزي في وسط سراييفو في أغسطس ١٩٩٢، وقتلت ستة عشرة فردا وجرحت كثيرين، آخرين أسرع كارادزيتش بإصدار بيان ادعى فيه أن الحكـومة البوسنية زرعت ألغـاما أرضية تحت الموقع. ولم يكن مهما واقع أن اللغم يترك حفـرة في الأرض أمـا المورتار فيحـدث ذلك الـرش المميز والـذي

يشبه حفـر مخالب حيوان. وكان يمكن لضغط من قـوة عظمى أن يجعل كارادزيتش يغير قصته ولـو بوضع اللوم على عنصر مجرم داخل جيش صرب البوسنـة أو التعويل على حقيقة أن- وكما اعترف مرة بـأنه ربما أن «حالات اغتصاب قليلة قـد حدثت»- «كل حرب تنتج قليلا من المرضى النفسيين». وعلى أي حال والأمور علي ماهي عليه فلم يكن الصرب يخافـون أيا من أحـاديث المراسلين الأجانب أو التأنيب الـواهن من الأمم المتحـدة. بـل إن الأمم المتحـدة تصرفت في حـالات عـدة كحليف للصرب، والحالة الأشهر في هذا الصدد هي حالـة مذبحة المخبز المركزي نفسه حيث فشل كثير من مسؤولي قوة الحماية هناك في استنكار مزاعم كارادزيتش حول المتسبب في الحادث في بادئ الأمر.

فقد أصر قائدها الكندي، اللواء لويس ماكينزي في ذلك الوقت، ثم في مذكراته «حفظ السلام» على وجهة نظره من أنه من المستحيل معرفة أي الجانبين ملام أو حتى معرفة ما إذا كان الدمار نتيجة نيران المورتار كما ادعى البوسنيون، أو من المتفجرات، كما ادعى الصربيون.

ومع ذلك «فـالـرش من المورتار» المميـز تماما كـان وسيظل هنـاك ليشاهـده أي شخص. على أن الأمـر تعلق في النهـاية بمعـرفـة قـادة الصرب أن الحرب الدعـائيـة الوحيـدة التي عليهم أن يكسبوهـا، طالما كان المجتمع العـالمي في سباتـه، كانت في صفوف شعبهم هم. وقد كانوا في هذا ناجحين بصورة مذهلة. فخلال سفرك داخل الأراضي التي يحتلها صرب البـوسنة كان من الشـائع أن تقابل صربـا تزعجهم الحرب ومرتعبين من الطريقة التي مـزقت بها البوسنة. ولكن كان من المستحيل أن تجد بينهم شخصا يصـدق أن الجانب الصربي هو الذي بدأ الصراع أو أن الصرب لم يكـونوا هم الضحايـا الذين أسيىء فهمهم. كـان الصرب العاديون يتكلمـون بحيرة حقيقية من موقف القوى الغربية. أخبرتني مدرسة ثانوي في إليرزا -ضاحية من سراييفو- خلال صيف ١٩٩٣ والدمـوع تنهمر من عينيهـا: «تعودت أن أحب أمـريكا. ولفترة قلت لنفسي إنكم الأمريكان كنتم مخدوعين، ولكنني الآن أدرك أنكم جميعا أعداؤنا وأن علي أن أتعلم التفكير فيكم بهذا الوضع- رغم أننـي لا أريد ذلك. إنني أرى ما تكتبـونه عنا، تلك الأكاذيب، ولا أفهم».

سألتها: إذا كان الصرب هم الضحايا الحقيقيين في الحرب، فلماذا يواصلون قصف سراييفو بلا رحمة ولماذا يتحتم على أطفال سراييفو أن يموتوا على أيدي القناصة الصرب. فتنهدت وهزت رأسها مستنكرة في رقة وقالت: «إذا كنا نقصف المدينة، فذلك فقط لأن المسلمين يصوبون علينا أولا، أليس لنا الحق في الدفاع عن أنفسنا؟ ألا تعتقد أن لكل آدمي الحق في ذلك حتى نحن الصرب الأشرار؟ إنني متأكدة أنه إذا أوقفوا نيرانهم فسنوقفها نحن فورا كذلك. لا أحد يريد الحرب».

فسألت وذكريات الأطفال المقعدين في جناح الأطفال في مستشفى كوسيفو تتواتر مرعبة وعفوية في ذهني: «ونيران القناصة».

فنظرت إلي في برود وقالت: «أعتقد أنك مضلل. القنص هو سلاح الجبناء. والصرب لا يستطيعون أن يتصرفوا بهذه الطريقة المشينة. إنني من سراييفو وقد ألقيت خارج بيتي على يد المسلمين وكثير من الجنود جاءوا من هناك كذلك. وهم لا يقتلون الأطفال. وإذا كان الأطفال يقتلون فذلك لأن المسلمين يفعلون ذلك لإلقاء اللوم على الشعب الصربي».

إن أي شخص قضى بعض الوقت في قلب سراييفو، حيث يستطيع القناصة رؤية والتقاط ضحاياهم وحيث كان مجرد الوقوف في الشباك، طوال الحصار، مغامرة بحياتك، سيميل إلي الشك في صحة قواها العقلية. ولكن إخلاصها لم يكن محل تساؤل ولعله لا يجب أن يكون محل استغراب، فالمعلومات الوحيدة عن الحرب التي تلقتها هذه المرأة ولأكثر من عام، ماعدا ماجاء خلال المقابلات بالمصادفة مع الصحفيين الأجانب وعمال الإغاثة والذي أسقطتهم من حسبانها كموالين للمسلمين، كانت فقط ما يبث كل ليلة على شاشات تلفزيون صرب البوسنة والمذياع. والمصدر الوحيد الآخر هو ما اختار أن يقوله لها المحاربون العائدون من الجبهة. وهذا لا يعني أن المحاربين أنفسهم لم تكن لديهم شطحات مماثلة من الإيمان والخيال. فعلى دشمة محاطة بأكياس الرمل علي تل فوق سراييفو، في مكان لا يبعد كثيرا عن الأرض المشاع لمقبرة اليهود في المدينة، قال لي محارب صربي ملتح: «قبل أن ينتهي هذا الصيف سنكون قد طردنا جيش الأتراك من المدينة مثلما طردونا من ميدان القتال في كوسوفو عام ١٣٨٩ والذي كان بداية هيمنة الأتراك على أرضنا. ستكون

تلك نهاية الأمر بعد تلك القرون القاسية».

وبالمقارنة برفاقه الذين قابلتهم ـ كانت أذواقهم تميل إلى صور فتيات الجدران على طراز بنتهاوس وصور القديسة سافا وهي القديسة الراعية لصرب البوسنة ـ كان هذا الرجل مثقفا، فمثل المرأة التي قابلتها في إليدزا، كان أيضا مدرسا بالثانوي في ضاحية لسراييفو. وفي وقت لاحق من تلك الأمسية سألني رأيي في روايات جون أبدايك. ولكن عندما كان هذا الرجل يطل على مدينة سراييفو، والتي ظل يطلق عليها نيران مدفعه من عيار خمسين ملليمتر لمدة عام تقريبا، فإنه لم ير ما كانت تعد يوما مدينة غنية بالمعايير الغربية، مدينة الروك آندرول البلقانية، بل رأى موقعا لمعسكرات الجيش التركي الذي احتل البلقان في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. ولعله علم في مكان ما أن الناس الذين كان يطلق عليهم النار كانوا مدنيين ـ بعد عام من الحصار كان بين القتلى ٣٥٠٠ طفل ـ ولكنه في خياله لم يكن يرى أي أحد في ذلك المنخفض الحضري غير الغزاة المسلمين. ولم تكن مهمته قتلهم فالإنسان لا يستطيع قتل الغزاة، إنه يدافع عن نفسه ضدهم، إنه يصدهم. كان يتفاخر قائلا: «إننا نحن الصرب ننقذ أوروبا، حتى إذا كانت أوروبا لا تقدّر صنيعنا وحتى لو كانت تلعنه».

كان ملك بولندي قد أنقذ فيينا عندما كانت الجيوش العثمانية على وشك الاستيلاء عليها في القرن السابع عشر. والآن يتحدث هذا المحارب من صرب البوسنة بفخر عن كيف أنه تعين على الصربيين أن يضحوا بأنفسهم في سبيل قضية أوروبا، في حرب القارة القديمة الدائمة ضد الإسلام والأتراك. عندئذ وعندئذ فقط يكون هناك سلام. قال لي في ضجر: «ولكن عليك أن تفهم أن اللغة الوحيدة التي يفهمها الأتراك هي منطق القوة. لقد تعود الأوروبيون على فهم ذلك. تعودوا على فهم ما نواجهه وطالما واجهناه هنا في البلقان. لقد ساعدت فرنسا الصرب عام ١٩١١ و١٩١٥ وهناك تمثال للفرنسيين بعد الحرب أقيم عرفانا من شعب بلجراد. كما كانت الولايات المتحدة وصربيا حلفاء في حربين عالميتين. لست أدري كيف نسيتم ما فهمه أجدادكم جيدا، ولكن لا يهم. فعلينا أن نقاتل».

سألته هل كان يعتقد دائما في صربيا الكبرى، فأجاب «لا. قبل أن تبدأ الحرب

ظننت أننا نستطيع جميعا العيش معا في سلام هنا في البوسنة . فقد كان لي أصدقاء مسلمين وبالطبع كثير من التلاميذ . وحتى بعد انتهاء الشيوعية ظننت أن الأمور على مايرام . إن الأتراك منافقون وماكرون . كان عزت بيجوفيتش يقول شيئا على التلفاز ولكن عندما يتحدث مع أعضاء حزبه يتكلم عن بناء دولة إسلامية هنا في البوسنة . ابحث عنهم أو ابحث في مجلة حزبهم SDA . إنني متأكد من وجود نسخ في سراييفو ـ ستجد قصصا عن بناء مساجد في كل أنحاء البوسنة ، في المدن الصربية . وفي مؤتمر حزبهم عام ١٩٩١ أقسم عزت بيجوفيتش أن يستعيد للبوسنة هويتها المسلمة «الحقيقية» . فماذا كنت تتوقع أن يفعل الصرب؟

هل نسمح لعزت بيجوفيتش وسيلادزيتش أن يقيما مسجدا في ردهة قاعة البرلمان؟ لقد حاولنا أن نعيش في سلام معهم ولكن في نهاية الأمر أدركنا أن علينا أن نقاتل» . ومع هذه الكلمة الأخيرة أومأ رأسه مؤيدا ثم أومأ ثانية عندما بدأ أحد رفاقه في الموقع المجاور في إطلاق سيل متواصل من النيران على سراييفو.

وعندما تحدث المدرس عن الصرب الذين بقوا في سراييفو، والذين ظلت غالبيتهم العظمى موالية لحكومة عزت بيجوفيتش ، كان يتكلم عنهم على أساس أنهم خمسين ألف رهينة صربية حجزوا من قبل المسلمين، رغم إرادتهم . قال لي «إنهم كانوا سيغادرون لو كان ذلك بإمكانهم» . وحتى في ذلك الوقت، أي في صيف ١٩٩٣ كان محقا ولكن ليس للأسباب التي تصورها . فحتى ذلك الوقت كانت غالبية أهل سراييفو سيهربون من المدينة لو استطاعوا . ولكن الحقيقة تكمن في أن أحدا لم يرد أن يدع الناس يخرجون : لا الصرب المحاصرين، ولا الأمم المتحدة، التي كانت وجهة نظرها أن الاتفاقية التي وقعتها مع الصرب لفتح مطار سراييفو تجبرها على منع البوسنيين من الهرب عبر مدرج المطار خلف الأراضي التي يحتلها صرب البوسنة ، ولا حتى الحكومة البوسنية نفسها والتي أحست أنها لا تستطيع أن تخسر أي أناس آخرين . أما بالنسبة للمدرس فإن اعتقاده أن إخوانه الصرب كانوا محجوزين رغم إرادتهم جعله يتصور أنه ليس فقط محارب مسيحي ، بل ومرة أخرى ، على أنه ضحية . فإذا كان يصوب نيرانه على سراييفو فإنما ليمنع المسلمين من أن يفعلوا بصرب بالي وإليدزا مثل ما فعلوه أو خططوا لعمله مع الصرب الذين

يحجزونهم في العاصمة .

هذا الإحساس بكونهم الفريق المتضرر ساعد على تفسير إحدى تجارب الحياة البسيطة والأكثر غرابة في سراييفو. فقد كانت العادة، عندما كانت االهواتف تعمل، أن يقوم الصرب في التلال من وقت لآخر بالاتصال بأصدقائهم المسلمين والكروات في المدينة. وكانوا على الخط الآخر مصدومين من ذلك وبخاصة عندما اتضح أن أولئك المتكلمين لم يكونوا خجلين مطلقا مما كانوا يفعلونه وأنهم لم يتصلوا للاعتذار أو لشرح وضعهم، بل كانوا مهتمين وعلى أساس شخصي صرف بأحوال أصدقائهم المسلمين ومتلهفين للاتصال بالأشخاص الذين افترقوا عنهم. وكما قالها صديق لي: «إنني قد أفهم أن يطلق زملاء المدرسة القدامى الرصاص عليّ ولكن كيف واتت «فلادو» الجرأة أن يتصل بالهاتف لمجرد أن يقول (هالو)؟ إنني لم أستطع أن أصدق. إنه يبدو وكأنه لا مسؤولية عليه مطلقا فيما يحدث. لقد سألني عن عائلتي بل إنه سألني ما إذا كنت أتذكر إجازة قضيناها جميعا على الساحل في أوائل الثمانينيات. لقد كان الأمر غاية في الغرابة».

لكن ما كان لا يدخل عقل أهل سراييفو تحت الحصار كان منتهى التعقل من وجهة نظر صرب البوسنة. فلم يكن لدى الصرب ما يعتذرون عنه. فإذا كانوا البادئين في المحادثات الهاتفية فلأن الاتصال بسراييفو أسهل من الاتصال بخارجها أما حقيقة أن أحد الأهداف الأولى لمحاربي الصرب كان مبنى شركة الهواتف وقطع هواتف معظم الناس فورا فلا أحد يذكرها. إن المسلمين هم الذين جلبوا ما يحدث على أنفسهم، وبينما قد يحس الفرد الصربي بالأسى على صديقه المسلم، فإن هذا الأسى لم يفعل شيئا ليغير من اقتناعه، كمجموع، بأن مسلمي سراييفو كانوا يواجهون قدرهم. ولقد بدا أن الصرب الذين تكلمت معهم والذين قاموا من وقت لآخر بالاتصالات الهاتفية كانوا يشعرون بأنهم هم الذين يتنازلون عن الكثير بالبدء في المحادثة حيث حاولوا بشهامة أن يتناسوا الوضع الحالي وبشكل ما يسترجعون العلاقات الشخصية كما كانوا قبل بدء الحصار.

كان فهم هذه المفاهيم المشوهة أسهل على الأقل في سراييفو، حيث لم تكن لدى الأصدقاء السابقين فرصة مواجهة بعضهم لبعض منذ بدء القتال، منها في مكان

مثل بانيالوكا حيث لم يحدث مثل هذا الفصل الإجباري. وحتى بمعايير بالي وبلجراد كانت الدعاية ضد المسلمين في بوسانسكا كراپينا مبالغ فيها. فبعكس بلجراد، حيث مازال المنشقون ناجحين في إيصال أصواتهم، لم تكن هناك أصوات معارضة في بانيالوكا بأكثر مما في بالي. والأكثر إزعاجا، وبالنظر إلى أن قيادة صرب البوسنة لم تكن موحدة متماسكة، أنه بدا أنه لا توجد أصوات معتدلة بين القوميين الصرب في بوسانسكا كراپينا كذلك. لقد كان هذا النشاط الأيديولوجي الذي عمل به الصرب في بانيالوكا ذا معنى. فقد كان الأمر يتطلب كثيرا من العمل لتتغير مفاهيم الصرب العاديين عن جيرانهم غير الصرب الذين عرفوهم طوال حياتهم للدرجة التي يتصرفون معهم فيها، عندما يلاقونهم، على أنهم مخلوقات غريبة مجرد وجودها يمثل تهديدا لهم. إن دفع الأفراد إلى القتل ليس صعبا بالدرجة التي يبدو عليها. فالوحشية موجودة في كل حرب أهلية ونادرا ما يكون لها عمق أخلاقي (رغم أنه قد يبدو من قبيل التناقض أن الصراع في البوسنة كان مزيجا من الحرب الأهلية وحرب العدوان، لقد كانت بالغة القسوة كالأولى وأحادية الجانب كالثانية). فما إن تبدأ إراقة الدم فإن المقاتل الفرد يتعطش للانتقام قدر تعطشه للانتصار. وحيث إنه في يوغسلافيا السابقة كانت الموبقات ترتكب من جميع الأطراف فقد اتخذت الرغبة في الانتقام شكل موبقات أكبر. ولكن كانت تلك التجاوزات أيضا ومنذ البداية، هدفا في حرب الصرب. فكلما أصبح المسلمون مرتعبين يكون من المحتمل ألا يهربوا ببساطة بل يقاوموا باستمرار للعودة إلى الأراضي التي أخذها الصرب. ولقد كانت قصص الرعب والتعذيب هي العملة السائدة في الأحاديث الدائرة بين اللاجئين البوسنيين الواهنين سواء في المدن والقرى التي تحت سيطرة حكومة البوسنة أو في معسكرات اللاجئين والشقق المكدسة بهم خارج البلد.

وقد صعب على الأجانب تصديق تلك الروايات في بادىء الأمر، ونفاها تماما المدافعون عن الصرب. ومع ذلك فقد ثبت في نهاية الأمر صحة معظم أكثر الروايات فظاعة والتي حكاها مسلمو البوسنة منذ بدء القتال عن عملية التطهير العرقي وهي القصص التي رفضت منذ البداية على أنها مبالغات. كانت الأعداد محل تساؤل. فهل تم اغتصاب خمسين ألف امرأة مسلمة وأجبرت ألوف كثيرة منهن علي الإبقاء

على ثمار الاغتصاب للنهاية (حيث إن مضامين تلك الخطوة الأخيرة واضحة فبعكس اليهود فإن امتداد العرق للأب أمر محسوم لدى كل من الصرب والمسلمين) أو أن العدد كان «فقط» خمس عشرة ألفا؟ وهل كانت هناك عشرات من المعسكرات السرية حيث يذبح المسلمون أو دستة «فقط»؟ أما المذبحة الجماعية فلم تكن محل تساؤل وكذلك الأعمال الوحشية وعندما قيل إن لاجئا مسلما من بوسانسكي بتروفاك أخبر أحد الضباط العاملين في الإغاثة أن آسريه من الصرب أجبروه على «عض» عضو الذكورة لأحد رفاقه اللاجئين بأسنانه فقد كان أول رد فعل لي - وكل من أعرفهم - هو تكذيب الخبر. وبعد ذلك أرسل الضابط الذي أخذ شهادة الرجل برقية بأنه يقسم بشرف مهنته على صحة أقوال الرجل.

إن قليلا من التأمل لما سبق سيؤدي بنا إلى أن مثل تلك الأعمال الوحشية ليست سوى إحدى النتائج المنطقية للتطهير العرقي. فإذا ما ظللت تكرر على شاشة التلفاز والمذياع وفي كل خطاب إلى قواتك، كما فعل الصرب، أن العدو ليس بشرا، وأنك قدكون نشأت مع ذلك الشخص وقد تظن أنك تعرفه ولكنك في الحقيقة لا تعرفه، أي أنك باختصار، تواجه شيطانا، عندئذ تكون النتائج محتومة سلفا.

فالمسألة لم تعد تتمثل في هل سيكون هناك قتل، بل إلى أي مدى ستستمر إراقة الدماء. ليس فقط القتل بل البتر كذلك، فالمسلمون مختونون أما الصرب فلا وتكون أسهل وسيلة على المقاتلين الصرب لمعرفة ما إذا كان السجين الذي أخذوه مسلما هو أن ينزل سرواله. ومن هناك لن تتبقى غالبا سوى خطوة قصيرة، نفسيا، لكي تقطع عضوه. وذلك أيضا كان متوقعا. فمن الأرمينيين إلى اليهود وحتى مسلمي البوسنة لم تكن هناك حملة تطهير عرقي خلت من السادية الجنسية.

وكما تصرف أولئك الذين قاموا بالتطهير العرقي بثبات وكأن الأعمال الوحشية التي ارتكبوها لها مايبررها، كذلك لم يكن الدعائيون فقط هم الذين يصرون على أن المسلمين أقل من البشر. فقد أوضحت البراءة المحزونة التي أبداها بصدق المقاتلون الأفراد بوجه عام أنهم يشعرون أنهم هم ضحايا الحرب الحقيقيين، وليس من كانوا يقتلون أو يخرجون من ديارهم. ومثل الضحايا في كل مكان، كانوا متعطشين لما كانوا يسمونه عادة بالعدالة ولكنهم كانوا أحيانا راغبين في تصنيفه كانتقام. وعندما

استحوذت قوات الصرب على الأراضي والبيوت وحيوانات المزارع التي أخذوها، كانوا يحرقون البيوت ويذبحون الثروة الحيوانية رغم أنهم يدركون بوضوح أن أفعالهم تلك جعلت من المحال على مواطنيهم الصرب أن يبدأوا بالزراعة. ولكنهم اعتقدوا أن الثمن لابد أن يدفع، فإلى هذا الحد كان شعورهم ثابتا بأن الصرب هم الطرف المتضرر.

ولا مجال للدهشة إزاء هذا الافتقار للحساب الاقتصادي في «حرب القرى» تلك أو للدهشة من تدمير المكتبة الوطنية في سراييفو والتي لم تكن لها قيمة عسكرية بل كان تدميرها مستهدفا بشكل خاص من قبل المسلحين من صرب البوسنة المتمركزين في التلال فوق المدينة أثناء الأيام الأولى. إن الدهشة وتصور أنه كان هناك خطأ ما يعني عدم إدراك المغزى تماما. تماما كما أن الدهشة من سبب تحويل هتلر للمخزون اللازم لإعادة تموين قواته على الجبهة الشرقية من أجل نقل اليهود إلى معسكرات الاعتقال تعني عدم فهم المغزى من المشروع النازي. لقد تم القيام بالتطهير العرقي لإزالة الوجود المسلم من معظم أراضي البوسنة. كان الماضي المسلم وكذلك الحاضر بسكانه المختلطين عرقيا في المدينة هو المستهدف في سراييفو. وفي الواقع، من الصعب القول أي هدف منهما هو الأكثر أهمية. كان من اللازم إراحة الصرب في سراييفو من عبء مدرسة الدراسات الشرقية ومن المكتبة الوطنية ومن مساجد العاصمة الكبيرة. لم يكن الصرب يستطيعون العيش مع وجود تلك الآثار الضاغطة. وإذا ما قتل أو جرح أفراد من الصرب في المدينة أو حتى ضربت بعض الآثار الأرثوذكسية مثل الكاتدرائية القائمة في شارع فازوميسكينا فهذا هو مايحدث في الحرب. لقد بذل مسلحو الصرب كل ما في وسعهم، فعلى مدى عامين من الحصار لم تصب مرة واحدة المقبرة الصغيرة في سراييفو حيث يرقد جافريلو برنسيب ورفاقه في حركة بوسنة الصغيرة على الرغم من أنه تم نسف جميع الأهداف حولها. ولكن إذا دعت الضرورة يستهدف الصرب أهدافهم هم دون وخز من الضمير.

وفي القرى كانت العمليات الحربية الجذرية مصحوبة غالبا بعمليات معرفية جذرية مساوية. فبعد ظهر يوم قال لي مقاتل صربي في بانيالوكا «لقد حررنا رادوفاك». كنا في صالة حمام سباحة في مركز شباب المدينة نحاول التخاطب بألمانية

ركيكة ـ وهي عملية زاد من صعوبتها صخب موسيقى u2 في الخلفية. كان هذا في حد ذاته مدعاة للسخرية. كانت الفرقة الإيرلندية معروفة بمساندتها العاطفية لجانب الحكومة البوسنية. ولكن ذلك فعل القليل لكبح الجنود الصرب الذين كنت أشرب معهم عن تشغيل أشرطة موسيقا u2. وقد يتسلى منظرو موسيقى الروك من الغربيين الراديكاليين بالوهم القائل إن الموسيقى الشعبية إباحية ومفسدة بطبيعتها، ولكن في بانيالوكا كان الشباب قادرا على التمييز بين ذوقهم في الموسيقى وسياستهم. كان زلزال الشباب العالمي هو زلزال الشباب العالمي، وكانت الحرب هي الحرب ولم يتدخل أي منهما في طريق الآخر. لم يكن يسهل التمييز بين المقاتل الصربي الشاب الواقف في ملابسه الشبابية المدنية يترنح مع الموسيقى محاولا أن يستكمل المحادثة معي وهو يواصل تطويق فخذ حبيبته وأي مراهق أخرق من سان فرانسيسكو حتى بريمين. ولكن التزامه بالموضة العالمية لم يثبط اعتقادا فيه أن من واجبه كصربي أن يقتل وأن يغامر بموته في شمال البوسنة هذا الموسم.

كرر ثانية وهو يجأر بصوته، ظنا منه أنني لم أسمعه في المرة الأولى «لقد حررنا رادوفاك» ورفع سبابته للأعلى فأومأت له فصاح «لقد كان قتالا صعبا ولكننا استعدناها». ثم عرفت فيما بعد من أحد ضابط الإغاثة في بانيالوكا ويدعى بيير أولبير ـ أحد الرجال الشجعان الكثيرين الذين قابلتهم في البوسنة وقد لقي مصرعه في الحرب ـ أن رادوفاك كانت دائما قرية مسلمة بالكامل. وحيث إن المقاتل الصربي من المنطقة فلابد أنه يعرف الحقيقة كما أبدى أولبير وهو يهز كتفه، ورغم ذلك فبالنسبة للصربي فإن هذه الاعتبارات ثانوية فمسلموا رادوفاك لم ولن يستطيعوا أن يكونوا سكان القرية الحقيقيين. فمهما طالت إقامتهم فلن تكون طويلة بما يكفي حسب تفسير الصرب للتاريخ. كان ذلك شكلا آخر للقصة نفسها في كل مرة يهاجم الصرب مكانا ما. فإذا كانت المنطقة محل النقاش غير مليئة بالصرب الذين يضطهدهم أو يقتلهم المسلمون فإن الصرب يحاولون فقط حماية المناطق الصربية في المنطقة. بهذا كان كارادزيتش يبرر قصف سراييفو طوال الحرب عندما أصر بوجه مكشوف أنه ليس هناك حصار فالقوات الصربية فقط تحاول أن تحمي الصرب الذين تصادف أن يعيشوا في جميع الضواحي حول المدينة. لقد قال كارادزيتش الشيء نفسه

تقريبا عندما أصبحت غوراجدة هدفا رئيسيا في أبريل ١٩٩٤ . وعندما لا تصلح أي من هـذه الادعاءات يرجـع الصرب إلى التاريخ ويصرون على أن المنطقـة محل النقاش كانت يـوما مـا صربية إلى أن قلبت مذبحـة مسلمة أو كرواتيـة مستقبلها الـديمغرافي السليم. ورادفاك مثال على هذا الأسلوب الأخير. فالمسلمون متطفلون وبداية لم يكن لهم أن يعيشوا في القرية.

كانت قوات صرب البوسنة ترسم تكتيكها حسب نوع المنطقة التي يحاربون فيها. ففرض الحصار حول سراييفو كان أحد الأساليب، أما في قرى البوسنة المختلطة عرقيا فلن يتمكن المقـاتلون من تنفيـذ التطهير العرقي بنجـاح بأنفسهم. فقد كـان عليهم تحويل موقف الصرب المحليين الـذين كانـوا مترددين في المشاركة في القتـال أو الذين عارضوا بصراحة في المشاركـة في الجريمة. كان الدافع الطبيعي لحفظ النفس هو أكبر حليف للمقـاتلين بشرط أن يستطيعوا استجماع الصرامـة الـلازمـة. وكانت إحـدى السبل المستخدمة أن تـدخل مجموعة من المقاتلين الصرب منزلا صربيـا وتأمر الرجل القـاطن فيــه أن يـذهب معهم إلي منـزل جـاره المسلم. وعلى مــرأى من القـرويين الآخـرين، يســاق إلى هنـاك ويستـدعى المسلم للخـارج ويعطـى الصربي بنـدقيـة كلاشنكوف أو سكينـا ـ السكاكين أفضل ـ ويؤمـر بقتل المسلم. فإذا فعل فقد اتخذ الخطـوة الـلازمة لعبـور الخط الـذي يهدف إليـه التشتنيك. أمـا إذا رفض، كما فعل كثيرون، فالحل بسيط. أن يتم قتله على الفور. ثم تكرر العملية مع الصربي صاحب المنزل التـالي وإذا رفض يقتل برصاصـة. ونادرا ما كـان يضطر التشتنيك لقتل صربي ثالث. وكما أخبرني مقـاتل في بوسانسكا كـروبا، ولشدة دهشتي، في طرب متبـاهيا بهذا التكتيك «عند البيت الثالث يـرتعدون هلعا ويسألونك أنى تريـد إصابة المسلم وكم مرة».

لكن في معظم الأماكن لم يكن يكفي هذا الصنف من الرعب البدائي، فالمطلوب كان شيئـا أكثر من التقتيـل وإشراك الناس في الجريمـة، وهو بث الخوف الشـديد. ومنـذ البدايـة، كان الخوف كـامنا في صميـم كارثـة البوسنـة. فقد كـان الخوف على المستقبل والذي بثه انهيار الاقتصاد اليـوغسلافي في أواخر الثمانينيات في قلوب الناس العاديين سببـا في أن يفقد كل شخص الثقـة في الآخرين، وبـدا أن الأفكار الـرجعية

حول الهويـة هي وحدها الملاذ من هـذا الخوف. فلم يكن الأمر مقتصرا على واقع أن الناس أحسـوا أنهم كانـوا صربا أو كـروات أو مسلمين قبل ذلك ـ أو أن شعـار تيتو «الأخوة والـوحدة» كـان فقط نفاقا مفـروضا ـ بل تمثل بـالأحرى في أن إفـلاس فكرة الوطن اليـوغسلافي الـواحد أو بمعنى أدق، ذبحـه على أيدي القـادة السياسيين من أمثال سلوبودان ميلوسيفيتش، هو الـذي بعث مثل تلك الطاقة الجديدة في مشاعر القـومية القـديمة والشكـاوى القـومية. فلم تكن القـوميـة العرقيـة أكثر حتميـة في يوغسـلافيا السابقـة مما كانت الهتلـرية حتمية في ألمانيـا في الثلاثينيات، كـانت أحد الاحتمالات ــ كانت حتميـة فقط بمعنى أن كل شيء يحدث فهـو حتمي من منظـور الإدراك متأخر.

بعد سنة من الحرب، ربما كـان باستطاعة المقـاتل الصربي الشاب أن يفصح عن هويتـه على هذا النحـو. ولكن عندمـا سألته عما إذا كـان قبل بدء القتـال يفكر على النحـو الـذي يفكـر بـه الآن ابتسم وهـز رأسـه: «لا» ثم قـال في تعجب: «كـان لي أصدقـاء مسلمون كثيرون. فـالشاب الـذي يملك هذا المكان مسلـم، حسنا أعني الشخص الذي كان يملكـه. إنه يعمل لدى الأمم المتحدة هنـا في بانيالوكـا. أحيانا أقول له: فرانزي، اخرج هذه البذاءة من هنا. كان شخصا جيدا من قبل. إنك ترى أن المكـان لطيف. وعنـدمـا أتيت إلي هنـا لم أعتقد مطلقـا أن مسلما يمتلكـه. كنـا أصدقاء»، وأربـد وجهه وهو يقول «ولكني لم أفهم أشيـاء كثيرة في ذلك الوقت. لقد ظننت أن المسلمين علي مايـرام. كنت أحد الصرب السـذج السفلة. كما تعلم إنكم تقولـون أيها الأجانب أننـا قتلة، وهـذا افتراء. لكني أقول لـك إننا حفنة مـن البلهاء الواثقين في الآخرين. فقد وثقنا في الأمريكان والأوروبيين ووثقنا في المسلمين كذلك، والآن نجد لزاما علينا أن نقاتل» وخفت صوته وقال «إنه أمر فظيع».

كان بالطبع يعني أن ماحدث للصرب هـو الأمر الفظيع. فلم يكن لديه تعاطف يضيعه على المسلمين أو الكروات، رغم أنه قال لي بالفعـل أنه سيدرك الكروات يوما أن الصرب كانوا علي حق مع المسلمين. ولكن مابعث فيـه الحيوية كان الخوف، وما جعلـه قـادرا على احترام نفسه كـان الاعتقـاد بأن كل شيء قـام بـه كان دفـاعـا عن النفس. لقد تكلم الغرباء ومثقفو البلقـان، بخصوص هذا الموضوع، كثيرا عن نزعة

بلقانيـة متأصلة إلى العنـف. ورغم كل هذا الكـلام الفضفاض، لم تكن البـوسنة في الماضي مكانـا عنيفا بشكل خـاص - على الأقل بـالمعايير العنيفـة للتاريخ الأوروبي. كان القرن العشرون استثناء مأساويا ولكنـه لم يختلف في البوسنة عن بولندا والناس لا يضمرون بالتساوي الخيـالات المتطرفة عن الشخصية القومية البـولندية. ورغم ذلك فإن القليل من الأفكـار أو الـولاءات ينقـرض على مـدى جيل أو جيلين. والقـوميـة العرقية هي واحـدة من تلك الأفكار، وقد انتصرت في البوسنـة عام ١٩٩٤ . وكانت الفكرة الأخرى هي التعددية الثقافيـة في سراييفو - وهي فكرة استمرت على الأقل منذ الفترة التي أصبحت فيها المدينة ملجأ لليهود والسفارديم. لكنها قتلت في البوسنة في ذلك العام نفسه.

ولا يعني هـذا أن انتصار القـوميين العـرقي كان حتميـا. فقـد كسبوا في صربيـا بسبب ما فعلوه وبسبب ما لم يفعله الآخرون - وبخاصة في الغرب - وليس لأن التار يخ كان إلى جانبهم. كسبوا لأن سلوبودان ميلوسوفيتش كان بكل المقاييس أقوى سياسي في يوغسلافيـا السابقة ولأن فكرة صربيا الكبرى كانت متماسكـة بصورة جعلت فكرة دولة البـوسنة لا تنجح في التبلور ولأن الجنرال ميـلاديتش كان يملك مائة آليـة ثقيلة مقابل كل واحـدة لدى الجانب البوسني. كـذلك كسب صرب البوسنة لأنهم عـرفوا كيف يستغلون المخـاوف والشكاوى القـديمة ويعيدون تجميعهـا وأن يجعلوا الصرب اللطفاء، وهم أناس من جماعة قومية ليس لديهم نزوع متأصل للجريمة أكثر من أي جماعة قـومية أخـرى، يرتكبون الإبـادة الجماعية. ثم كـان هناك ذلك الخوف الصربي المريع. وكما حذر هـربرت أوكـون، وهو دبلومـاسي أمريكي أصبح نـائبا لسـايروس فانس في كل من مفاوضات السلام الكرواتية والبوسنية، رادوفان كارادزيتش قبل بدء القتال قـائلا «إذا استمريتم في الكـلام عن الخوف من الموت الذي يحيـق بالصرب في البوسنة فستنتهون إلى ارتكاب مذبحة جماعية وقائية».

وبمجرد أن بدأت تلك المذبحة الجماعية كان لابد من تغذية الخوف. ولو لم تبذل قيادة صرب البـوسنة جهـدا خاصا في الـدعايـة فقد كـان يحتمل على الأقل أن يكون الصرب العاديون أقل حرصا على الاستمـرار في جولات أكثر من التقتيل والطرد، بعد أن هزموا قوات الحكومة البوسنية واستولوا على الأراضي التي لقنوا أن يشتهوا تملكها في

الشهـور الستـة الأولى من القتال. ، لكن إذا مـا ظل كل مسلم حي مصـدر تهديـد فـلابد إذن أن يستمـر التطهير العرقي. إن مـا بـدأ على هيئة تكتيك لمذبحـة ورعب محض في القرى تطور خلال ستة شهـور إلى منهج مدروس لدمار شعب. ففي شمال البوسنة، عام ١٩٩٢، تم تقسيم الرجال المسلمين الذين أخذوا سواء أثناء الحرب أو أثناء فترة التطهير العرقي إلى ثلاث مجموعات. فالمهنيون والوجهاء المحليون والشباب القادرون جسمانيا كانوا يفصلون وحـدهـم عادة ويقتلون على يد مقاتلي الصرب الذين اعتقدوا أنهم ينتقمون لأعمال المسلمين الوحشية التي كانت السلعة الرائجة في تقارير المذياع والتلفاز. فأنت إذا قيل لك مرارا وتكرارا أن رفاقك يخصون ويشوون أحياء على النار المضرمة ويغـرقون في دمائهم، وليست لديك مصادر أخرى للمعلـومات تعرف منها قصـة مختلفة، فإن النتيجـة المحتومـة أنه لن يمـر وقت طويل حتى تـرد الصاع صاعين.

ومن جانبهم، لم يكن قادة الصرب يتصرفون عن رغبة محضـة في الدماء. فعندما يأمرون بموت أكبر عدد ممكن من المسلمين المثقفين، فإنهم كـانوا يريدون أن يضمنوا أنه مهما حدث فإن أيـة دولة بوسنية مستقلة ستكون بقدر المستطـاع ثكلى من الرجال الـذين يمكنهم أن يجعلوهـا تعمل بكفـاءة. ويمكن استنتـاج نجاح تلك الحملـة ـ والتي أسماها الصحفي البريطـاني مايكل نيكلسـون «إبادة النخبة» -من حقيقـة أنه بصرف النظر عن آلاف قليلة من الـلاجئين من الطبقة المتوسطة الـذين اتخذوا طريقا إلى زغرب والعدد القليل الذي ذهب إلى المناطق التي تسيطـر عليها الحكومة البوسنية فإن فئات المهنيين المسلمين في بوسـانسكا كراييناً قد اختفـوا عن بكرة أبيهم، والذين لم يقتلوا في تلك المفـرزة المهلكة كانـوا يقسمون إلى مجمـوعتين. فالأولى، التي لم يكن الصرب قد اتخذوا فيها قـرارا بعد، كانوا يحجـزون في ذلك الوقت في ما كـان يعرف بـ «معسكرات الاستخبـارات» ثم يقتل بعضهم بعد ذلـك ويفرج عن الآخريـن. وأما المجمـوعة المتبقيـة والتي يتكـون معظمهـا من الفلاحين وأهـل المدن الفقراء فيتقـرر الإفراج عنهم منذ البدايـة ويوطنون فيما كان يسميه الصرب أحيانـا «المراكز المفتوحة» والتي كانت عمليا عبارة عـن معسكرات يسمح لممثلي اللجنة العليا للصليب الأحمر بـزيـارتها. وفي تلك المعسكـرات بـدا أن القليل من المقـاومين المسلمين البـاقين قـد

استسلموا لفكرة أنهم سيغـادرون البوسنة للأبد. وبعيدا عن تشكيل طـابور خامس محتمل، مثلما تصور الصرب، فإن المسـاجين الذين قابلناهم نحن الصحفيين كـانوا مهتمين بما إذا كانت أي دولـة ستمنحهم حق اللجوء، فقد كـانوا يعرفون أن كـرواتيا مغلقة في وجوههـم والآن يعلق الكثيرون آمالهم على دول أوروبا الغربية حيـث يوجد عمال بوسنيون. ففي معسكـر ترينوبولي كان الرجـال الذين قابلتهم متراصين خلف الأسلاك حيث كـانوا يرون مـزارعهم بأعينهم. لكن ما كانـوا يحلمون به هـو الفرار. صـاح رجل في متـوسط العمر متجهم الملامـح في مجموعـة من الصحفيين الأجـانب كنت أسافر معهم «لي أخ في ألمانيا! وهذا عنـوانه. هل تظنون أنه يمكنكم أن تأخذوا رسالة له؟». عنـد خروجنا من المعسكر سمعنا القصة نفسهـا مرات في ألمانية ركيكة وفرنسية ركيكة وهـولندية ركيكة وإيطالية ركيكـة وكانت اللعنات تطلق على الحراس باللغات نفسهـا. كانت الحرب في البوسنة، وفي كرواتيـا قبل ذلك، حربا بين العمال والمنفيين والمهاجرين السـابقين. ولكن معظم هؤلاء الرجال لم يسبـوا ولم يشتكوا، بل وقفوا في بساطة كما يفعل المساجين.

لكن بالنسبة لمرافقنـا الصربي كان هؤلاء الثلاثة آلاف مسجـون القذرين عديمي الأخلاق يمثلون طليعة حشد مسلم اجتاحوا تقريبا الأمة الصربية التي كانت غلطتها الوحيـدة، كما كررها لنـا كثيرا خلال اقتيادنـا من بانيـالوكا إلى المعسكـر، أنها كانت متسامحة أكثـر من اللازم وموافقـة على السماح لجماعات قـومية أخرى أن تـزدهر على حساب الصرب. وخارج قـرية على طول الطريق الضيق قرب المعسكر أكـد لنا هذا الشاب -كان مراسـلا مبتدئا في الجريدة الرئيسية في بانيالوكـا قبل تجنيده- أننا سنري أن المسجد في تلك القريـة ترك سليما رغم القتال. قال «إن أي منـزل مسلـم رفع راية الـولاء البيضاء لم يمسـه جنودنـا. دار القتـال فقط لأننا هـوجمنـا من المجاهـدين». بـالتأكيد كـان للعلم الأبيض في البوسنـة معنـاه نفسه في أي مكـان آخر من أوروبـا -الاستسـلام- ولكنه استرسل في خطبتـه الطويلـة نوعـا مـا عن الوحشيـة الحيوانيـة للمقاتلين المسلمين. وقال في تجهم «إن الأسوأ هي الهندزار» وهي كلمة ارتبك المترجم حتى استطاع أن يترجمها أخيرا «نوع من سكاكين المسلمين».

تعني كلمـة هانـدزار السيف المعقوف وبـاستخدامها لم يكـن الدعـاة الصربيون

يركبون فقط موجة الهستيريا السائدة بين صرب البوسنة والمعادية للمسلمين بل كانوا يحاولون كذلك أن ينكؤوا جراح الحرب العالمية الثانية. وإذا كان الشباب قد سمع عنها فذلك عن طريق أجدادهم. كانت الهندزار إشارة إلي معركة كوسوفو بالطبع ولكنها كانت كذلك تلميحا إلى فيلق هندزار الذي كونه مفتي القدس للألمان في البوسنة عام ١٩٤٣. ورغم أن كثيرا من مسلمي البوسنة حاربوا مع أنصار تيتو ولقوا أكبر الخسائر، بالنسبة لتعدادهم، عن أي مجموعة قومية في البوسنة أثناء الحرب، ومعظمها على أيدي قوات التشتنيك الملكية الصربية بقيادة جنرال ميهيلوفيتش فقد ظلت تلك الذكرى المريرة عالقة عند الصرب. والآن يغذى بها الأولاد سهلي الانخداع، الجيل البعيد عن الأرض، مثل مرشدنا في معسكر ترينوبولي ذلك اليوم.

عندما دخلنا القرية كانت هناك أعلام بيضاء فوق المنازل وحتى على كومة أخشاب مكدسة في حقل قريب. وكما في كثير من المدن البوسنية حيث عاش -قبل الحرب- الصرب والمسلمون في سلام على مدى جيل على الأقل، كانت منازل المسلمين هي التي تحولت إلى كومة أحجار بفعل القصف أو اخترقتها الطلقات في حين ظلت بيوت الصرب قائمة لم تمس: بيوت المسلمين التي بدا أنه قد أضرمت فيها النيران بعد إصابتها بالرصاص وبيوت الصرب التي لم تكن تبدو شاذة عن الكميونات الريفية المزدهرة في بعض الأماكن في النمسا أو سويسرا. كان شائعا في يوغسلافيا بين العمال الزائرين أن يعودوا إلى قراهم كل صيف ويبنوا جزءا آخر من المنزل الذي من أجل الحصول عليه ذهبوا إلى الخارج ليوفروا ثمنه. تلك المنازل غير الكاملة وقفت، وغالبا محاطة بالسقالات وأكوام الطوب بين المنازل الجاهزة. بلغنا المسجد وكان مدمرا فقد زال السقف وهدمت المئذنة وفي غير تأثر قال مرافقنا «نعم هذه هي القرية حيث كان هناك قناص على المئذنة وكان على الدبابات أن تطلق نيرانها بالطبع وإلا مات أولادنا».

سأذهب إلى قبري معتقدا أن ذلك الجندي الصربي لم تكن لديه فكرة عن أنه قال لنا شيئا مختلفا تماما قبل دقائق قليلة. كان من المفروغ منه مع كارادزيتش أنه عندما يسأله شخص سؤالا، يكون الرد كذبة. كان الصحفيون يفترضون ذلك ويفترضون

كذلك أن كارادزيتش كان يعرف أنه يكـذب، على الأقل معظم الوقت. أما مرشدنا فكان شيئا آخـر. كان كل عالمه وهما ونتاجا لحملـة الدعاية المنظمـة بإتقان من قيادة الصرب. بدا وكأن الـرسالـة «فقط الوحدة تستطيع أن تنقـذ الصرب» كانت حـاجزا للمعلومات المتناقضة. كان الصرب جيدون، ولذلك لا يدمرون مسجدا فإذا اتضح أن المسجـد مدمـر، فلابـد من سبب، ومـادام الصرب جيدون فـالسبب هو أنـه تم إطلاق النار على الصرب. وإلا فلماذا تكون المئذنـة حطاما؟ لقد تم في آن معا تطهير عقول الصربيين وأجساد المسلمين في البوسنة.

في معسكر ترينوبـولي ضحك المساجين عندما سألناهـم إذا كانـت هناك مقاومة في القريـة. قال لي فـلاح أشيب في فرنسيـة مفهومـة: «كانت المدينـة نائمـة وليست قانصـة. دخل الصرب القرية وبدأوا إطـلاق الرصاص. حاولنـا الاستسلام - تلك هي الأعلام البيضاء التي قد رأيتموها - ولكن كان هناك رصاص كثير أولا. ثم ذهبوا من منزل إلى منـزل يجرون الناس إلى الخارج. كان بعض الصرب الـذين قامـوا بذلك جيرانـا لنا، أنـاس عرفنـاهـم طـوال حياتنـا. من يعـرف؟ ربما أجبروا على مساعـدة الجنود. ثم جروا بعضنا بعيدا، وأعتقد أن معظم هـؤلاء قد ماتوا والبقية منا محجوزون هنا: أولا في أومارسكا وفي الشهر الأخير هنا في تـرينوبولي، وهكذا عدت من حيث بدأت ماعدا أن منزلي قد ذهب ولا أعلم أين أولادي».

سألته إن كـان سيعود إلى بيته إذا سمح له بـذلك فقال «أبدا، البوسنـة بلد ميت على الأقل بالنسبة للمسلمين. إنها صربية الآن. . إنني مستعد تماما أن أوقع بتسليم أرضي للتشتنيك لأنه ما الفائدة من التمسك بشيء مفقود سلفا؟».

الفصل السادس

في البوسنة والهرسك، وكما لاحظ دافيد أوين ذات مرة، «لا يتحرك الوقت للأمام، بل يتقهقر». في نهاية كل فترة قضيتها في البوسنة، كنت أغادرها وأنا أتصور أن الأمور لايمكن أن تصبح أسوأ من ذلك، لكني كلما عدت مرة أخرى، عادة بعد غياب لا يزيد عن شهر إلى ستة أشهر، كنت أكتشف أنها تطورت إلى أسوأ. إن القدوم إلى الحرب البوسنية هو أشبه بالوصول إلى فراش تحتضر فيه بلد. كان كل شيء يبدو وقد أصبح أسوأ بصورة دائمة. وكانت هناك أوقات شابهت التجربة فيها زيارة الصديق أصابه الأيدز. وذلك لأنه حتى في فترات الهدوء النسبي، كان المرء يعرف إلى أين تؤدي الأمور: فعلى المدى البعيد لا يلوح أي أمل على الإطلاق.

ولم يكن الغرباء عن المنطقة هم وحدهم الذين يشعرون بهذا الانزلاق إلى الهاوية. فقصة البوسنة مثلت إلى حد بعيد قصة تبتعد عن الحل أكثر فأكثر. فعلى المستوى السياسي، هناك مشهد الفاعلين الدوليين الأساسيين في الأزمة الذين أصروا في بداية الأزمة على أن البوسنة دولة شرعية يتعين الحفاظ على وحدة أراضيها على الشكل الذي كانت توجد به وقت اندلاع القتال. لكن ما إن بدأ الجنرال ميلاديتش يعرب عن رأيه الواضح لكل إنسان في أنه لا يوافق على قرارات الأمم المتحدة، حتى بدأ سخط المجتمع الدولي العاطل من أي فعل، وزمجرة الأمريكيين، ومناشدة المفاوضين، وبدأت لهجة واشنطن وباريس ولندن وبروكسل في التغير. وبدأ المفاوضان يكشفان كيف أن توقعاتهما قد تغيرت بالنسبة للصفقة التي كانا يحاولان إبرامها في البوسنة. وفي جلساتهما الخاصة، أوضحت المفاوضات أنهم افترضوا منذ البداية أن استعادة البوسنة لوحدة أراضيها مرة أخرى سيكون مستحيلاً من دون نوع ما من الضغط العسكري الغربي على الصرب. لكن في العلن واصلوا إصرارهم على أنه مازالت هناك بوسنة يتعين إنقاذها، بعد أن أصبح واضحاً بوقت طويل أن ما يجري مناقشته في واقع الأمر هو تقسيم البوسنة إلى ثلاث دويلات عرقية وليس الحفاظ عليها.

وفي بداية عام ١٩٩٣، وعند نقطة يمكن اعتبارها بحق لحظة متقدمة في القتال، أصر دافيد أوين بشكل مطلق على أنـه «لن تكون هناك جمهوريـة لصرب البوسنة». فلـو أنـه أمكن أن تقتنع كل الأطـراف بما اعتبره أوين وفـانس حـلاً يمكن أن يحسم النزاع رغم عـدم جاذبيتـه لأي طرف ـ والمتمثـل في خريطة تقسم بمـوجبها البـوسنة والهرسك إلى مجموعـة من الكانتـونات يجري تخطيطهـا طبقاً للأغلبيـة العرقيـة فيها، وتخضع لسلطـة حكومـة مركـزية ضعيفة في سـاريفو ــ فسوف يمكـن الحفاظ على البوسنة. ولم يكـن هذا الحل مثالياً بحـال، وهو مااعترف به المفـاوضان في جلساتهما الخاصة ــ عندما قـال أوين: «إنه سلام مـن قلب الجحيم» ـ لكنها وفـرت قدراً من العـدالة. على أن الحكـومـة البوسنيـة ضيعت تلك الفـرصة، لأنها لم تكن قـادرة في البـداية على قبـول تقسيم يضفي الشرعيـة على التطهير العرقي، ثم بعـد ذلك بتأثير الانطبـاع الـزائف والمأسـاوي بأن من الممكن حـدوث تـدخل أمـريكي. وكـان الأمريكيـون، وبالـرغم من أنهم لم تكن لديهم نيـة للتدخل، لم يكـونوا راغبين في أن يبدو في العلن مُقِّرين بهزيمة بوسنية من خلال المراهنة بكل الأوراق على خطة فانس وأوين، التي ضحت ـ وأيا كانت الأشياء الأخرى التي سببتها ـ بمبدأ حق البوسنة، وهي الحكومـة الشرعية، في تأكيـد ذاتها كدولـة، لصالح استقـلال ذاتي لكانتـونات عرقية. أما البوسنيون فكـانوا مستعدين للموت في سبيل دولتهم ومبادئهم، وفضلت إدارة كلنتون أن تتركهم يفعلون ذلك ــ ولم توضـح أبداً ما هي الحدود الفعلية لتورطها في ذلك ـ بـدلاً من أن ينظر إليهـا على أنها تحرض على التطهير العرقي أو تتراجع عن الوعـود المثيرة بتقديم المسـاعدة للبوسنـة التي قدمهـا المرشح الرئاسي كلينتـون خلال الحملة الانتخابية عام ١٩٩٢ من أجل إرباك جورج بوش.

لكن هل كان بإمكـان خطة فـانس ـ أوين أن تحقق النجاح لـو جرى تنفيـذها؟ ذلك سـؤال محل خـلاف. فقد كـان من المفترض أن تبـدي القـوى الدوليـة الكبرى استعدادهـا لحشد أعداد كبيرة من القوات ــ خمسين ألفاً في التقدير الأكثـر محافظة، تدعمها أعداد كبيرة من قوات الشرطة المدنية والمختصين القانونيين والفنيين ـ كما كان عليها أن تكون مستعدة لاستخدامها لـردع صرب البوسنة. وفي ضوء ترددها فيما تلى من أحداث فإن الفرص التي كان يمكن لهذه القوى الـدولية أن تتخذ فيها إجراءات

حاسمة بدت ضعيفة للغاية، ومن المؤكد أن هناك أشخاصاً كثيرين في بلغراد كان رأيهم أن من الأسلم لصرب البوسنة أن يوقعوا على الخطة لأن القوات الغربية من الممكن ألا ترسل فعلياً أبداً إلى البوسنة. وقد أخبرني ميهايلو ماركوفتش، أحد الأيدولوجيين الرئيسيين لنظام ميلوسفتش، ذات مرة أن الرئيس الصربي أكد له في مايو ١٩٩٣ أن الأمريكيين لن ينشروا قوات حفظ السلام البالغ عددها ما بين خمسة وعشرين ألفاً وثلاثين ألفاً التي وعد بها كلنتون، وأضاف ماكوفيتش: «كنت أشك في صحة هذا الكلام ساعتها، لكن في ضوء ما رأيته من سلوك للإدارة الأمريكية فإنني أميل إلى القول إن ميلوسيفتش كان على حق».

على أن فانس وأوين لم يكن بمقدورهما إقناع حكومة الولايات المتحدة بحثّ البوسنيين على إعلان سريع بقبول الخطة. وقد رأى المفاوضان أن أفضل فرصة جاءت في أواخر يناير ١٩٩٣، لكنها انهارت عندما سحب وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر ــ وكان قد أكد لفانس التأييد الأمريكي للخطة في لقاء بينهما عقد في أول فبراير ــ هذا التأييد دون إبطاء. وتم إحياء الخطة مرة أخرى في بداية الربيع، بل ووافق عليها ميلوسيفتش بصفة نهائية، جزئياً للأسباب التي قدمها ماركوفيتش. لكن عندما عرضت الخطة على برلمان صرب البوسنة في «بالي»، طلب الجنرال ميلادتش من النواب أن يرفضوها، وهو ما فعلوه في حينه، وأجهز هذا الرفض على أي أمل في إقرار خطة فانس ــ أوين. وفي أعقاب الرفض مباشرة استقال فانس، ونائبه القدير، هربرت أوكن، تجنباً للتفاوض على اتفاق آخر يعلمان أنه سيكون غير مبرر أخلاقياً. أما أوين، فلم يقدم استقالته، وراجت نكتة عنه في البوسنة تقول أن الدكتور «موت»، كما كان يسمى في البوسنة، كان مسؤولاً عن تدمير حزبين سياسيين بريطانيين ودولة بلقانية صغيرة. وفي الفترة التي أعقبت فشل خطة فانس - أوين، كان أوين يبدو بالنسبة للكثيرين منا، على أنه يكرس جهده للقبه وشهرته. وقد وصف أوين دافعه، بطبيعة الحال، «بالواقعية»، لكن ما انتهى إلى تقديمه، سواء بإرادته أو لأنه لم يكن يرى خياراً آخر، لم يكن سوى كفالة المزيد والمزيد من التنازلات لصرب البوسنة. والغريب في الأمر أن أوين كان يرى بوضوح ما الذي يفعله. فقد قال ذات مرة: «ليس هناك شيء يستحق الفخر فيما نفعله، ولن تكون

هنـاك في أي وقت قريب التسـويـة التي يمكن أن أستحسنهـا». وهو مـا يثير ذلك السؤال الواضح: «لماذا لم تستقل؟».

لقد كـان أغلب منتقدي خطة فـانس ـ أوين، بما في ذلك كاتب هـذه السطور، يعتقدون أنه لا شيء يشرف في ما حوته تلك الخطة. لكن خطة فانس أوين أصبحت تبـدو، وبعد أن سلمت كـل الخطط التي تلتها بتقسيم البـوسنـة بحيث لن يبقى في النهايـة منها تحت هـذا الاسم سوى شريحة محدودة المسـاحة، أصبحت تبـدو وبرغم كونها غير عـادلة أفضـل ما يمكن أن يحصل عليـه البوسنيـون اليوم. ولأن الحكـومة البوسنية، ومعهـا مؤيديها الخارجيين من أمثال كاتب هذه السطـور، رفضوا الإذعان على أمل التدخـل الغربي، فقد مُنينـا بالتقسيم. وبحلـول عام ١٩٩٤ كـان السؤال الوحيـد المطروح هـو بموجب أي خـريطة وبـأي ترتيبـات دستورية مـؤقتة يتـم هذا التقسيم. وأصبحت مقولة أن رادوفان كارادزيتش يمكن أن يقيم اتحاداً، في غضون فترة قصيرة، بين جمهوريـة صرب البوسنة ويوغـوسلافيا سلوبـودان ميلوسيفتش هي النتيجة المحتـومة إلا إذا قرر ميلوسيفتش غير ذلك. أمـا ما يتبقى بعد ذلك لمنـاقشته فهو ما إذا كان أيـة دولة بوسنية قابلة للنمو أو الاستمـرار اقتصادياً أو اجتماعياً يمكن أن يسمح لها بالبقاء، أو ما إذا كانت البوسنة كلها ستصبح صورة مكبرة من الجيوب الشرقية مثل سربـرنيتشا وغورجـداه «قطاع غزة» آخر مُكبَّر، غير قـادر على الاستمرار اقتصادياً أو عسكرياً، ومعتمد على المساعدة الدولية في كل شيء، وتحت رحمة صربيا وكرواتيا.

لقد كشفت الكارثة عن نفسها على مـراحل. ولم تكن الكارثة تتعلق، كما حدث في رواندا في ربيع ١٩٩٤، بقتل مليـون شخص وتشريد عـدة ملايين خـلال أسابيع قليلة، في عملية إبادة جماعية بالغـة الشراسة والسرعة. بل وقعت المذبحة في البوسنة كما لو كانت بالحركة البطيئة وتحت غطاء جهود تفاوضية وجهود عمليات إغاثة للأمم المتحدة دأب مسـؤولوهـا خلالها على الإصرار على أن تقـدماً يتم إحـرازه على كل من المستويين الإنساني والسياسي. وقد حجبت النجاحـات القليلة لتلك الجهود ـ سواء في ذلك نجاح قوافل الإغاثة التابعـة للأمم المتحدة في الوصول إلى بعض المناطق التي كانت مغلقـة على يد صرب البـوسنة أو نجاح قـوة الحماية التـابعة لـلأمم المتحدة في

ترتيب وقف لإطلاق النار في بعض المواقع ــ حقيقة أن لا تقدم حقيقياً تم إحرازه. لقد تم تخفيف بعض المعاناة بفضل الجهود البطولية من جانب القوات التابعة للأمم المتحدة والعاملين في قوافل الإغاثة، لكن الكارثة الإنسانية في البوسنة لم تكن سوى عرض من أعراض الكارثة السياسية. لقد كانت حلقة مفرغة. فالأمم المتحدة تمد الناس بالغذاء وتتركهم عرضة لقصف القنابل، ومجلس الأمن يعلن عن «مناطق آمنة» لا تعمد قوة الحماية إلى كفالة سلامتها كما لا تملك القوات التابعة للأمم المتحدة القدرة على ضمان هذه السلامة، وترسل قوافل الإغاثة ضباط حماية إلى الميدان معروف سلفاً أنهم لا يستطيعون توفير الحماية. لقد كانوا، كما تقول النكتة اللاذعة التي انتشرت في زغرب، «مثل الخصي في ليلة عربدة». ولم تثمر جهود قوة الحماية وقوافل الإغاثة إلا عن المزيد من الشعور بالامتعاض والإنهاك لدى أفرادها من جراء تنفيذ مهمة كان أغلب ضباطها الأكفاء يدركون منذ وقت طويل أنها يائسة.

وعندما تحدث الرجال في معسكر ترونوبولي باسسلام في خريف ١٩٩٢، عن كرايينا البوسنية كجزء من صربيا، كان لا يزال هناك ثمانون ألفاً من غير الصرب في تلك المناطق وكانت المساجد القائمة أكثر عدداً من المساجد التي تم تحويلها إلى أنقاض. وبعد عامين، كانت كرايينا البوسنية قد تم تطهيرها عرقياً إلى الحد الذي أصبحت معه إمكانية أي عودة لحياة مجتعية للمسلمين هناك من دون استخدام القوة المسلحة بمثابة وهم غير قابل للتحقق. وعندما سقط جيب سربرينتشا في أيدي الصرب في أبريل ١٩٩٣ ــ وهو الحدث الذي أدى إلى تبني مجلس الأمن لقرار الملاذات أو «المناطق الآمنة» ـ لم يتخيل سوى قلة من الناس أنه بعد حوالي عام سيترك جيب غورجده عرضة للسقوط بالطريقة نفسها.

ومع كل جريمة للصرب، كان من المفترض أن تكون الفظاعة قد بلغت منتهاها. فلقد مثل التطهير العرقي في المدن الشرقية للبوسنة، مثل «زفورنيك» في مايو ١٩٩٢، ما بدا وكأنه الدرك الأسفل لتلك الفظاعة، لكن الصحفيين كشفوا حينئذ عن وجود المعسكرات وعن التطهير العرقي في كرايينا البوسنية خلال ذلك الصيف وبداية الخريف. وبدا اكتشاف معسكرات بالقرب من بلدة فوكا القريبة من ساراييفو في بداية عام ١٩٩٣ غير قابل للتصديق. ثم اتضح بعد ذلك أن

الصرب يستخدمـون الاغتصاب سـلاحاً في الحرب في كل مناطق البـوسنة، كـوسيلة لإرعاب السكان المسلمين ودفعهم إلى الهرب ومن ثم يحققون الهدف الأساسي للحرب الصربيـة والمتمثل في التطهير العرقي. ولم يكتف ضبـاط قـوة الحماية التـابعة لـلأمم المتحدة بتأكيـد أنه لا يـدخل ضمن اختصاصهم مساعـدة النساء البـوسنيات، بل رفضو رفضاً بـاتاً التحقيق في الدعاوى المتكررة بأن جنوداً معينين تـابعين لقوة الحماية قامـوا بممارسة الجنس مع النسـاء المسلمات البوسنيات الأسرى. وإذا كـانت الحقيقة المدعـاة ـ في حـالـة صحتها ـ بأن التفسير المرجح لـذلك هـو أن الجنود الصرب قـد استبقـوهم لمدة سـاعـة في «ماخـور مخصص للعسكـريين»، يمكن أن تقبل كعـذر لسلوك الجنود الأفراد، فإنها تعفي قادتهم من المساءلة.

وسرعان ما اتضح بعد ذلك أن رفض الأمم المتحـدة لتحمل المسؤولية بجدية عن الانتهاكـات المرتكبة من جـانب أفراد عاملين في صفـوفها كـان خطأ يرتبط بـالجهاز ذاته. فقـوة الحماية الـدولية، وكما يـوضح مسؤولـوها بـاستمرار، يرتبـط تقييم أدائها لمهامهابالبوسنة بـالتفويض الصادر عن مجلس الأمن في نيويورك، ومن ثم فبإمكانها أن تفعل ما تراه منـاسباً دون محاسبة من أحد، بل والأكثـر خطورة أن مسؤولي الأمم المتحـدة في البوسنـة لم يكن لـديهم أي استعداد لقبـول فكـرة أنهم يمكن أن يرتكبـوا أخطـاء على الإطـلاق. إنهم يتكلمـون عن أنفسهم كما لـو كانـوا آلات لا كـائنـات بشريـة. فإذا ما تصرف جنـدي تـابع لهم بطريقـة سيئـة فإن تلك، وكما يقول كبـار مسؤولي قوات الأمم المتحدة، هي مسؤولية الحكومة المعنية. وإذا ما اتسمت سياسة ما بـاللا أخلاقيـة فتلك غلطة «التفويض». وعنـدما تظهر المسـاوىء أو التصرفات الخاطئة في دائرة الضوء، فإن الأمم المتحدة تتحـرك بسرعة لكي تبرىء نفسها من أي اتهام بانتهاك لحقوق الإنسان أو الفسـاد المنظم من جانب العاملين في صفوفها في أي منطقة من المنـاطق التي تشملها مهـامها في البوسنـة. ولقد تم إرسال لـواء نمساوي اسمـه جونثـر جرينـدل لمساعـدة يـاسوشي آكـاشي، الموفد الجديـد ممثلاً شخصيـاً للسكرتير العام للتحقيق في الاتهامات بالفساد. وقبل ذلك بشهور قليلة كان أكاشي يدير عملية الأمم المتحدة في كمبوديا ومـا كان يعلمه عن الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقـة كان عن طريق التقـارير. ومن نـاحيته كان جـريندل، وهو قـائد سابق في

قوات الأمم المتحدة في قبرص، خبيراً في عمليات حفظ السلام. وكان معظم الغرباء يرون أنه يفتقر تماماً إلى نوع الموضوعية المطلوب لتناول الموضوع بحيادية. لقد كان الأمر مثل شرطي يطلق نيرانه على شارع في مدينة ثم تتم محاكمته من خلال مجلس يتكون بكامله من رجال شرطة. ولم يكن مدعاة لأي دهشة ألا يتحدث جريندل إلى الصحفيين، وقد اعتاد بعض المحليين ـ بل أنه حتى في سراييفو اعتاد المحليون المطلعون ـ أن يقولوا: «خمر حمراء وعوازل حمل من الفرنسيين، وكافيار وديزل من الأوكرانيين». وهو لم ير مطلقاً البغاء الذي كان واضحاً حول معظم ثكنات الأمم المتحدة في المدينة وبدا غير مدرك لواقع أن معظم الصحفيين، وأنا منهم، كنا نشتري بنزين السوق السوداء من جنود قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة الخيرين من مختلف الجنسيات. قال جريندل في تقريره إنه بالرغم من وجود بعض الحالات الفردية للفساد فلا يوجد أي فساد منظم داخل أي من قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة بما فيها سراييفو.

لكن فساد الأمم المتحدة كان أهون ما في الأمر، فلو أن جنود جيش محتل تصرفوا فقط بفساد (ورغم كل تظاهرهم بأن وجودهم في البوسنة كان لمرافقة المعونات الإنسانية فقد كانت قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة وبخاصة في سراييفو، جيش احتلال باستثناء قوة واحدة حميدة نسبيا) لاعتبر السكان المدنيون أنفسهم سعداء الحظ. ففي البوسنة على الأقل لم يذبح جنود قوة الحماية المدنيين، كما اتهمت العديد من منظمات حقوق الإنسان الدولية أفراداً من كتائب الأمم المتحدة بذلك في الصومال. كانت جرائم الحرب والحرمان والتدهور المستمر للوضع السياسي هي التي تتلاحق بلا هوادة. كان الناس في البوسنة، والذين يعيشون أوقاتاً عصيبة ـ يرددون كثيراً ـ ولو بعد شيء من التفكير «حسناً، فعلى الأقل لقد عشنا الأسوأ». ومع ذلك فالشيء الذي يمكن التيقن منه في البوسنة هناك أسوأ قادم في الطريق. وإذا ما كانت الكارثة لم تتزايد مادياً بصورة أشد ـ كانت هناك أوقات تخف فيها حدة القتال أو يعبر المزيد من المعونة الإنسانية إلى منطقة محددة ـ فقد كان من المؤكد حدوث ذلك أخلاقياً ونفسياً. إن السفر عبر البوسنة يعني أن تواجهك على الفور الحقيقة التي كانت قابلة للقياس إحصائياً وجديرة بالإذاعة الإخبارية وهي: الجثث والقرى والمدن

المدمرة وجنود الصرب غير النظاميين المنتشين بالنصر، واللاجئين الفعليين والمحتملين المنتشرين في كل مكان.

لكن استخلاص معنى ما كان يدور في البوسنة كان معناه أن تواجه الكارثة الأخلاقية التي صاحبت الكارثة المادية والسياسية. وبمرور الوقت سارت هذه الكارثة نحو الأسوأ. فقد كانت البوسنة قبل الحرب دولة غنية نسبياً، حتى ولو كان ذلك بسبب عدم توفر الكثير ليشتريه الأشخاص العاديون بعد وجود المنزل والسيارة . وعندما بدأ القتال كان لدى عدد كبير من البوسنيين بعض العملات الأجنبية غطت مصاريفهم إلى حد ما خلال الشهور الأولى من القتال. ولكن بعد ستة شهور، ثم سنة ثم سنتين فقد استنفدت النقود أخيراً. وكان من آثار ذلك ليس فقط الضنك للعائلات بمفردها بل انهيار الحياة التي تعود الناس عليها. وبالطبع فقد استمرت الحياة المدنية في البوسنة، فالناس يتزوجون ويطلقون ويقيمون الدعاوى وينجبون الأطفال ويوقعون عقود الإيجار ويعزفون الجيتار. ولكن في مجتمع صناعي مثل البوسنة لم يعد هناك معنى لذلك من النوع من العمل المكتبي الذي كان يمارسه غالبية سكان المدن.

وقد يواجه الموظفون المكتبيون رصاص القناصة في سراييفو، وقد يظهر عمال المصانع في مصانعهم في زينيكا. ولكن عندما يصلون إلى هناك هناك لم يكن هناك شيء حقيقي يفعلونه. فقد كانوا يجلسون معظم الوقت لفترة وغالباً في أماكن ثقبتها نيران القذائف ويجمعون المؤن التي يسمح لهم بها لذهابهم إلى العمل ثم يعودون لمنازلهم.

قال لي كثير ممن قابلتهم في البوسنة أنهم وجدوا أن تحمل العيش أثناء القصف والقنص كان أسهل من محاولة التأقلم مع مجتمع وحشي جديد وجدوا أنفسهم يستوطنونه. ولم يكن الأمرمتعلقاً بواقع أنه لم يكن لديهم شيء حقيقي يفعلونه، بل يكمن في أنهم لم يعودوا يعرفوا دورهم. كان هذا المعنى أكثر حدة بصفة خاصة في المناطق التي تقع تحت إدارة الحكومة البوسنية حيث كان الصراع من أجل البقاء شديد الحدة، رغم أن الناس في المناطق الكرواتية أو التابعة لصرب البوسنة غالباً ما كانوا يعبرون عن كثير من الشكاوى المشابهة. ولأسباب واضحة كان الأمر أقوى ما

يكون في سراييفو المحاصرة حيث كانت مصاعب الناس في الذود عن أنفسهم أخطر ما يكون. كان سكان سراييفو يعتمدون على المصاعد وأنابيب الغاز والسيارات وخطوط الترام والأسواق المركزية والكهرباء مثل أي سكان مدينة حديثة متقدمة. وعلى حين غرة نزع منهم كل هذا. ومع ذلك ولأنهم محاصرون، فلم يكونوا يستطيعون الهرب إلى مناطق لا يضطرون فيها إلى صعود خمس عشرة درجة من السلالم حاملين وعائي ماء أو يمشون ثلاثة كيلو مترات إلى أقرب مركز لتوزيع الأغذية. لقدأضافت الدرجة التي تحولت بها البيئة التي ترعرعوا فيها فجأة لا بيئة متسمة بالخلل الوظيفي فحسب، بل بالخطورة كذلك، أضافت المزيد من الصعوبة إلى الصعوبة التي عانيها الناس في مواجهة ما يحدث لهم. . لقد خذلهم تمدينهم.

أما في وسط البوسنة أو في جيب بيهاتش أو في توزلا في الشمال الشرقي وهي بيئات كانت غالباً حديثة مثل سراييفو فعلى الأقل لم يكن هناك حصار. فقد كان يمكن الحصول على الإمدادات، رغم ضآلتها، من الريف المجاور وبخاصة لمن له أقارب في القرى. وقد شمل ذلك كثيراً من سكان المدن في البوسنة، حيث كان مثل الطابع الحضري ظاهرة جدَّت بعد الحرب العالمية أساساً. ولأن هذه الأماكن لم تكن محاصرة ولم تضطر إلى الاعتماد كلية على المعونات الإنسانية أو على السوق السوداء فإن الشعور بأنهم داخل جرة قاتلة، أياً كانت حدة ادعاءات الناس المبررة، لم يكن تقريباً في بقية «البوسنة الحرة» بمثل حدته في سراييفو. وكانت بعض أكثر المناطق عزلة هي الأكثر اكتفاء ذاتياً. وقبل أن تبدأ قوات صرب البوسنة هجومها على غوراجده في أبريل ١٩٩٤، مقلصين الجيب أخيراً من ثلاثين كيلو متراً مربعاً مع عدد من القرى إلى مساحة نصف قطرها ثلاثة كيلومترات من مركز المدينة، لم يكن لدى سكان القطاع الستين ألفاً فقط كفايتهم من الطعام، بل كانوا يستطيعون كذلك إرسال الإمدادات إلى قطاعات وادي درينا الأخرى، سربرينتشا وجيبا.

ولكن لم يكن الأمر متعلقاً في الغالب بمجرد مسألة ما فعله حرمان الناس من اكتفائهم المادي في أخلاقياتهم. فلم تسر الأمور دائماً على النحو الذي كان يمكن توقعه. فبعد أن قلص الصرب سربرنتشا إلى حظيرة كبيرة تأوي المسلمين فقد أصبحت مكاناً تحللت فيه الأخلاقيات حيث كانت الفتيات يقدمن أنفسهن للغرباء

من أجل بضعة سجائر. ولكن كانت هناك أماكن أخرى في البوسنة وبخاصة شرق موستار الذي كان تحت سيطرة حكومة البوسنة وضاحية دوبرينيا في سراييفو - التي عزلت عن المدينة تماماً لتعاني من حصار داخل الحصار - حيث لم تفرز الندرة والخطر الشديد الفساد بل النظام والعزيمة الفولاذية. ففي شرق موستار، على سبيل المثال، كان كل شيء مقنناً إلى آخر جرام من الطحين. وكانت هناك فترة في ١٩٩٣ في سراييفو - عندما أصاب عناصر من جيش البوسنة سعار القتل مروعين الناس الذين من المفترض أنهم يحمونهم - عندما فكر قليل من سكان المدينة جدياً في الرحيل إلى ما تندروا بتسميته «جمهورية دوبرينيا الشعبية» للهروب من العصابات والمتهزين الذين سيطروا على معظم أحياء العاصمة. قال لي صديق في ذلك الوقت: «من المحتمل أن تقتلني رصاصة من التشتينك هناك ولكنني على الأقل لن أخاطر بأن يسرقني بعض الشباب مستخدمين الكلاشنكوف في كل مرة أغادر خارج عتبة بيتي».

لقد تمثلت الحقيقة في أنه بشكل أو بآخر استطاع القليلون الإفلات من الفساد الذي صاحب كارثة البوسنة. وكانت السوق السوداء والعصابات هي العلامات الأكثر وضوحاً للمشكلة. كان هناك كذلك الفساد الفكري الذي ولده تحول وسائل الإعلام لدى كل الأطراف إلى أدوات للدعاية. وحتى صحيفة «التحرير» التي كانت رمزاً بطولياً للمقاومة البوسنية لم تنج من ذلك. فمع استمرار القتل، بدأ محررو الجريدة يرون أنهم أصبحوا ملزمين أكثر وأكثر بمساندة حكومة البوسنة على طول الخط. والواقع أن صدور الجريدة كان بمثابة معجزة. فقد دمر مبنى مقرها الرئيسي العالي الحديث والواقع على بعد ٥٠ متراً من الخط الأمامي لصرب البوسنة. وكان محرروها وعمال الطباعة يعملون داخل ملجأ القنابل الذرية في سرداب حطامها. وتحت تلك الظروف لم يكن من الغريب أنه رغم محاولة نظام عزت بيجوفيتش تحطيم استقلال الجريدة السياسي قبل عام من بداية القتال، فقد شعر محرروها أن عدم فعل أي شيء يقوض جهود الحرب يأتي في أولويات الأمور. وإذا كان ذلك يعني إفقار اللغة التي يكتب بها المراسلون - في قصص الجريدة كان الصرب دائماً هم المعتدون الفاشيون وكان طرف الحكومة البوسنية هو «البطل» بشكل ثابت - فلم يكن ذلك مجرد ثمن بسيط يدفعونه بل كان كذلك واجباً رغم كل شيء، الجريدة الوحيدة التي

تصدر في سراييفو.

وبشكل ما كان محررو جـريدة «التحرير» على حق، فقـد كان التشتنيك معتدين فاشيين بكل معنى للكلمة وكـان الدفاع عن سراييفو بطـولياً بالفعل. ومع ذلك فما كان يـدور حوله الصراع، في مـواجهة ظـروف مستحيلة، لاستمرار الجريـدة خلال لاحصـار، وكما كـان يصر محررو الجريدة، هـو الحفـاظ على نـوع الصحافـة الـذي يحاولون ممارسته من قبل. ومع ذلك لم تستطع الجريدة إلا أن تعكس الإنهاك واليأس وجنون الاضطهاد لدى قرائها وبخاصـة مع استمرار القتال. ودائماً ما توفر الكوارث أرضاً خصبة لمنظري المؤامرات، وقد كان للبوسنة نصيبها وافراً. فبحلول عام ١٩٩٣ قامت جريدة «التحرير» بعمليـة استطلاع للآراء أعطت تفسيرات إضافية للسبب في أن الغرب لم يسـاعد البوسنـة. وقد اتهم مواطن غـاضب ساداكو أوجـاتا، رئيستهم بالمفوضية العليـا للاجئين في أحد هذه الاستطلاعات بأنها لم تكـن راغبة في مساعدة البوسنة لأنها كانت مـاسونية ومرتبطة بمكاتب للحركة الماسـونية في صربيا. وما كان أكثـر شيوعـاً وخطورة أنـه أصبح شيئـاً عاديـاً في سراييفـو، كما قالت لي ذات مسـاء الناقـدة الفنية نرمينا أن كـوسبا هيتش الأخت غير الشقيقة لرئيس تحريـر الصحيفة، كمال كوسباهيتش أن «أوروبا تكره المسلمين. ومـا يفكرون فيه حقيقة هو أن الصرب يقومون بالعمل عنهم».

في هذا الجو، كان من المتوقع أن تقوم الجريدة بمساندة حكومة عزت بيجوفيتش وتمجيـد صراع الجنـود، وإعطـاء متنفس للتـوتـرات المرضيـة والأليمـة في التفكير في البـوسنة. وفي سيرهم في ركـاب الحزب الحاكم كـان محررو الجريـدة يحاولون كـذلك الحفاظ على جريدتهم من هجوم حكومـة عزت بيجوفيتش. ولكنهم كانوا فاشلين في ذلك بصورة متـزايدة، فبحلـول خريف ١٩٩٤ كان مقـاتلو الحزب الحاكم المقـربون للحكومة يهاجمون الجريدة بشكل منتظم بسبب استقلالية هيئة التحرير.

وإذا كـان هناك شيء واحـد تفرزه الكـارثة فـإنه التقـوقع. فلم يكن البوسنيـون يريدون ما يذكرهم بأن العـالم وقف لم يعترض سوى بالشجب الكلامي فقط بينما قام الجيش الوطني اليوغسلافي بتحويل مدينـة فوكوفار المسيحية إلى ركام، بل الأدهى أن حكومـة بيجوفتش ولأسباب حكيمة مفهـومة ولكن غير مقبولة لم تتخـذ هي الأخرى

أي موقف من القتال في كرواتيا عـام ١٩٩١ . كذلك لم يكن الأفراد من أهل سراييفو على درجـة كبيرة من الانـزعاج لما كـان يجري في كـرواتيا في ذلك الـوقت. وقـد فسر كثيرون منهـم ذلك بقـولهم بأنهم كانـوا في غايـة الرعب مسبقـاً بينما كان آخـرون أكثر استنكاراً لأنفسهم متذكـرين في عجب أنهم كانوا ببساطـة لا يعتقدون أي شيئاً مثل هذا يمكن أن يحدث في البوسنة. وقد قال لي صديق: «لقد تعودت على تحويل القناة عندما يبدأ بث رسائل إخبارية من فوكوفار لقد كان علي أن أبدي اهتماماً أكثر.

ولكن كما تعلم كانت سراييفـو مكاناً لطيفاً ومتحضراً. لقد ظننـت أن القتال قد ينشب في الـريف أما هنـا فقد كنـا نعيش في يسر لا يسمح بتـوقع حدوث مثل هـذا الأمر».

إنك إذا لاحظت ذلك كلـه فلن يعني أن تقول بأن البـوسنيين كانـوا مخطئين بعد ١٩٩٢ بالتفكير في أنفسهم وفي ورطتهم. وكون البـوسنيون لم يستطيعوا حشد غيرتهم المزعزعة ليقدموا استنكارهم مع عبارات المساواة لأنجولا وأفغانستان، وكون بعضهم عبروا أحياناً عن هذا التقوقع داخل الذات بأساليب هجومية أو مبالغ فيها ـ مقارنين سراييفو باوشفيتز ومحتجين بأنهم أوروبيون وليسوا صوماليين أو مصريين، أو كما عبر عنها قـائد عسكري في مـوستار، بأن الحرب في البـوسنة هـي أكثر الحروب ضراوة في تاريخ العالم ـ كان مصدر إزعاج لبطرس غالي ومساعديه لا يمنع أن ذلك كله بدا لي دائماً وببساطة وضعـاً إنسانياً. وأتذكـر ركوبي في سراييفو مع مسؤول لـلأمم المتحدة ومروري على جـدارية سراييفـو الشهيرة التي تقول «مـرحباً بكم في الجحيـم» بعرض مبنى مهدم في منطقـة أصابتهـا القنابل على طـريق المطار. وقـد أشار المسـؤول إليها وشخر قائلاً: «تلك هي المشكلة هنا. الـوضع سيء بالطبع ولكن كل فرد يبالغ على الدوام. وهذا هو سبب عدم قدرتك على التوصل إلى اتفاق سلام».

وعندما قلت له أن ما يعنيه باتفاق سلام هو استسلام البوسنيين هز كتفيه فقط. كـان موقفـه نمـوذجاً لاتجاه معين في التفكير داخل الأمم المتحـدة يـرى أن حكومـة البوسنة هي المشكلة الحقيقية, لقـد ارتكب الصرب جرائم فظيعة بالطبع واعترف كل شخص بذلك. أما الآن فقد كـان مسؤولو الأمم المتحدة يصرون على أنهم مستعدون للجلـوس حـول مائدة المفـاوضـات من أجل السـلام. فلماذا لا يسـاير البـوسنيـون

الـوضع. ولكن عنـدمـا تـوضح لهم أن مـا تطلبه الأمم المتحـدة إنما هـو الاستسـلام بالنسبـة للبوسنيين فإن توضيحك لا يقدم ولا يـؤخر. فقد كـانت الأمم المتحدة تهتم بالسلام وليـس بالعدالة. وظل كبار المسـؤولين يذكرون بأن التفويـض لقوات الحماية التابعة للأمم المتحدة لم يكن لحماية البوسنيين بل لحماية جهود الإغاثة الإنسانية أياً كان اللبس الذي يثيره إسمها. وقد ذكر الجنرال ماكنزي بعد مغادرة البوسنة أنه يعتقد بأن اسم «قوة الحماية التابعة اللأمم المتحدة» كان له ضلع كبير فس مشكلة الأمم المتحدة هنـاك. وكان محقـاً في ذلك حيث لم يستطع البـوسنيـون أن يفهموا سبب إرسـال كل أولئك الجنود إذا لم يكونوا سيفعلون شيئاً لحماية سكان سراييفو وتوزلا وبانيالوكا.

وفي واقع الأمر، كان الاسم الأول لقوة الأمم المتحـدة الذي اختارته إدارة عمليات حفظ السلام هو «القـوة المؤقتة للأمم المتحدة في يوغسلافيـا السابقة» ولكن الحروف الأولى للاسم هي UNIFFY ـ وهي قريبة من كلمة UniFy ومعناها يوحد لدرجة لا تجعل أحـداً يقبل به. ولكن أيـاً كان الاسم الـذي انتشرت تحته قوات الأمـم المتحدة فسرعـان ما تعلم البـوسنيون أن الأمم المتحـدة لن تحجم عن حمايتهم فقط بل إنها في الأسـاس لم تتعاطـف معهم. لقد كـان لـدى قـوة الحماية تفـويض بحفظ السـلام، وبحلـول ١٩٩٣ كان البـوسنيـون قد أصبحـوا العقبة الـرئيسيـة أمامهـا لإكمال تلك المهمة.

من هنا لا عجب أن يكون البوسنيون، مع إحساسهم بالإهمال، قد انخرطوا في أوهام فضيلتهم الأسـاسيـة وعزفوا على أوتار تفـرد معاناتهم. وعندمـا كتب إينيس كاريتش رجل الـدين المسلم الواسع التأثير، والـذي أصبح فيما بعـد وزيراً للتعليم، وهـو مثل إحراجـاً لسراييفوا «متعددة الثقـافات»، في قصته الخياليـة «اقتباس من مجلة صـوفية صدرت عام ٢٠٩٢» يقول: «قبل كارثة البـوسنة عام ١٩٩٢ لم تكن المضايقات ضد شرف وكرامـة المرأة معروفة» فقد كـان يعبر عن الشعور المشترك في البوسنـة بأن العالم الخارجي مازال يرفض أن يستوعب ضخامـة ما كان يحدث. وهو لم يكن ـ كما لاحظ مسؤول من الأمم المتحـدة ملاحظة عندمـا أريته المقال (مؤكـداً في إهمال أن كاريتش يشكك في أي شيء يحبـه النـاس) «ناسيـاً بسهـولـة مـا فعله الجيش البـاكستـاني في بنجلاديش بـرغـم أن البوسنيين ينسون دائماً أنه تـوجد وقد ظلت توجـد مآسٍ في هذا

العالم المخيف الذي نعيش فيه غير مأساتهم هم».

ولقد كـان الجزء السهل هو الدفاع عن أحـزان البوسنيين والتقوقع البـوسني أمام الرفض السطحي الذي قدمه هذا البيروقراطي. ولكن كان الأمر الأصعب تقبله هو أن تلك التعبئة العـامة للمشاعر، مهما كـانت مفهومة، وكان لها ثمنهـا الرهيب على البوسنيين أنفسهم. لقد أصبح السـؤال حول ما إذا كان مجهود حـربي قائم على حشد الجماهير (رغم أنـه في الواقع لم تنفـذه الحكومـة البـوسنية بشكل منظم وهـو ما كـان متوقعاً منها) و إجماع أيديولـوجي، يتطلب من المواطنين ألا يتفرقوا عن جبهة موحدة أم أن على الناس أن يكـونوا ملتـزمين بالاستمرار في قـول ما يعتقـدونه أيـاً ما تطلبت النتائج العملية، هـذا السؤال أصبح محل خلاف على الأقل منذ برشلونـة الجمهورية أثناء الحرب الأهلية الأسبانية. ولقد كان هـذا النقاش هو ما حلله أورويل في «المجد لكتالونيـا». ولعله لم تكن هناك إجابـة شافية، غير تلك الأكثر عـرضية، للمشكلة حـول ما نفعلـه إذا تصـادمت الحقيقـة مع العدل في مـوقف طـارىء. وكلما أحس البوسنيون أنهم بلا أصدقاء ـ وكانت اللطمة التي مثلتها عداوة الأمم المتحدة الظاهرة عنيفة ـ كلما مالوا إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن المخاطرة باختلاف داخلي. صاغت ذلك جوردونا نميسيفيتش، نائبة رئيس التحرير لجريدة «التحرير» الصربية، والتي كانت أحد بـاعثي الحياة فيهـا خلال القتال وكـان زوجها إيفو الكـرواتي وزيراً لـلإعلام في الحكومة البوسنية حين قالت: «قبل الحرب لم تسـاند الجريدة أياً من الأطراف الوطنية الثـلاثـة في البـوسنـة، ولكن بمجـرد نشـوب الحرب ذهب كمال إلى الـرئيس عـزت بيجوفيتش، وقـال له أثنـاء الحرب سنساند السلطـات الشرعية في البـوسنة والهرسك كجـزء من الدفـاع وقت الحرب، ولكن بعـد الحرب، وبمجرد أن تضع هـذه الحرب أوزارها، سنعـود ثانيـة إلى موقع المعـارضة، وفي تلك الأثناء، لن نفعـل شيئاً يقلقل الدولة في وقت يستحيل فيه التغيير السياسي الديمقراطي».

وبرغـم ذلك فحتى حينما يرى رجـال الإعلام البوسنـي الأكثر استقلاليـة أن من واجبه للأسف أن يقدم قدراً كبيراً من الدعاية في ثنايا الأخبار فإن التأثير المخرب على كل من القارىء والكاتب على السواء لابد أن يكون كبيراً ـــ أياً كانت الدوافع فاضلة أو مفهومـة. كانت جـوردونا نيسيفيتش ملتـزمة من الناحيـة البيوجـرافية والفكـرية

بالنموذج البوسني متعدد الثقافات والذي تشككت فيه قيادة الحزب الحاكم SDA قبل القتال. ومع ذلك فقد قالت إنه ليس لديها شك في أن الطريق الذي تسير عليه «التحرير» هو الصحيح. وأشارت إلى أن الدعاية من الطرف البوسني، بافتراض صحة التعبير، كانت لا شيء إذا قورنت بها كان يصدر عن بالي وبلجراد وأيضاً عن زغرب، بحسب الطريقة التي تستمع بها الحكومة الكرواتية. ومن الظلم تماماً مقارنة محاولات البوسنيين للتضامن بعالم المشاعر عديم الرحمة المتمثل في الشعار «الوحدة فقط تنقذ الصرب» والذي أدى إلى كثير من المعاناة والموت.

إن ما لم تكن نيسفيتش راغبة في مواجهته هو احتمال أن أي فساد في الفكر، حتى في قضية عادلة وأياً كانت إنسانية ومفهومة، يصعب محوه طالما تمت الموافقة عليه. ولقد وضعت معظم الحروب أوزارها قبل وقت طويل من ذبول العقليات التي أفرزتها. ومع ذلك فلو أن هذه القاعدة النفسية للحرب كانت الطريقة الوحيدة الذي تحول بها المجتمع البوسني بفعل القتال فربما لم يبلغ الدمار العقلي الذي قال كثير من الناس أنهم يعانون منه تلك الدرجة التي وصل إليها. وذلك لأنه إذا كان هناك شعب على مدى ما تعيه الذاكرة الإنسانية له الحق في تبسيط وضعه وتمجيد فضائله وتجاهل ما يخصه من المسؤولية عن دمار بلده وتصوير أعدائه والمجتمع الدولي، لعدم رغبته في رفع إصبع واحد لمساعدته، في صورة الشيطان، لكان شعب البوسنة الذي ارتكبت في حقه الآثام ـ وبخاصة المسلمين. ولكن وفي كل مكان في البوسنة، لم يكن هناك فقط الرضا بالمبالغات البلاغية في تبسيط الحرب ـ فهذه رغم كل شيء ليست غريبة على البوسنة ـ بل إن الفساد في الحياة اليومية بلغ مداه كذلك.

إن أحد أول وأعمق وأوسع الآثار للقتال هو قلب الهرم الاجتماعي رأساً على عقب. لقد دمرت البرجوازية وفقدت قيمها بفعل الحرب. ومع كل شهر يمر يزداد وضعها المادي سوءاً. وانقلب الوضع بالنسبة لمن كان لديهم القليل قبل بدء القتال. وقد وجد الشبان البسطاء من الريف والشباب الأقوياء من المدن أن بنادقهم تمكنهم من أن يكونوا هم المبادرين بجمع الماركات ومختلف الامتيازات، الجنسية وغيرها. لقد تحول الوضع في أغلب الحالات إلى أن الرأس صار ذيلاً والذيل صار رأساً. وسواء كان ذلك في سراييفو أو توزلا أو موستار، فقدكان يمكن مشاهدة

الشباب في هيئة رامبو جالسين في المقاهي أو مصاحبين للفتيات في السيارات المدنية القليلة التي تركت في أي منطقة. وقد أدت درجة تشبههم بشخصيات شاهدوها في أفلام مثل «رامبو» و«محارب الشوارع» بالمخرج المسرحي ابن سراييفو حارس ياسوفيتش إلى أن يهمس لي أنه يأمل، بعد عودة السلام، أن تكون هناك محاكمة لجرائم الحرب. وعندما أخبرته أن عليه ألا يتصور أن تكون الأمم المتحدة جادة في ذلك أو أن الذين يتفاوضون مع كارازديتش وجنرال ميلاديتش سيحاولون وضعهما خلف القضبان لاحقاً، هز رأسه في نفاذ صبر وقال ضاحكاً «لا، لا، إنني لا أعنيهما. إنني أعني سيلفستر ستالوني، فهو المسؤول عن كثير مما حدث هنا!».

ولم يكن الأمر ببساطة، كما في إسرائيل مثلاً، مسألة مزايا أو تدليل يوهب عن رضى للرجال الذين يقومون بالقتال والقتل. ففي الطرف البوسني كان كثير من المحاربين من الشباب الذي تربى على أفلام العنف من هوليود والذين كانوا يلبسون ويتصرفون وكأنهم يظنون حقيقة أنهم ستالوني أو ميل جيبسون. كانت الطريقة التي يتبخترون بها خارج الخدمة وذخيرتهم داخل جرابها فوق صدورهم ـ لو أنهم ارتموا فجأة للحماية لكسرت أقفاصهم الصدرية ـ حاملين أكبر قدر من السلاح، طريقة هوليودية بحتة. وبالطبع كان الوضع لدى صرب وكروات البوسنة أكثر تطرفاً حيث افتقر البوسنيون إلى السلاح والذخيرة. ولكن التوجه لم يختلف كثيراً. ولم يكن من المدهش، وقد عرفنا من يقوم بمهام القتال، أن تسير الحرب والسوق السوداء في البوسنة جنباً إلى جنب.

و سبب ذلك تاريخي في جزء منه، ففي الطرف الصربي، تم جلب أشد المتطرفين من التشتنيك شبه العسكريين من مافيا ما قبل الحرب في بلجراد، وعندما كان محاربو أركان أوسيسلي ـــ وهما قائدان في ميليشيا التشتنيك كانا من شخصيات عالم الرذيلة قبل تفكك يوغسلافيا ـ يدخلون مدينة مسلمة، كان هدفهم السلب والدم معاً. ولكن الحكومة البوسنية وجدت نفسها تعتمد على مجرميها كذلك. ومع أملها في درء شبح الحرب عام ١٩٩٢، لم تنشىء حكومة البوسنة جيشها الخاص على أراضيها، كما حدث في كرواتيا وسلوفينيا. فقد قال عزت بيجوفيتش: «إن الحرب تكون بين طرفين ونحن لن نحارب». ولكن بالطبع لا يلزم طرفان للقيام بمذبحة، وهذا ما

حدث على أي حال، رغم جهود عزت بيجوفيتش بألا يظهر شديد النهم للحرب. ولو أن الأمر كان بيد سياسيي الحزب الحاكم والطبقة المتوسطة المتحضرة فربما كانت سراييفو قد سقطت في يد الصرب بنفس السهولة التي سقطت بها بانيالوكا. وفي واقع الأمر، فقد طلب عزت بيجوفيتش من مسؤولي الأمم المتحدة قبل القتال أن تنشر قوات حفظ السلام. ولكنهم رفضوا، بحجة أنه لم يفوضوا بوضع قوات في إقليم من دولة لكي يسهلوا انفصال هذا الإقليم.

وجاء القتال وعلى الفور تجمعت قوة من العامة تألف معظمها من العصابات وسكان المدن المسلمين للدفاع عن المدينة. لقد كانوا خليطاً شاذاً. فبعضهم ينتمي إلى مجموعة مسلمة شبه عسكرية تدعى التجمع الوطني بينما جاء العدد الأكبر من عالم الرذيلة في سراييفو. وقد دفعوا بمسدساتهم والكلاشينكوف جنود الجيش الوطني اليوغسلافي إلى التلال واقتحموا ثكناتهم وفي النهاية، ولشدة غضب وسطاء الأمم المتحدة، أقاموا كميناً لطابور من قوات الجيش الوطني اليوغسلافي الذين كانوا في طريقهم للانسحاب من المدينة حسب وقف لإطلاق النار ثم الاتفاق عليه. ومع كثافة القتال دخلوا إلى المناطق المجاورة التي شبوا فيها متملقين ومشجعين ومهددين لرفاقهم في الدراسة لينضموا إلى القتال. كان أحد قادتهم صاحب مصنع محترم للمنتجات الجلدية، وكان آخر في التاسعة والعشرين واسمه موسان توبالفيتش موسيقياً في أحد النوادي ويعرف باسم كاكو، وشخص ثالث يعرف باسم سيلو كان قاتلاً محترفاً له هيئة أبطال كمال الأجسام وقد خرج لتوه من السجن بعد ثماني سنوات بتهمة الاغتصاب. وبعد انتهاء هذه الفورة من القتال بدأ الجيش البوسني في تنظيم صفوفه وقبل سنة من قيام كادر صغير متفان من الضباط النظاميين السابقين في الجيش الوطني اليوغسلافي الذين ظلوا في الجانب البوسني - وكان من بين رتبهم العالية عدد من الصرب والكروات - بالبدء في إعادة تشكيله وتزويده ببعض جوانب القوة النظامية المنضبطة.

كان الدفاع عن سراييفو قصة ملهمة تكونت منها مجموعة الأغاني الشعبية للبلقان في قرونها السابقة. ولكن مع استمرار القتال فقد كان انخراط العصابات من كل جانب يعني ليس فقط أن القتال اتخذ صفة أكثر ضراوة وخروجاً على القانون بل

إن الأهداف السياسية للحرب أصبحت تتداخل بشكل ميؤوس منه على المستوى اليومي مع نشاط المنتفعين وتجار السوق السوداء. وكانت الشجاعة نفسهاالتي دفعت كاكو لقتال الجيش الوطني اليوغسلافي أياً كان افتقاره للسلاح، هي التي جعلت منه أقرب مرشح لتهريب المؤن التي تحتاجها سراييفو ويجبي الأرباح الطائلة من وراء ذلك. ولم تكن لدى كاكو وسيلو والآخرين «القصة نفسها درات بين صرب البوسنة ومحاربي HVO» أي خطط لتوزيع ما أدخلوه مجاناً. كما لم تكن الحكومة البوسنية في وضع يسمح بالأمر بتوقف تلك الأنشطة حيث إن المقاتلين الموالين لهم كانوا يدافعون بشكل فردي عن مناطق استراتيجية على الخط الأمامي. ولم تتداع قبضة العصابات على سراييفو حتى قبل سلادزيتش رئاسة وزراء البوسنة في أواخر خريف ١٩٩٣ واشترط لذلك إزالة تلك العصابات. وكان الموقف مشابهاً لذلك في أجزاء أخرى من البوسنة: مجتمع هش انخرط فجأة في العسكرية مع زيادة في الخروج على الشرعية، محاولاً التمسك بمثله في وجه حرب شرسة شنت عليه مع لا مبالاة من العالم ومع المساومات التي اضطر إليها في الداخل من أجل البقاء.

ومع هشاشة الدولة البوسنية لم يكن من المرجح فعل الكثير لتجنب تلك المتناقضات. ولكن غض حكومة سراييفو لوقت طويل عن نشاطات رجال مثل كاكو وسيلو جعل الكثير من البوسنيين العاديين أكثر سخرية بأسرع مما كان محتملاً لو كان الوضع غير ذلك. ومع استمرار القتال فإن اليأس من الوضع العسكري أدى بكثير منهم إلى الشك ــ وهي نظرة هيمنت بشكل خاص في سراييفو وتوزلا ــ في أن الغرض الحقيقي من الحرب لم يعد النصر بل الربح. ولم يساعد كثيراً احتواء إقطاعيات سيلووكاكو الخاصة. فبعد موتهما فإن كثيراً من الذين كانوا يرهبونهما في حياتهما كانوا ينظرون إليهما بصفتهما المحاربين الوحيدين الذين يملكان الشجاعة الحقيقية على أقل تقدير. كما شك كثيرون في أن تصفيتهما لم تكن تمثل سوى الوقوع بين اللصوص، كما أن كثيرين استرجعوا بطولة كاكو في بداية القتال، بعد موته (أطلق عليه الرصاص أثناء محاولة الهرب، كما ذكرت الحكومة بأسلوب رقيق). وبحلول صيف ١٩٩٤ كان الجنود العاديون على خط القتال يقولون في مرارة أنهم لم يكونوا يدافعون عن بيوتهم بل عن السوق السوداء. ولم يرفع من معنويات الناس وجود

عـائلات أصحاب المنـاصب العليا في حكـومة البـوسنةخـارج البلاد. وقـد أخبرني مقاتل في شرق موستار أن «سلازديتش أرسل عائلته إلى باكستان والآخرون على نفس المنـوال. إن الأمر سهل بـالنسبة لهم. فهـم لا يهتمون إذا استمـرت هذه القـذارة إلى الأبد».

وسواء صح ذلك أم لا، فقد انتشرت هذه المشاعـر بنهاية ١٩٩٣. وفي عالم الواقع لا تـؤدي المعانـاة إلى التسامي بل إلى الإفسـاد. ففي كل يـوم للحرب في البـوسنة كـان النـاس العـاديـون يجدون أنفسهم في مـواجهـة ظـروف لم يعطهم شيء من تعليمهم وخبراتهم السابقة أي أساس للتوافق معها. فمع تعودهم على العيش في رفاهة، كان عليهم أن يتكيفوا مع أشد حالات المشقة. فالنـاس الذين لم يشعروا قط بالبرد عدا في مـواقع التزلج أصبحـوا فجأة يقـاسون البرودة لعـدة شهـور متتاليـة. والـذين كانـوا يستحمون مرتين يوميـاً اضطروا للتعود على أخذ حمام بارد مرات قليلـة في الشهر. أما الذين اعتـادوا السفر فكان عليهـم أن يعتادوا أن يظلوا حبيسين في الغـرف الضيقة. وأولئك الذين كانـوا يتفاخرون بأمانتهم وجـدوا أنفسهم يتخذون أقصر السبل لتدبير أمورهم. وربما كـان القصف قد أساء إلى سلامـة عقولهم ـ هناك تقـديرات تقول إن أكثر من ثلث أطفال سراييفو يعـانون إلى درجة ما من أعراض توترمـا بعد الصدمة، وهو مـا يعرف بصدمـة القصف ـ ولكن الظـروف التي اضطروا إلى معايشتهـا كانت إساءة إلى حساسهم بأنهم مخلوقات حية.

لقد كانت التفاصيل الدقيقة أسوأ من أي شيء آخر، وبدا أنه كلما كان الشخص قبل ذلك مكتفياً ذاتياً، كلما صعب عليـه أو عليها أن يتعلم الاعتماد على الآخرين أو أن يستجدي المعـروف أو أن يطالب بمعاملة خـاصة. وكان سكان الـريف والطبقة العاملة يبدون أكثـر مرونة فقد عايشوا تلك الضرورات قبل بدء القتـال. أما بالنسبة لأفراد الطبقة المتوسطة المضربة فإن معايشة هـذا الواقع الجديد كان بمثابة الصدمة. فقد قالت لي ذات مساء في سراييفو سيدة اسمها «إميلا سيمتيش»: «لقد تعبت من قول شكـراً، واعتقد أن أقصى مـا أتطلع إليه وقـت السلم ألا اضطر مطلقـاً إلى قول شكراً مـرة ثانيـة. يا له من تعبير رهيب. أعتقـد أنني سأرسل لأصدقـائي مظاريف بداخلها نقود وصناديق الشيكولاته. سوف أعطيهم الهدايا وسأعود كما كنت».

وكانت سيميتش، وهي شخصية أدبية مرموقة ومترجمة معروفة في سراييفو هي الأولى التي اعترفت بأنها هي وزوجها، جوران الشاعر الصربي، كانا مميزين نسبياً بمقاييس سراييفو. فقد كان لهما أصدقاء في الخارج يحاولون أن يرسلوا إليهما الأشياء، وكانا على علاقة طيبة مع كثير من الصحفيين الأجانب في سراييفو والذين كان يمكن الاعتماد عليهم عادة في محاولة المساعدة. ولكن الضغط النفسي لكونك متلق للصدقات، بل والأكثر مرارة، المهانة وراء ذلك تزايد كثيراً مع استمرار الحصار لدرجة لا تطاق. لقد تعودت على زيارة إميلا وعلى محاولة ألا أقبل منها كتاباً أو أسطوانة أوبرا ثمينة أو إيشارب أو بعض الأغراض المنزلية الصغيرة. وكانت تقول دائماً: «إنني لا أحتاج إلى تلك الأشياء». ولكن ما كانت تقوله في الحقيقة هو أنها تريد استعادة بعض التوازن الطبيعي وبعض التحلل من الضغط الذي ولده لديها كونها مدينة لزوار أجانب. كانت تريد استعادة الشعور بالذات والكرامة التي سلبتها إياها سنتان من الحصار.

وصحيح أن إميلا كانت تتشكك في دوافع زوار سراييفو. فقد كتبت إلى صديقة تعيش في الخارج تقول: «لقد كنت أحاول أن اكتشف ما يجعلنا محببين إلى الناس الذين يفدون هنا. ولماذا يبدون إعجابهم ويجاملوننا ويحلفون أن ذلك من أجل الصداقة الخالدة؟ . . . إنني أتصور أن الأمر يحدث على هذا النحو. فالصحفي (أو عامل الإغاثة إلخ) يأتي إلى هنا متوقعاً أنه في أدغال «فمعظمهم غير مثقفين» ويكتشف أن هناك بعض الناس في تلك الأدغال مهندمين وعلى درجة من النظافة النسبية، بل ويتكلمون لغة أجنبية. . . سيكون غاية في الظرف أن نرى ما إذا كانت تلك الصداقات ستعيش على الجانب الآخر من الحدود عندما تتوقف «السلامات» في سراييفو. لا أعتقد هذا ومن هنا أقاوم الإعلان بأننا ضحايا وأبطال إلخ». وفي نهاية خطابها أضافت في استسلام «علينا أن نكون سعداء لتوفر فرصة» استخدام بطولتنا. وذلك، وكما تعلم هي تماماً، لأنه مع استمرار الحصار فإن الوضع في سراييفو يصير إلى التبعية الكاملة. وأكثر من ذلك، فقد تحول إلى وضع تسود فيه شريعة الغاب. وبالطبع فإن ما كانت تشير إميلا سيميتش إليه إنما هو أسلوب معاملة الصحافة والأمم المتحدة لسكان سراييفو كأناس مستعمرين. وحتى اللجنة

العليا لـلإغاثـة، وقد اختـزنت تجاربها في العالم الثـالث، حيث تـولدت لـديها عادة الشعـور بأنها تعرف مـا هـو الأفضل وأن على «المحليين»، كما يطلق عليهم مسؤولـو الأمم المتحدة ـ وهو تعبير يبـدو للأذن الغريبة لا يزيد عن كونـه نسخة حديثة وليس بالضرورة محسنـة لكلمة «السكـان الأصليين» ـ أن يفعلـوا ما يـؤمرون بـه. وحتى في أفريقيـا في التسعينات كـان لين عريكـة الناس بهذا الشكل مـوضع تسـاؤل. أما في البوسنـة، وبخاصـة في المدن، فان أعضـاء اللجنة العليا لـلإغاثـة واللجنة الـدولية للصليب الأحمر من المحليين كانوا أكثر تأهيلاً في عملهم من الأعضاء الدوليين الذين تم إرسالهم من جنيف، وهو ما كان يثير شعوراً بالمرارة لدى أهل سراييفو، كما وضح في خطاب إميلا سيميتش، في إشـارتها إلى نقص ثقافة الأجانب. وكـان ذلك مدعاة لحيرة معظم الأجانب.

ومع ذلك ففي نهاية المطاف لا يهم إذا كـان أهل سراييفو يملكون شهادات أعلى أو كانـت لهم قراءات أكثر مـن الأجانب الـذين جاءوا للمسـاعدة، أو كما في حـالة قـوات الحماية التـابعـة للأمم المتحـدة، للسيطـرة عليهم رغم كل النـوايا والأهـداف المعلنـة. فلم يعد هنـاك معنى كبيراً للمهـارات التي تعلمهـا البوسنيـون في مجتمعهم المتحضر على طريقة الطبقة المتوسطة. وهناك آخرون، أقل غروراً من إميلا سيميتش أو ربما أكثر واقعيـة، استسلموا ببسـاطة للـوضع الذي وجـدوا أنفسهم فيه وكـونوا صداقـات مع المراسلين الأجانب، الـذين يدرك أي مـراقب ذكي أنهم لا يستطيعون الخروج عن هذا التفاعل المتبادل، أو بأمل الحصول على بعض فناجين من القهوة أو مشروب أو حتى فرصـة توصيله بـالسيارة. وسواء وجـد البوسني أنه لن يكلفـه الأمر شيئاً من الناحيـة النفسية إذا هو تكيف مع وضع التبعية أو وجد الأمر شـديد الإيلام والمهانة، فإن أحـداً لم يخرج سالماً من هذا الوضع. لقد كان ثمن هـذه المزايا الضئيلة المتاحة في أماكن مثل سراييفو وتوزلا ـ وحتى بالنسبة للأجانب كانت الحياة أسبرطية، فلم يكن لدينا الكثير لنبـذله ـ هو التبعية لـلأجانب. بينما كان ثمن رفض مثل تلك الاتصـالات ـ مـا لم يكن الشخص في وضع ينال فيـه الحظوة لـدى المافيا المحليـة أو الجيش أوالشخصيات السياسيـة أو كان جزءاً من ذلك سلفاً أو لديه مـا يتاجر فيه، كما كانت الفتيات يتاجرن بأجسادهن، هو الحياة في البرد والظلام والعوز.

سألتني سيدة كانت يوماً قاضية، في حفل استقبال في صالة للفنون أقامها السفير الفرنسي الوافد حديثاً على سراييفوا: «هل تعرف أسلوب حياتنا قبل ذلك؟ وهل يمكنك تخيله وأنت تنظر إلى حطام ما كنا فيه؟ لقد كنا نعيش أفضل منكم فأنا أعرف الكثير عن نيويورك وجرائمها وسكانها الفقراء. لم يكن ذلك لدينا شيء من ذلك في البوسنة. كنت تستطيع أن تمشي في الشوارع في سراييفو إلى أي وقت متأخر تشاء» وهنا امتلأت عيناها بالدمع «تلك الحياة الرائعة، إنني في شوق يائس إلى عودتها، لم أكن نفس الشخص الذي تراه الآن. فلم أكن المرأة التي تراها الآن، الرثة الفقيرة في تلك الملابس الرثة الكريهة التي لم تستطع أن تخفيها كل الروائح عندي. وكما ترى أن الإنسانة التي كنتها» ثم ابتسمت وبعد صمت كررت: «بالنسبة لنفسي سأكون دوماً نفس الإنسانة التي كنتها قبل كل ذلك».

كان لدى الكثير من أهل سراييفو الشعور نفسه. لقد كانوا يمقتون ما اضطروا إلى القيام به من أجل البقاء واستدركت السيدة قائلة: «لم أحسد أحداً مطلقاً قبل الحرب أما الآن فإن الحقد يقتلني. فأنا أفكر في الأشياء التي تملكها جارتي وأحياناً أفكر في نفسي قائلة: وغداً عندما تذهب لتحضر الماء سأتسلل وأسرقها. والأسوأ يكون عندما يأتيها زائر فأتساءل: «ماذا أحضر لها؟»، ثم أفكر: يا الله، لقد كنت قاضية قبل أن تصبحي لاجئة بائسة. هل حقاً حولتك هذه الحرب إلى أحد المجرمين الذين تعودت أن توبخيهم قبل أن تقومي بحبسهم؟» ونظرت في اتجاه آخر. كان ضابط فرنسي يعطي قارورة للزوجين البوسنيين اللذين كانا يحدثها. ثم هزت رأسها قائلة: «أترى؟ لقد تعجبت وقتها لماذا كنت أتكلم معك. فأنت لم تعطني شراباً. ذلك ما وصلت إليه وما وصلنا إليه جميعاً في البوسنة. لقد صرنا أمة من الشحاذين».

وأثناء حديثها كان «يتمشى» حولنا كاتب بوسني أعرفه قليلاً. كان الجو بارداً وكان يلبس عدة طبقات من السترات تحت الجاكيت الجلدي البني. وكان يصغي بتركيز يتجاوز قدرة شخص كان مخموراً. وقال فجأة مقاطعاً لها كما يفعل الرجال البوسنيون سواء أكانوا مخمورين أو وواعين، مع النساء البوسنيات: «نعم شحاذون. إنها كارثة أخلاقية. كارثة أخلاقية. قل لي من فضلك، ما هي الأخلاق، وما الذي أعتقده إذا

لم يكن هنـاك إله ولا ديمقـراطية ولا مبـادىء للولايـات المتحدة؟ لقـد أحببت تلك الأمور والآن كيف أعيش إذا كـانت تلك الأمور غير حقيقية؟ ومـا الذي يمنعني من قتلك، أو قتلها، أو أن أفعل ما أريد من البذاءات؟

لم تكن تلك هي الطـريقة التي تـربت عليها أو تـربيت عليها ولا الطريقـة التي علمنا أولادنا أن يتصرفـوا بها. لقدعرفت كارادزيتش فقد كنـا زملاء في اتحاد الكتاب وكان شخصاً لطيفاً. وقد أحببته دائماً حتى وأنا أعتقد أنه طبيب أكثر منه شاعر. أما الآن فهو رجل مجنون وسفاح. لذا أين يتركني ذلك؟ إنني أؤمن بالشعر لا بالسياسة، هل يفترض أن أصبح رجـلاً مجنونـاً أنا أيضـا؟» ثم توقف وبـدأ يلفظ الكلمات ببطء شـديد وفي تأن «أفعل . . . بـالضبط . . . مـا . . . تريـده . . . أنت». ثم أسرع في الحديث وبـدأ يطـرح السؤال الـذي كـان العملة السـائدة في الحديث بين الأجـانب والبوسنيين: «ما الـذي تفعله الأمم المتحدة على النهر الشرقي؟ مـاذا تفعل؟ في هذه الأيام يتكلمـون في نيويورك كما يتكلمـون دائماً. لقد مـات هنا طفل في الرابعـة قرب مصنع في فيليكـا كافا. لماذا؟ ليـس لدي أدنى إدراك للسبب». كـانت القاضيـة قد تحركت بعيداً وكنا وحدنا.

قال: «هل تستطيع مساعدتي»؟

وفي سرية دسست يـدي جيبي الداخلي وسحبت ورقة بمائة مارك وأعطيتهـا له. فشكرني وقبلني على وجنتي وابتعد. وعادت القاضية. كانت قد شاهدت المنظر كله وأصبحت نبرتها الآن أكثر وثوقـاً مما كانت عليه عندما بـدأت الحديث معها وقالت: «إنني غير واثقة مما هو الأسوأ، الطريقة المهينة اتي استجدي بها النقود منك، أم تعبير الفهم والمعـرفـة الـذي ارتسم على وجهك عنـدمـا أعطيتهـا لـه. كماتـرى. نحن شحاذون. وأنتم أيها الأجـانب سائحون. ولا أقول ذلك بأي نيـة سيئة تجاهك. إنها ببساطـة طبيعة الـوضع. لقد أفسـدتنا تلك الحرب جميعـاً. ولست واثقة ممـا إذا كنا سنتعافى. فـالمباني يمكن إعادة بنـائها فـربما سوف يشعر الأوروبيـون بذنبهم بحيث يرسلون إلينا بعض المال. وسوف يرغب العـرب في إعادة بناء المساجد على ما أظن. ولكننا أصبحنا بضاعة مدمرة ـ جيل من الشحاذين من مصدومي القصف».

وحملقت السيدة نحو السفير الفرنسي، الذي كـان يتبعه حرسه على بعد محسوب وهو يـودع كبار البوسنيين الذين كـانوا في استقباله. وكـان المعرض، التي يتألف من أعمال لفنـانين فـرنسيين والذي كـان تعبيراً عن «التضـامن» مع سراييفـو وجـزءاً من مشروع أوروبي لخلق «جسر فني» نحو العاصمة البوسنية، كان يموج بالتأكيدات بأن سراييفو ستعيش.

راقبت القاضية ذلـك بعينها في ثبات ثم قالت: «جميل جـداً. لكن كان أمراً في غايـة السوء في الـوقت ذاتـه ألا يرسل الفـرنسيون جنـوداً إلى هنا لحمايتنـا. لقد كـانوا يستطيعون ذلك، كما تعلـم، لقد كـانت لديهم القدرة طول الوقت. كان الأمـر غاية في السهولة بالنسبة لهم. لكنهم بدلاً من ذلك تركونا للموت».

الفصل السابع

أيـا كـان طـول الفترة التي ظلت مسيرة الموت والتطهير العـرقي فيهـا محتـدمـة ومتواصلة في البـوسنة، وايا كان تكـرار مسؤولي الأمم المتحدة سرا وعـلانية أن قوات الحمايـة التابعـة لـلأمم المتحدة متـواجـدة في البوسنـة للتـدخل فقط «لحماية أنشطـة المساعدات الانسانية خلال الحرب»، كما قالها ماراك جولدنج وهو رئيس سابق لادارة عمليـات حفظ السلام التـابع للأمم المتحـدة، فإن البوسنيين العـاديين لم يستوعبـوا مطلقا أن الأمم المتحدة تعنـي ذلك حقا. فقد كان المفروض أن تكـون الأمم المتحدة أكثر أخلاقية من اكثر الحكومـات استنارة، ومع ذلك فما كان يحدث في البوسنة كان سقـوطا أخـلاقيا صريحا. كـان المفروض أن تسـاند الأمم المتحـدة السلام وقـد اصر مسؤولـوها على أنها قـامت بذلك. وفي التسعينـات حتى حـافظو السلام كـانت لهم شعـارات العـلاقـات العامـة. فقـد قـامت الأمم المتحـدة في البـوسنـة بطبع آلاف الملصقات والمعلقات كتب عليها: «قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة، لنعمل من أجل السـلام» وفي كل مكتب لـلأمم المتحـدة في البـوسنـة كـانت هنـاك كـومـة من الأوراق. كانت أحـداها مـوجة لـلأطفال بعنـوان «ما تفعله الأمم المتحـدة من أجل السـلام». وفي العالم المثـالي لـذلك الكتيب لم تـرد إشارة إلى عمليـة التفـويض أو الى القيود. كانت تـزعم أن «قوات الحماية التابعة للأمم المتحـدة» هي «مجموعة كبيرة من الناس من عـدد كبير من الدول الذين جـاءوا إلى يوغسلافيا السـابقة لمحاولـة ايقاف الحرب. انها تحاول أن تحمي النـاس من الأذى في القتـال الـدائر، تمامـا كما يفعل المدرس الذي يمنع الاولاد المشاكسين من ضربك في المدرسة».

كانت المأساة تكمـن في أن العالم الذي صوره ذلك الكتيب هـو العالم الذي تخيل كثير من البـوسنيين أنهم يعيشونـه عند بـدء القتـال. وقد تكـون كلمات كتيب الأمم المتحدة طفولية في بساطتها، ولكن كـان موقف البوسنيين على نفس الشاكلة ولكنهم لم يكونـوا يؤذون بـل كانوا يـذبحون. وبـدلاً من القيام بعمـل ما هـو ضروري لحماية

البوسنيين بـالقيام بمهمة تـوصيل المساعدات الانسـانية فقد بـدا أن الأمم المتحدة لم تفشل في منع الذبح فقط، بل أجازته ضمنيا. كان هذا على أقل تقدير هو ما اتضح على أرض الـواقع في البـوسنـة. وحتى حينها اتضـح، بـالنسبـة لكل من البـوسنيين والصحفيين الأجـانب، ان مسئـولي الأمم المتحـدة لايصلون بنـزاهتهم المتبجحـة إلى درجة التعـاون الفعالة التي يبـدونها مع صرب البوسنـة، فقد كان تقـاعسهـم مصدر إحباط وارتباك.

لقد بـدا وكأن مسؤولي الأمم المتحدة أرادوا إنكـار الحقيقة الجوهريـة لما حدث في لبوسنة. وبمـرور الوقت فإن الكثيرين، وبخاصة داخل قوات الحماية التـابعة للأمم المتحدة ـ كـان مسئولو المفوضية العليـا للآجئين التابعة لـلأمم المتحدة يميلون إلى أن يكونوا في صف البوسنيين أكثر ـ أصابهم الإحباط مما رأوه من رفض الحكومة البوسنية القبول بهزيمتها. ولم يكن تفكيرهم غـامضا. فقد كانت مهمة قوات الحمايـة التابعة للأمم المتحدة تسهيل عمل المفوضية العليا للإغاثة في توصيل المساعدات الإنسانية. فماذا كـان يقف في طريقهم؟ القتـال. ومن كـان يساعـد على استمـرار القتال؟إنـه جانب الحكومة البوسنية التي لم تكن مستعدة لقبول تمزيق الوطن.

لقـد أصبح البـوسنيـون، بالنسبـة للكثيرين في الأمم المتحـدة، هم «العقبـة في طريق» جهود المساعدة وذلك بمواصلتهم في المقاومة.

ولم يكن غريبـاً، في ظل تلك الظروف، أن يبدو مسئولـو الأمم المتحدة مغتبطين عند الإشارة إلى أن الصرب لم يكونوا وحدهم الأشرار في مـأساة البوسنة. قال لي عقيد أمريكي يعمل في قوات الحماية التابعـة للأمم المتحدة في سراييفو مشيراً إلى موقف كل من الصرب والكروات والحكومـة البوسنية: «هناك قبعتان سوداء وواحـدة رمادية في هذه الحرب» ولكن عنـدما كان مسئـولو الأمم المتحدة يستطيعـون أن يطرحوا جـانباً عداواتهم الشخصية نحو البوسنيين لإطالتهم الحرب، فإن معظمهم كانوا مستعدين للإعتراف بأن ما حل بمسلمي البـوسنة كان إبادة جماعية. وعندمـا سمع البوسنيون بـذلك، ولكن مع سماعهم أيضـا بأن الأمم المتحـدة ليست «مفـوضـة» بعمل شيء إزاءها، فقد أخذوا الاعتراف بـالجريمة بجدية أكثر من التحذيـر الرسمي واستنتجوا أنه إن عاجلاً أو آجلاً ستثوب الأمم المتحدة إلى رشدها.

لقد كان يجدر بالتأكيد أن يكون وقف الإبادة الجماعية أكثر أهمية ، بالنسبة لأناس رأوا على الطبيعة مـا كان يحدث ، من مجرد التقيد بتـوجيه يصـدره مجلس الأمن هناك بعيداً في نيويورك . وبالتأكيد فإن أية سلطة اخلاقية يمكن للأمم المتحدة أن تأمل في ممارستها مستقبلا ستعتمد على فعلها شيئا ما في البوسنة .

فإذا كان كل ما تنوي أن تقوم به الأمم المتحدة هو إحضار الطعام والدواء ، أفلا يعني ذلك مجرد إبقاء الناس أحياء لفترة أطول حتى يتـوافر للصرب مزيداً من الفرص لقتلهم؟ ألا يبدو متناقضاً أن يخاطر جنود الأمم المتحـدة وسائقو قوافل اللجنة العليا للاغاثـة بحياتهم واحيانا يفقدون أرواحهم لجلب الطعام إلى المنـاطق المعزولة ولكنهم يـرفضـون بعناد اسكـات البنـادق التي كـانت تسبب هـذه الطـوارىء؟ إن من غير المتصور أن تقنع الأمم المتحدة بالاستمرار في هذا الاسلوب بلا حدود .

لو أن البوسنيين إنتبهوا إلى سخـرية فريد كاني ، وهو مـوظف إغاثة أمريكي ذكي وذو خبرة عسكرية وانسانية واسعـة أرسل من قبل رجل المال جورج سورو الأمريكي الهنغاري الاصل لإقـامة نظام جديـد لامداد الماء إلى سراييفو ، لربما أدركـوا أنهم كانوا على خطأ . أراد كاني أن يقـول في لكنة تكسـاس الهادئة : «لو وجـدت الأمم المتحدة عام ١٩٣٩ ، لكنا جميعاً نتكلم الألمانية الآن» .

هناك عبـارة في التلمود تقول ما معنـاه : «لزام عليك أن تقول للنـاس ما يمكنهم سماعه ، لـزام عليك الا تقول للناس مـا لا يمكنهم سماعه» . وحتى بعـد عامين من المذبحة لم يكـن كثير من البوسنيين مستعديـن لسماع أنه يجب عليهم أن يتوقفـوا عن الثقة في الأمم المتحدة ، كما أخبرهم كثير من الأجانب . لم يستطع الكثيرون الإنصات لأن ذلك يعني ضيـاع مستقبلهم ، وكثيرون آخـرون لم يستطيعـوا الإنصـات لأنهم في عهد تيتـو كانـوا يرون الغـرب في صورة مثـالية بحيث لم يتخيلـوا أن الغرب يمكن أن يخونهم . ورغم أن تشخيصهم لذلك لم يكن خاطئا ، حتى وأن أخطأوا في الاستنتاج ، فقد كانت الأمم المتحدة بالنسبة لهم أداة للغرب .

وقـد صورت جـوردانا كينسيفيتس ذات مـرة بقـولها «لا يمكن ان تتصور مـدى مبالغـة الناس في سراييفو في فضائل الغـرب . فقد افترضوا أن إزدهار الغـرب شهادة

على فضيلته تماماً كما كان فقر الشيوعية مقترنا بطغيانها. فكثير من الذين عرفتهم إعتقدوا بحق انكم في الغرب قد خلقتم إمبراطورية من العدالة. وذلك هو السبب في أن الناس الذين ربما كانوا أكثر إحاطة بالأمور اصابتهم دهشة بالغة عندما لم يحدث تدخل. لقد شعروا بمثل ما تشعر به وانت تسرق عنوة على مرآى من رجل الشرطة الذي لا يفعل شيئا لإنقاذك. والآن أنا أعرف وأنت تعرف أن الغرب لا يريد في الواقع أن يكون رجل شرطة ـ ليس نيابة عن مسلمي البوسنة على أي حال ـ ولكن الناس في البوسنة لم يكونوا يعرفون ذلك. وعندما أرسل العالم شيئا أسموه قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة كان من الطبيعي أن يتصور الناس أنها أرسلت لحمايتهم وليس لمجرد حماية إمدادات الاغاثة وعمال المساعدات الانسانية».

كان من الصعب تجنب تلك التوقعات في سراييفو. وبين حين وآخر كانت تطبغ بالنبرة العنصرية الواضحة للأوربيين الذين يتوقعون معاملة خاصة من التاريخ. قال لي مرة رجل اعمال من سراييفو في نبرة آسى: «لا أستطيع أن أفهم لماذا لا تفعلون شيئا من أجلنا. إننا لسنا أفارقة، نحن اوروبيون متحضرون مثلكم تماماً!» صدرت عنه هذه الكلمات عند مشاهدته لمعرض شرائح تم تنظيمه في سراييفو في معرض أوبالا وهو معرض طليعي للفنون استمر طوال الحصار بالرغم من كل الظروف. قدم المعرض اعمال مصور بريطاني شاب هو بول لوى، الذي كان قد عمل في الصومال والبوسنة. كان مجرد العرض يتطلب شجاعة كبيرة، حيث أن ذكر المأساتين في وقت واحد لم يكن أمراً مقبولا في سراييفو. وللحق لم يكن ذلك نتيجة لعدم مبالاة رجل الاعمال بمأساة القرن الافريقي، بل لأنه رفض المقارنة التي حاول لوى ومدير المعرض، ميرو بوريفاتر، عقدها بين الوضعين.

إن التقوقع داخل الذات غالباً ما يكون إحدى النتائج المترتبة على المعاناة الشديدة، ولم تكن نظرة رجل الاعمال غير المتفحصة تجاه مآسي الآخرين نمطاً خاصاً بسراييفو، بل لكل الناس في اي مكان الذين لا يتوقعون البقاء على قيد الحياة بقية الاسبوع. فإذا كان البوسنيون بمثل هذا «التقوقع على أوربيتهم» الذي لا يعني في حالتهم سوى التقوقع الذاتي، كما كان يحب مسئولو الأمم المتحدة القول بسخرية، فقد كان هناك لون من العنصرية المعاكسة كامن في توقع أن يبدأوا شكاواهم بتعبيرات

التعـاطف مع الصومـاليين أو الافغان أو أهل روانـدا. ومع كل ذلك فلم يكن ذلك أيضا ما كـان يحب أهل كيجالي أن يسمعوه، في مايو ٩٤، عن البوسنـة. إن ما كان يميز رد فعل كثير من البوسنيين بحق هو الدهشة من أن ما كان يحدث إنما يحدث لهم هم. فقـد تخيلوا، مثل مـواطني العالم الغني الآخـرين، أنهم سيشاهـدون مثل تلك المآسي على شاشة التلفاز لا أن تعانيها أجسادهم. وقد لخصت شابة كانت تعمل في إحدى وكـالات الأنباء العالمية ذلك الارتبـاك المؤلم عندما أعلنت في إحـدى أمسيات الصيف أنها كانت تنوي أن تمضي بقية اليوم في «أخذ حمام شمس»، واضافت تقول: «بما أن الأمم المتحـدة لا تعـاملنـا كأنـاس بيض البشرة، فإن مـا يلـزمني هـو اللـون الأسمر».

على أن مـا كـان يتأرجح في الميـزان بـالنسبـة للبـوسنيين لم يكن، على المستـوى الأعمق، وضعهم كأوروبيين بيض بل إيمانهم بالعالم كمكـان أخلاقي. وبعد عامين من القتال، أصبحت الاحداث في البلاد الاخـرى شيئاً غير محسوس بالنسبة لهم على أي حال. فقـد كان البوسنيـون العاديون يقلقـون بشأن طعامهم وشرابهم ويشغلهم تجنب القنـاصة والقنـابل والاحتفاظ بـدفئهم، وبعقـولهم. وقد يستمع أهل الطبقـة المتـوسطـة إلى BBC أو صوت أمـريكا على الموجـة القصيرة أو يسألوا الـزائرين عما «يحدث» في بـاريس أو لنـدن أو نيـويـورك ولكـن مع فقـدانهم لحيـاتهم اليـوميـة كمستهلكين للأشياء وللمعلـومات. فلم يكن باستطاعتهم معظـم الوقت سوى أن يركزوا فقط على ما كـان يجرى لهم: على آلامهم وعلى دهشتهم. لقد دأبوا على السؤال عن السبب، كما كان اليهـود يسألون في أعقاب الهولوكوسـت وكما يسأل الضحايا في كل مكانلماذا لم تكفهر السماوات.

كانت هناك بلاشك أسبـاب دعائية لدى مسؤولي الحكومـة البوسنية في حديثهم عن المذبحة في بلدهم وطرحهم مفترق طـرقٍ اخلاقي أمام الغرب. لكن مهما تصور المتشائمـون فقد كانت دهشتهم حقيقيـة كذلك. فمن المفـارقات المحزنـة في الوضع البوسني ان حزب عزت بيغوفيتش لم يكن ملتـزماً كما يجب قبل الحرب ببوسنة متعددة الثقافات. ولم يكن ذلـك من منطلق الأصولية بالمفهـوم الإيراني، ولكن على المستوى الثقـافي على الأقل كـان كثير من قـادة البوسنـة يجنحـون إلى عـودة سكان البـوسنـة

المسلمين إلى الإسلام. ولكـن مع استمرار القتـال، ومعانـاة وموت البوسنيين بـاسم الحفـاظ على دولة متعـددة الأعـراق، أصبح التزام قيـادة الحزب بالتعـدديـة شديـد الجدية. ولم يكن ذلك يعني انه لم يكن في الحزب أصوليون، أو أن القتال لم يخلق عالماً من المتعصبين الـذين يصرون على تـرديد «السـلام عليكـم» بـدلاً من «نهارك سعيـد» وينادون بـأنهم مجاهدين. لكن الاتجاهـات السائدة كانت تسير في الاتجاه المعـاكس على مـدى السنتين الأوليتين من القتـال، بصرف النظـر عما راود هـؤلاء الـذين أرادوا إستبعـاد الصراع البـوسنـي كحـرب أهليـة لا منـاص منهـا أن يتصوروه. ولم يبـدأ الاسلاميون يستمتعـون ببعض النجاح في التقليل من شأن مبدأ التعدديـة الثقافية في البوسنـة الحضرية وبدأ الحزب نفسـه في الانجذاب نحـو القومية الإسـلامية، إلا في أواخر عام ١٩٩٤، عندما فقد معظم المسلمين الأمل تماما في اي نتائج عادلة.

وحتى ذلك الـوقت استطـاع أغلب البـوسنيين القـادرين على وصف محنتهم في عبارات عقـلانية أن يقـوموا بـذلك بأسلوب التشبيـه الأخلاقي. ولم يكـونوا في ذلك يلعبون على أوتار الرأي العام العالمي فحسب، بل كانوا يتحدثون بنفس الأسلوب مع بعضهم البعض: كرر حارس سيلازيتش مـراراً في التلفاز البوسني: «إذا لم يتم عمل شيء لصالحنـا فذلـك يعني أنه لا وجـود لشيء إسمه الاخـلاقيات في شئـون العالم» وذات مرة أضاف: «هل يـريد الناس فعلاً في أميركـا وبريطانيا وفـرنسا أن يعيشوا في عالم كهـذا؟ إنني ببساطة لا أستطيع أن أصـدق ذلك». إذا كان البوسنيون يـريدون محاولة كسب اهتمام الغرب أو إثبات فكرة أنهم كـأناس متحضرين يستحقون معاملة خاصـة فلم يكن يجدر بهم أن يسارعوا بـالصاق الكارثـة التي حلت بهم إلى التداعي الروحي للعـالم الغني. ولقد كـان علي عزت بيغـوفيتش بشكل خاص ميـالا إلى هذا النـوع من التفكير. فقد أبـدى لي ملاحظـة حول أن خمسين عـام من الراحـة جعلت النـاس في الغرب «مـرتخين أخـلاقيـا»، كما يميل سيلازيتـس إلى الاشارة إلى الأزمـة الروحية التي تهدد أوروبـا والتي كانت اللاَمبالاة بقضية البوسنـة، كما صورها بهدوء مذهل «أحد أعراضها الثانوية».

وهنـاك آخرون، وهـم الـذين كانـوا إما بـراجماتيين أو متيمين بالثقـافة الغـربية لعنـوا أنفسهم لســـذاجتهم وعـــدم قـــدرتهم على نبـــذ الأمل. فقـــد قـــال السينمائي

ادميركينوفيتش، والذي لم يكن ساذجاً سواء من الجانب الشخصي أو السياسي، ذات مرة: «ربما أنني مجرد بلقاني أبلـه لكن أيا طال أمد هـذا الوضع، فإنني لا أستطيع أن أتصور أن العالم سيقف متفرجاً بينما نذبح نحن جميعا. ولكن ها نحن نذبح هنا، وأنا مازلت على أمل» كـذلك قال لي مسئول في مـركز الجماعة اليهوديـة، وهو رجل أعمال صارم عمل في يـوغسلافيا السابقة، بلهجـة نصف ساخرة ذات مساء: «لقـد تربيت على أفلام رعاة البقر. وفي تلك الأفلام يأتي الفرسان دائما عند النهاية. ولعله يبدو لك من الغبـاء أنني عندمـا أنظـر إلى السماء وأرى طائرات حلف النـاتو تطير فـوق رأسي أواصل التفكير: «هذه الطائرات هـي فرساننا المنقذين المحـدثين، لكنهم لا يفعلون شيئا من أجلنا».

إن ما لم يكن البوسنيـون من كل لون قادرين على تقبله هـو التفكير في أنه لا يبالي بهم أحـد. فإذا كان الغـرب يخاف الصرب أو أنه منحـل أخلاقيـاً، كما يعتقد عـزت بيجوفيتش وبعض سيـاسيي حزبه، فـذلك كله يبدو مفهومـا على الاقل. وإذا كان عدم التـدخل مبني على نقص في المعلومـات والمطلوب إخبـار الناس في الغـرب مرة أخرى بـالمضمون الكامل للمذبحـة، فذلك مفهوم كذلك. أمـا الذي لا يحتمل أي فهم فهو التفسير الـذي يستحيل طرحه على أي واحـد من أهل سراييفو والقـائل أنه بصرف النظـر عما أدت إليه خمسـون سنة من الـرخـاء من تراخ أخـلاقي فإنها جعلت الغرب جاف المشاعر على نحو غير أخـلاقي، وأنه اذا لم يكن هناك تدخل في البوسنة فذلك لأن القـوى الغربيـة لا يهمها مصير البـوسنة بـالقدر الذي تضحـى فيه حتى بأرواح عدد قليل من جنودهـا. ومن الناحية الإنسانية كان هـذا الإنكار مفهوما. أو كما يحب زورافكوجـربيو (وهـو استاذ في القانـون أدار أفضل محطة إذاعـة مستقلة في سراييفو، راديـو «زد» ـ وزد معنـاها حـائط ـ وكـذلك عمل منسقاً لمؤسسـة المجتمع المفتوحـة في البوسنة التـابعة للممول جـورج سوروس)أن يـردد دائما: «كل هذا وهم بالطبع ولكن على الناس أن يعيشوا على شيء ما» ولقـد كان من غير المعقول أن نتوقع من كثير من أهل سراييفـو أن يسيروا على نهجـه العقلاني هـذا في التفكير تمامـا مثلما تتوقع من النـاس أن يستمروا في التصرف بمثل تلك البطولية التي أبـداها الكثيرون في سراييفو وأماكن أخرى دون أن يتوفر لهم أي أمل في النصر أو النجاة.

ولقد اعتقد كثير من مسئولي الأمم المتحدة، المقتنعين بأنه لم يكن هناك أدنى احتمال بتدخل عسكري غربي مطلقا، أن مؤيدي البوسنة الأجانب ـ وبخاصة الصحفيين ـ قد ألحقوا أذى كبيرا بتعزيز تلك الأوهام. ولم يكن الأمر يتعلق بما يقال للبوسنيين، بل تمثل بالاحرى، وكما أصر بعض رجال الأمم المتحدة، في أن الصحفيين، بجعلهم إعلان الحكومة الأميركية بإستحالة التدخل أمراً غير مستساغ سياسياً، وبجعل السخط الشعبي حياً في أوروبا الغربية وبخاصة في فرنسا، عززوا آمالاً كاذبة وحرضوا السلطات البوسنية على قراءة للموقف السياسي مضللة في أساسها. وقد صرح لي مسؤول مدني رفيع في قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة بأن ما كان يمكن أن يفعل الكثير للتخفيف من معاناة الشعب البوسني هو إعلان عام من الأمريكان بأنهم لن يأتوا. وبدلاً من ذلك فقد استمرت إدارة كلينتون حتى ربيع ١٩٩٤ في التلويح بالأمل في التدخل.

ولو أن واشنطن كانت غير مخلصة في ذلك منذ البداية إلا ان الامور اختلطت عليها، أو أنها أسقط في يدها وهو ما يبدو واضحا بصورة متزايدة باسترجاع الاحداث، فإن ايدي الرئيس كلنتون ومستشاريه ستصبح مخضبة بدماء البوسنيين مثل الجنرال ميلاديتش. ذلك ان امكانية تدفق المساعدة العسكرية، بين وقت وآخر، هو الذي صلّب موقف الحكومة البوسنية فيما يتعلق بمواصلة القتال. وكانت الأمم المتحدة محقة في ذلك. وقد يصر رئيس وزراء البوسنة حارس سيلازيتس على أن جيش البوسنة سيهزم الصرب، ولكنه يعرف الى اي مدى كان الوضع متدهوراً على أرض المعركة. فبدون التدخل العسكري كان تقسيم البوسنة بشروط ليست في صف الحكومة أمراً محتوما لا محالة ـ قبلت الحكومة البوسنية سراً مبدأ اجراء نوع من التقسيم منذ أيام خطة فانس/ أويون ـ وحقيقة أنه منذ أواخر خريف ١٩٩٤ بدأ الجيش البوسني في تحسين وضعه في ميدان القتال لم تغير الوضع بشكل جذري.

ولكن إذا كان للمرء أن يحكم بالاقوال الصادرة عن واشنطون او من بعض السياسيين في باريس كذلك ـ مع غرابة ذلك حيث عارض الفرنسيون التدخل بصرامة منذ البداية ـ لكان من الصعب الاستنتاج بأن الضربات العسكرية الغربية ضد الصرب ستتوقف. كانت هناك فترات قصيرة بين ١٩٩٢ ، ١٩٩٤ حينما بدا

وكأن الولايـات المتحدة كانت تتأهب إمـا للعمل بمفردها أو لإلزام نفسهـا بالضغط على حلفائهـا لتأييد التدخل العسكري لحلف النـاتو. وبعد ذلك، تعود البـوسنيون على منظر الزيارات الطائرة لجنرالات الناتـو الأميركيين وعلى وصول الصحافة بالجملة إلى فندق هوليداي إن في سراييفـو، مرسلين من رؤساء التحرير الذين كـانوا يتوقعون على ما يبدو سقوط القنابل في أيـة لحظة. وقد يتصنع ذو الخبرة السخرية ولكن حتى هم كان يمكن ان يكـونوا عصبيين لأيـام قليلة. كان مـن الصعب في هذا الجو حتى على البوسنيين الذين استوعبوا أخيراً النهاية المؤلمة من أن أحداً من الخارج لن يمد لهم يد المساعدة، الاستمرار في الاعتقاد أنهم سيتركون ليواجهوا مصيرهم.

وبالنسبة لمسئولي الحكومة البـوسنية لم يكن أمامهم إلا أن يستمروا في محاولة حث الحكومات الأجنبيـة، وبخاصة الولايـات المتحدة، على التدخل. وحتى مع احتمال حدوث التدخل فقد ذكر صغار الضباط البوسنيين في عام ١٩٩٣ أن معلميهم كانوا يخبرونهم بشكل روتيني أن تـدريبهم يهدف الى إعدادهم لهجوم بـوسني أخير لن يتم قبل عـام ١٩٩٦ على أقل تقـديـر. ولكن في تلك الأثنـاء، حتى وهم يتطلعـون إلى التدخل وينتظـرونه، فقـد استلزمت متطلبات البقـاء يوماً بيـوم من جانب حكـومة البوسنة أن يبحث البوسنيون عن المساعـدة ليس من الناتو ولا من الفرقة الأميركية٨٢ المحمولة جواً، ولكن من اللجنة العليا للإغاثة وقوة الحماية التابعتين للأمم المتحدة. فقد كانت القوى الوحيدة التي تقف بين البوسنيين وقوات الجنرال ميلاد يتش.

وفي سراييفـو وفي وسط البوسنـة والقطـاعات الشرقيـة لسربينتشـا وغوراجـده، وبخاصـة بعد ان احتل الصرب المناطق المحيطة بتلك الجيـوب، أصبح هذا الاعتماد كـامـلا تقـريبـا. فكلما زاد إجبـار النـاس على الاحتشـاد في المدن، كلما زاد الجوع وانعدمت الـراحة وزاد اعتمادهـم على المساعـدات الإنسانية. ولفترات طـويلة نجت أماكن كثيرة مثل ماجلاي ـ والتي كانت مدناً تجارية وتضاعف عدد سكانها مرتين أو ثـلاث بعد التطهير العـرقي للمنـاطق المحيطة ـــ من الهلاك بفضل الإمـدادات التي كانت تسقطها طائرات النقل الأميركية. وبشكل عام، باستثناء وضع سراييفو حيث أنقذ الجسر الجوي للجنة العليا للإغاثة بالفعل أرواح آلاف كثيرة من الناس من الموت جوعاً، فإن جزءاً قليـلاً فقط مما قدرت اللجنة العليا للآجئين حاجـة الناس إليه هو

الذي كان يصلهم فعلاً. وقد أوجز ضابط في اللجنة العليا للإغاثة في نهاية ١٩٩٣، وهي إحدى أسوأ فترات القصف ونقص الحاجات الأساسية في العاصمة، الوضع بقوله: «بحسب معدل تدهور الأمور في كل مكان آخر، وأياً ساءت الأحوال هنا فستظل سراييفو جنة البوسنة حتى بقية هذا الشتاء». وكما قال لاري هولنجورث، العقيد الإنجليزي السابق ذو اللحية البيضاء والذي كان أحد مسؤولي الإغاثة في البوسنة الأكثر تأثيراً والأكثر صراحة، فإن الصرب استمروا ليس فقط في «التهام القرى واحدة بعد الأخرى» بل انهم احتجزوا أعداداً من القوافل أكثر مما سمحوا به. وبرغم كل ما يقال عن ان وجود قوات الحماية التابعة للأمم المحتحدة في البوسنة لتسهيل برنامج الإغاثة فلم يكن من سلطة الجنود استخدام القوة عند منع القافلة التي يرافقونها على الحواجز. إذ كان يفترض أنه إذا أمكن المرور بقوة السلاح مرة فسوف يترتب على ذلك ان يكون مرور القوافل التالية أمراً مستحيلاً. وبرغم مزايا هذا الجدل فإن النتيجة العملية هي أن النذر القليل من المساعدة كان يصل إلى الأماكن التي هي في أمّس حاجة لها. وكمثال واحد على ذلك أنه خلال الفترة من أغسطس ١٩٩٢حتى مارس ١٩٩٣ تمكنت ثلاث قوافل فقط للجنة العليا للإغاثة من المرور إلى سريبنتشا. ولأن حرب البوسنة لم تكن مسرحية أخلاقية ساذجة، فإن كثيراً من ذلك النذر القليل لم يذهب الى السكان الأكثر حاجة اليه بل أخذ طريقه في النهاية إلى المحاربين على جبهة القتال. وكان من المألوف أن ترى أن مواقع الحكومة البوسنية تحميها أكياس الرمل المصنوعة من أكياس أغذية الإغاثة أو من ألواح البلاستيك التي أرسلتها اللجنة العليا للإغاثة للاستعاضة عن النوافذ التي دمرتها القذائف. ولم ير أي من البوسنيين الذين التقاهم المرء غضاضة في ذلك. فالحرب تأتي في المقدمة.

ومع ذلك فقد كان من الصعب على أي مستوى الحفاظ على الجهود السياسية والديبلوماسية والإنسانية في أطرها الصغيرة المنفصلة .

فإذا كان للأمم المتحدة أن تستمر في تسيير قوافل الإغاثة الإنسانية، فعليها أن تغمض عينيها عن طريقة استخدام بعض الإمدادات. ومن جانبها سرعان ما أصبحت القيادة البوسنية في سراييفوا تعتمد على كرم ومعروف قوات الحماية، حتى وهي تستنكر عدم فعل المزيد، حتى في أمور أساسية مثل الدخول والخروج من

المدينة المحاصرة. وعلى مدى القتال، استطاع البوسنيون أن يحفروا نفقين من المدينة، تحت خطوط الصرب والمطار الذي تسيطر عليه الأمم المتحدة، إلى قرية تحت إدارة الحكومة واسمها بوتمير. كان هذان النفقان، واللذان كانا في منتهى السرية حتى ١٩٩٣ عندما سمح لتشاك سوديتيك من نيويورك تايمز ان يعبر في أحدهما (سرت إشاعة عن نية الأمم المتحدة أن تذيع نبأ وجودهما) وسيلة احضار معظم السلاح والمواد الغذائية من السوق السوداء ووسيلة الجنود وبعض المواطنين للخروج. ولم يكن المرور سهلاً فقد كان النفق منخفضاً ومعتماً ويصعب السير فيه لأي شخص سوى الصغار والأقوياء. فعندما أراد علي عزت بيجوفيتش، وهو رجل الرابعة والسبعين، ان يزور قواته في وسط البوسنة – وهي رحلة لن تسهلها قوات الحماية – فقد قيل أنه لزم ركوبه على عربة يد داخل النفق. وعلى أية حال، كان النفق بالنسبة لمعظم أهل سراييفو يبدو في كوكب آخر. فالحياة اليومية في سراييفو كانت حياة في مدينة أحكم عزلها من جانب الصرب في المقام الأول بالطبع وكذلك من قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة.

وللوهلة الأولى بدا تحديد الأمم المتحدة لقواعد الدخول والخروج من سراييفوا أمراً لايمكن احتماله، فالمدينة في النهاية عاصمة لدولة عضو في الأمم المتحدة.

وفي ضوء هذه الحقيقة ونتائجها المباشرة والمتمثلة في ان الصرب في بالي كانوا القادة غير الشرعيين لتمرد ضد دولة معترف بها دوليا، فبإمكان المرء أن يتوقع إذعان مسئولي الأمم المتحدة لرغبات عزت بيجوفيتش ورفاقه. ومن المؤكد أنه كان من المذهل ان ترى مسئولي الأمور المدنية التابعين للأمم المتحدة يأخذون علي عاتقهم تنفيذ الادارة الفعلية لحصار الصرب بتحديد العدد القليل من أهل سراييفوا – معظمهم من رجال الحكومة والصحفيين المحليين –الذين يستطيعون الطيران على رحلات الإغاثة التي يستخدمها الصحفيون الأجانب والشخصيات المرموقة من الزائرين في الاياب والذهاب.

كانت طائرات النقل التابعة للناتو التي تستأجرها اللجنة العليا للاغاثة تعود فارغة في رحلات العودة الى قواعدها في سبليت وأنكونا وفرانكفورت، وآذن لم يكن الموضوع مسألة وجود مكان. ولكن ذلك لايهم. فحسب أقوال الأمم المتحدة لم يكن

لديها «تفويض» بنقـل الناس. وعلى أية حال- رغم عدم وجـود نص مكتوب- فإن منع الناس من المغادرةكـان جزءاً من الاتفاق بين قوات الحماية التابعـة للأمم المتحدة والجنرال ميلاديتـش عندما تخلى الصرب عن المطار ليكون تحت سيطـرة الأمم المتحدة في أوائل صيف ١٩٩٢.

ولم يحرم البوسنيـون فقط من التصريح بالسفر على رحلات الطـائرات بل سرعان مـاحـددت فقط ٦ رسـائل يحملهـا الصحفيـون الأجـانب عن أهل سراييفـو عنـد مغادرتهم. قـالي لي شرطي مدني سـويدي تـابع للأمم المتحـدة عندمـا اكتشف مخبأ للرسائل في جيب سترتي وصادر معظمهـا: «أنت صحفي ولست ساعى بريد. ولن اسمح لك بأخذ تلك الرسـائل فقد يكون في احداها متفجرات بـلاستيكية» وعندما سألتـه ما إذا كـان قد وجـد اي سيمنكس او فورمكس اجـاب بمنتهى الأمانـة: «لا ليس بعد... شكراً» ثـم تحول الى صحفي بوسني معرفتي به قليلـة وأفرغ كل أشياء الرجل الصغيرة ودس يديه فيها. فلا هذا الشرطي، الـذي كان بالمقارنة أقل غطرسة من الفرد العادي في قوات لـلامم المتحدة (كان يمكن الاعتماد على كتيبة صغيرة من الكولومبين فقط في التعامل الانساني، اما الكنديين والاسكندنافيين فكانوايتصرفون مثل حراس السجون) ولا أى من رؤسائه الذين تحدثت معهم أحسوا بشيء خاطىء في سلـوكهم أو نـاقشـوا مـدى الليـاقـة في أن يحددوا مـاومن يـدخل أو يخرج من سراييفو. وعنـدما يـرى المرء الجندي التـابع لقوات الأمم المتحدة اثنـاء العمل، يفهم السبب في أن كثيراً من الناس في العالم الثالث يتشككون في استخدام عمليات الأمم المتحدة لعمليـات حفظ السلام لاقامة شكـل جديد من الاستعمار. لقد كـان رجال الشرطة المدنية ورؤسـاؤهم في الشؤون المدنية الذيـن قابلتهمفي البوسنة، أنـاساً كان من الممكن أن ينـاسبوا تمامـا الخدمة في منطقـة نـائية من الهنـد البريطانيـة يفرضـون القوانين علي أجناس دنيا أعطيت لهم السلطـة عليهم. ولاشك أن الشرطة الامبريالية عام ١٨٩٣ كانت مستعدة لتبريـر سلوكها بطلب «تفويض» من المكتب الاستعماري في لنـدن كما يحيل الآن مسؤلـو الامم المتحدة جميع الاستفسـارات الى مجلس الامن في نيويورك.

لم يكن دور رجـال الأمم المتحـدة كحـراس بـوابـات محصـوراً في الإهـانـة ونـزوة

استعراض السلطـة -باسم منع أي تهديد إرهابي محتمل- على القليلين الـذين منحوا تصريحاً بالسفر علي رحـلات الإغاثة . بل كانـت قوات الحماية التابعة لـلأمم المتحدة تجوب أيضاً ممر المطـار لتعيد الأشخاص الذين خـاطروا في يأس في مواجهـة القناصة الصرب لكي يغادروا سراييفوا . وقد مات كثير من أهل سراييفو عندما كانت الأضواء الكاشفـة لجنود الأمم المتحـدة التي تستخـدم في تحديد اماكنهـم على المدرج تفيد في تسليط الأنوار عليهم للقنـاصة الصرب القريبين . كما كـانت هناك قصص كثيرة عن افراد من جنود الامم المتحدة يهينون بشكل روتيني اؤلئك النفرمن أهل سراييفو الذين يمسكـون بهم . وقد انكـرت الأمم المتحـدة ذلك . ولكن حتى عنـدمـا كانت تظهـر بعض الامور التي يتـم انكارها مثل حـادثة ١٩٩٣ عنـدما قامت نـاقلة افـراد جنود مصفحة تـابعة لقوات الحمايـة اثناء دوريتهـا بالسير فوق البـوسنيين المنكمشين قرب مدرج الإقلاع- فإن مسـؤولى الأمم المتحدة بدوا غير نادمين مـؤكدين ان منع الناس من المغـادرة كان جـزءاً من اتفاقهم مـع الصرب . وعندمـا يقول لهم احـد أنه بـاسم الانسانية كان يمكن أن يجوبوا بدورياتهم بهمة أقل، حيث أن هناك في النهاية الكثير من الجوانب في التفـويض لم يستطيعـوا او لم يرغبـوا في تنفيـذها - كحمايـة الملاذات الآمنة الست التي حددها مجلس الأمن على سبيل المثال- كانوا عادة يجيبون بأن عدم مـرورالـدوريـات سيجلب عليهم غضب الصرب ويعـرض للخطـر النقل الجوي الإنساني .

وقد يكـونون على صواب، رغم أنه يبـدو أمراً بعيد الاحتمال، ، حيث إنه عنـدما أراد صرب البوسنة أن يغلقوا المطار لم يبد مطلقاً انهم يحتاجون الى ذريعة لذلك . فقد كانوا يطلقـون بعضً من القذائف او يطلقون النار على طـائرات الأمم المتحدة . لكن كانت سمة قـرارات الأمـم المتحدة في البوسنة أن قوات الحماية لم تحاول مطلقـاً أسلوباً أرق مع البوسنيين ولم تنتظـر مطلقاً لترى اذا كان الصرب سيقـومون بالانتقـام . كان يمكن للأمم المتحدة أن ترسل دوريات أقل وكان يمكن أن تغمض عينها عن النساء من دوبرينيا او سراييفو وهن يعبرن المطار واذرعتهن محملة بالطعام وهن عائدات من المدينـة أو بحقيبـة صغيرة اذا كن يحاولن الهرب بها كما كـانـوا يغمضـون أعينهم عن السوق السوداء التي كانوا يروجونها هم . فقد كان من الأسرار المكشوفة في سراييفو أن

يقوم أفراد من الكتيبة الأوكرانية لقوات الحماية التابعة للأمم المتحدة بتهريب الصرب الذين كانا يريدون مغادرة سراييفو الى بالي مقابل ألف مارك. كان العبور غاية في الخطورة حيث كان القناصة الصرب يضعون تلسكوباً بالاشعة تحت الحمراءعلى بنادقهم ويطلقون النار. ولكن قوات الحماية كانت لاتكل ولاتتعب من أرسال الدوريات لاستعادة الناس الذين تقبض عليهم وعادة ماتصادر الأطعمة التي يأتون بها إلى المدينة. أما ماكان مزعجاً في ذلك كله، حتى اكثر من السياسة نفسها، فهو انعدام الخجل لدى الأمم المتحدة وهي تنفذها. لقد بدا الأمر وكأنهم عاهدواأنفسهم على أنهم الطرف الفاضل- الطرف الفاضل الوحيد حسب تفسيرهم -في المأساة البوسنية وكل مايفعلونه كان فاضلاً حتى الغلظة في سلوك قوات الحماية في مطار سراييفوا. وبهذا التقدير المبالغ فيه للذات المنتشر بين مسؤولي الأمم المتحدة، كان من السهل ان يتولد لديهم الاحساس بأن قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة اعتبرت نفسها الطرف الحقيقي المضطهد في البوسنة.

ومع ذلك وبالضرورة كانت الحكومة البوسنية مضطرة إلى التعاون مع قوات الحماية حتى في مسائل الدخول والخروج من المدينة.

فاذا احتاج حارس سيلازيتش او أي مسؤولين حكوميين آخرين مغادرة سراييفوا لحضور جولة اخرى من المفاوضات في جنيف، فإنهم يستطيعون ذلك فقط على متن طائرات الأمم المتحدة. ولهذا الغرض، كان يمكنهم الوصول إلى المطار بأمان فقط عند ركوب ناقلة المصفحة التابعة للأمم المتحدة. وعندما كان مسؤولو قوات الحماية يتضايقون بالفعل فإن أول خطوة يتخذونها كانت في العادة أن يهددوا بايقاف استخدام المسؤولين البوسنيين للناقلات المصفحة. ذات مرة شاهدت مظاهرة للبوسنيين ضد الأمم المتحدة قال خلالها ضابط فرنسي كبير هو العقيد فالنتين لمسؤول بوسني متواجد إنه « اذا لم يتوقف ذلك فوراً، ففي المرة الثانية التي يريد فيها جانيك (نائب الرئيس) أن يذهب إلى المطار فليذهب على قدميه». وحتى ساداكو أوجاتا مندوبة اللجنة العليا للاجئين نفسها كانت ضالعة في هذا النوع من التكتيك فبعد فترة عصيبة من القصف وعندما دعا عمدة سراييفو إلى إضراب عن الطعام أجابت أوجاتا وكأنها تتعامل مع مجموعة من الأطفال الاشقياءبأن علقت النقل

الجوي حتى تراجعت سلطات المدينة عن الاضراب .

كان الأمر استعراضا محضا للقوة . في ذات الوقت ، كانت مخازن اللجنة العليا للإغاثة في سراييفوا مكدسة وكان يمكن لها أن تستغل الفرصة لإعادة ملئها . ولكن بالنسبة لأوجاتا بدا أن الأكثر أهمية ان تعيد إلى الاذهان أنه مع كون البوسنة دولة مستقلة فأن اليد العليا كانت لقوات الحماية ومندوب اللجنة العليا للآجئين التابعين للأمم المتحدة .

وعندما يحدث خطأ ، حتى في امر بسيط مثل نقل مسؤول بوسني من أو الى المطار، تسرع الأمم المتحدة الى لوم الجميع عدا نفسها . ففي يناير ١٩٩٣ كان نائب الرئيس ، قدرة دكتور حاكيا توراليس ، وهو أبرز عضو في حكومة عزت بيجوفيت ، عائداً إلى سراييفو في عربة لنقل الافراد بعد اجتماع مع مسؤولي الاغاثة الانسانية الاتراك في المطار. وعند منحني عند منتصف الطريق الى المدينة ، حيث أقام صرب البوسنة بعد ذلك نقطة تفتيش- رغم حقيقة انه بناء على اتفاقية المطار كان يسمح لهم مسبقاً بتفتيش امدادات الاغاثة في المطار وانهم قد تخلوا كما هو مفترض عن السيطرة على الطريق للأمم المتحدة- فقد اوقفت قافلته من قبل مائة وخمسين من مقاتلي الصرب وعدد من العربات المصفحة . وتلى ذلك تحفظ عليها . وبدلا من أن يطلب المساعدة من قوة الحماية الموجودة في المطار فقد قام قائد الكتيبة الفرنسية ، العقيد باتريس سارتر، بإبعاد عربات القتال البريطانية التي تصادف وجودها في موقع الحداث . وعندما عرض قائدهم الكابتن بيترجونز الانتشار حول ناقلةالجنود المدرعة التي كان يجلس فيها توراليتس صرفه سارتر قائلاً« هذه مشكلة فرنسية» . وبعد قليل سمح سارتر بفتح مؤخرة الناقلة ليظهر للصرب ، كما قال لاحقا ، أنه لاتوجد أسلحة أو « مجاهدين» يركبون مع توراليس وعند ذلك بكى توراليس حسبما قاله فرنسي مجند يركب معه . وقد كان لرعبه مايبرره ففي حضور سارتر صوب مقاتل صربي مسدسه ببساطة خلف كتفه وداخل مؤخرة العربة ومزق دكتور نوراليتيس إرباً .

وقد برأت لجنة تحقيق تابعة للأمم المتحدة الجنود الفرنسيين وأشارت إلى أنه كان خطأ من البوسنيين بخلق « جو من التوتر» بين الصرب ذلك اليوم . وادعى التقرير ان الصرب « انزعجوا» من وصول الطائرة التركية . ولم يعط البوسنيون قوات الحماية

إشعاراً في الوقت المناسب عن الرحلة.

أما بخصوص العقيد سارتر، فبدلا من إعادته لوطنه، سمح له بمواصلة العمل في البوسنة، وعند عودته الى فرنسا، نال نوط الشرف مكافأة له، ثم ارسل لاحقا لقيادة أحد عناصر قوة التدخل الفرنسية في رواندا. ولم تكن هناك مدعاة للدهشة لتبرئة لجنة تحقيق قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة لسارتر بالنسبة اى شخص يعرف كيف كانت قوات الحماية تعاملموظفيها فالتغطية على التنفيذ السيء للأمم المتحدة كان واضحاً مسبقاً من خلال رفضها قبول الإحتمال بتورط افراد قوات الحماية في سوق سوداء واسعة، وهو ما نبه إليه الصحفيون كثيراً. وقد أرسل القائد الفرنسي لقوات الحماية، الفريق فيليب موريون بالفعل بعضاً من الجنود الاوكرانيين الى بلدهم ولكنه اصر على ان بذاءاتهم كانت حوادث منفصلة. وبدا انه لا الفساد ولا التقصير كانا سبباً يدعوا الى التقييم الذاتي لدى الرتب العليا في قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة.

وعلى ذلك فقد كانت لدى البوسنيين أسباب كثيرة ليفقدوا ثقتهم في قوات الحماية تماثل على الأقل ماكان لديهم للترحيب بهم. ولكن أحد الاشياء التي تعلمها المرء في البوسنة هو أن الناس قادرون على الابقاء على العديد من الآراء، بل وربما هويات متعددة، في وقت واحد داخل عقولهم. واكثر الامثلة وقاحة وازعاجاً على ذلك بالطبع هو قدرة الكثير من صرب البوسنة على ان يتصوروا أنهم متمدينين تماماً وقبليين في الأساس في آن واحد. وعلى جانب الحكومة البوسنية كان من المحزن أن تدرك أنه أيا كان تكرار استنكار الناس للأمم المتحدة، وفي سراييفوا بصفة خاصة، وعضبهم تحت احتلالها الجزئي الحميد، فقد توقع البوسنيون كذلك أن تقوم الأمم المتحدة بدور اكبر من أجلهم وليس فقط ارسال قوافل وطائرات نقل محملة بالمواد الغذائية والدواء. أمابالنسبة للأمم المتحدة فإن البوسنيين، وإن لم يكونوا أولادا طيبين، فهم على الأقل الجانب الواقع عليه معظم الظلم والذين اضطروا للإستسلام من أجل مصلحتهم. وبالنسبة للبوسنيين فربما كانت قوات الحماية يدها قد رفعت يدها وتتصرف بدون فاعلية ولكن لو أن قواتها انتشرت في البوسنة فإنها عاجلاً أو آجلاً كانت ستدخل الى جانبهم لإنقاذهم.

لقـد كان الجنـرال ماكينـزي محقـا في ربط ذلك الاعتقاد الخاطىء بـالأمل في أن التدخل العسكري لـلأمم المتحدة آت في آخر المطاف ، وبـالنتيجة المترتبة على ذلك الاعتقاد وهي الشعـور الحاد بخيبة الأمل عندمـا لم يتم ذلك وكذلك بالنسبـة لمشكلة تسميـة جيش الأمم المتحـدة إلى البوسنـة «بقـوة الحماية» . ومع ذلـك فإن الصعوبـة الأسـاسية كـانت تكمن في أنه إذا كـان معظم البوسنيين قـد اعتقدوا عـام ١٩٩٢ ، ومازال كثير منهم يـأملون فيه عـام ١٩٩٤ أن قوة دوليـة ستنقذهـم ، فقـد كان ذلك لأنهم اعتقدوا انهم يستحقـون الانقاذ . وربما يكـون ذلك هو شعـور جميع الشعوب الضحيـة في العـالم ولكن مـاجعل البوسنيين مختلفين عـن الافغان أو الـروانـديين أن حياتهم قبل الحرب قد طبعت في أذهـانهم الافتراض بأن مايستحقونه سوف ينـاولونه كذلك .

عنـدمـا اتجهت البـوسنـة نحـو التقسيم ، كـان من الـواضح ان ذلك هـو خطـؤهم القاتل .

فقد تصورت حكـومة البوسنة أنه إذا استطـاعت فقط الدعاية للقضيـة البوسنية بشكل كاف واثـارة الغضب في الغرب فعنـدئذ ستضطر القوى الكبرى ، والـولايات المتحـدة على الأخص ، إلى التدخل أخيراً . وعنـدما ذهب وارن كـريستوف ، وزيـر خارجية أمـريكا ، إلى أوروبا في مارس ١٩٩٣ ظاهـرياً لمحاولة أخـذ الدعم للموقف الأمريكي وأنهاء المعارضـة المتشددة من قبل الانجليز والفرنسيين لأي تـدخل ، سواء عمداً أو لعدم الكفاءة (كانت هناك مدرسـة فكرية في واشنطون ترى أن الامريكان لم يـريدوا أبـدا عمل أي شيء في المقـام الأول ولكنهم يحاولـون ارضـاء الرأي الـداخلي للطبقة العليا) فقد كان يجب ان يكون واضحاً للسلطات البوسنية أنه لم يكن في ذهن الامـريكـان أي شيء . فبـدلا من أن يتحدث وزارة الخارجيـة عن خطـة الـولايـات المتحدة ، كما كـان يفعل سابقوه ، فإن وارن كـريستوفر دعـا إلى مناقشة محكـوم بعدم فائدتها .

وبالطبع لم تكن جولة الدبلوماسيين- بمناقشاتها التي لا تنتهي للخيارات الاقليمية ، واعتبارات السياسـة الداخلية ، والتي لا تعني الكثير لدى البـوسني - العادي (نادراً مايكون للغة السياسة معنى عند من جربوا نتائجها) لم تكن بأى حال العائق الوحيد

أمام الغربي. فقد ظل كثير من المخططين العسكريين في كل من قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة وفي وزارات الدفاع العربية، وبخاصة البريطانية، يصرون على صعوبة عمل اي شيء يردع صرب البوسنة عن مواصلة من الحرب. وأيد كثيرون صوراً أقل رشاقة من صيغة هربرت أوكون الساخرة القائلة ان «الصرب يقتلون بدون وخز من ضمير ويموتون بدون شكوى» ورغم أنهم لم يبادروا بقولها، فقد تصرفوا وكأنه ليس أقل من هجوم أرضى على بالي من أجل منع الصرب من الحصول على كل مايشتهون في البوسنة.

كانت الصفات العسكرية لصرب البوسنة مجرد جزء من القصة كلها.

ولتأطير الخيارات المتاحة أمام الغرب على أساس إنها أما الإذعان لأهداف حرب الصرب أو الحرب الشاملة ضده، كان معناه أن تحدد مسبقاً ماسيكون عليه الخيار النهائي وبوضع مثل هذا الهدف الأقصى فإنك في الواقع تجعل العظيم عدواً للطيب. أن القوة الجوية قد لاتستطيع رد الصرب ولكنها كانت تستطيع ان ترفع حصار سراييفو. (كل مافعله وقف اطلاق النار هو ايقاف القصف ولكن الحصار ظل على حاله). كذلك كانت تستطيع منع الجنرال ميلاديتش من تحطيم القدرة الاقتصادية في جيب غورازدي. ولكن عند الاستماع لموظفي المكتب الصحفي للأمم المتحدة في سراييفو وزغرب ومحللي الدفاع في لندن وباريس فقد كان من الصعب ألا تشعر بأنه كلما زادت إهانة صرب البوسنة لقوات الحماية التابعة للأمم المتحدة، كلما زاد اعجاب العسكريين الغربيين بهم. ان الطريقة التي بدا أن ا التعليقات الصحيفة لمكتب الأمم المتحدة تميل إلى اتباعها في التركيز على مناقشة مدى صلاحية البوسنة لحرب العصابات وكيف يصبح من السهل على الصرب شل طوابير المدرعات على الطرق عند عودتها وكيف ان لدى الصرب عادات في القتال تعود الى الحرب العالمية الثانية عندما قضوا على سبع وعشرين فرقة من الجيش الالماني، كل هذا ا لحشد من البيانات كان معبأ مسبقاً ضد مساعدة البوسنيين.

وما كان يقوله العسكريون لم يكن صحيحاً من الناحية التاريخية أو يعكس حتى التجربة الصغيرة للأمم المتحدة والقوى الغربية مع الأسلوب الذي رد به صرب البوسنة على التهديد بالقوة من قبل الغرب منذ بداية القتال عام ١٩٩٢.

فقصة انصار يوغسلافيا الذين قضوا على«الفيرماخت» (القوات المسلحة الالمانية) قد صارت حدوتة شعبية اوروبية لم تؤكد الذاكرة صحتها . أما الحقيقة فهي أنه رغم بطولة المقاومة وقدرتها على تحطيم جهود حرب الألمان في البلقان، فإن قوات تيتو أمضت في الحرب متقهقرة أمام الألمان أكثر مما أمضت تجبرهم على التقهقر. وقد تضمنت مسيرة حرباً شرسة من ثلاثة محاور بين كل من غير الأنصار والكروات وكروات البوسنة من اليوستاشا وقوات الصرب الملكية بقيادة جنرال ميهيلوفيتش - وليس حرباً ضد الألمان. وقد خدم مسلمو البوسنة مع كل من الكروات الفاشيين الأنصار وبالنسبة لتعدداهم فقد كانت الخسائر في الأرواح بينهم أكبر من اى مجموعة قومية اخرى في البوسنة. وأما من حيث قصة السبع وعشرين فرقة للفير ماخت فتلك هي الخرافة بعينها. فلم يشترك في حرب المحاربين الأنصار سوى فرقتين المانيتين على الجبهة . ولكن راهن تشرشل ضد مبادىء المحافظين وعلى تيتو الشيوعي اثناء الحرب. فقد قال: « كل ما أهتم به هو من يقتل اكبر عدد من الألمان»، وعندما اعترض سياسي محافظ بأن تيتو كان شيوعياً أجاب تشرشل في نبرة لاذعة: «هل تخطط للعيش في يوغسلافيا بعد الحرب؟»

وبعد أن إنشق تيتو عن روسيا عام ١٩٤٨ ، عندما بدأ الغرب بالاهتمام بدعم نظام بلجراد، فقد كان ترديد قصص تيتو عما حدث بين ١٩٤٠ و١٩٤٥ مادة للدعاية المرافقة لكل المساعدات التي كانت تتدفق على يوغسلافيا وفق خطة مارشال. لم تكن هناك وسيلة لجعل تيتو الشيوعي شخصية مقبولة، ولكن تيتو بطل المقاومة كان شيئاً آخر مرة ثانية . فالعزف على أوتار انتصارات قوات الأنصار كان جانباً ايجابياً في النظرة الغربية التي أغفلت باصرار الطبيعة القمعية لدولة تيتو (حدثت غملية مماثلة واجهت رومانيا - شاوشيسكو حتى لحظة لصق«عبقري الكارباثيان» بالحائط واطلاق النار عليه)، واختارت فقط تأكيد استقلاله في السياسة الخارجية عن الكتلة السوفيتية . . وبمجرد تفكك يوغسلافيا، أثبتت نفس الأساطير أنها متأصلة تفكير البعض بما يكفي لاقناعهم أنه لايوجد مخرج عسكري فعال لوقف الصرب في البوسنة، ولأن تكون ذات فائدة للآخرين- مجموعة متناوبة كانت تضم علي فترات معظم الشخصيات الرفيعة في الحكومة البريطانية والفرنسية

- الذين لم يريدوا التعهد وبالتدخل او حتى رفع حظر السلاح عن الحكومة البوسنية.

وكانت هناك عوامل اخرى. فالى حدما، اغتبط الضباط البريطانيين والفرنسيين لتقديم تلك التقديرات لأنهم كانا يواجهون بإصرار قليل الخبرة والمعلومات من جانب بعض مساندي الحكومة البوسنية على أن التدخل الغربي سيكون سهلاً نسبياً. ولم تعمل الاصوات المطالبة برفع حظر السلاح عن البوسنيين حساباً للحقائق العسكريةعلى أرض الواقع. فحول السؤال عن كيفية وصول الاسلحة الى سراييفو او توزلا كانت اجابات مؤيدي هذا الاتجاه غامضة على أحسن تقدير. وعند الضغط عليهم لتقديم إجابة، يعترفون بأن بعض القوى الخارجية ستقوم باحضار الاسلحة التي يحتاج إليها البوسنيون. ومع ذلك، فإذا أخذ المرء بكلامهم، فإن مايدعون إليه كان التدخل العسكري بحذافيره. كان حلف الناتو فقط هو الذي يملك القدرة على اخماد نيران صواريخ وبطاريات مدفعية الصرب المنصوبة حول مطاري سراييفوا وتوزلا. كما أن حلف الناتو وحده هو الذي يملك لديه الطائرات المهاجمة القادرة على اسقاط أو على الاقل، التهديد باسقاط الطائرات الصربية التي ستقوم باعتراض أي محاولة لاحضار الأسلحة الثقيلة أو حتى نظم الصواريخ المضادة للدبابات.

و الواقع أنه لم تكن هناك أية إمكانية مطلقا لوصول الأسلحة بكميات تكفي قوات حكومة البوسنة بدون تدخل عسكري محدود على الأقل. فربما تراجع عندئذصرب البوسنة. ولكن لايمكن ان يوافق أي مخطط عسكري في كامل قواه العقلية على أفتراض أن مثل هذا العمل يمكن أن يتم مع تجنب حدوث قتال في الوقت ذاته. فما لم تكن للقوات المتدخلة صلاحية القتال فلا محل للتقدم. فالجنود الذين سيقومون بالفعل بعمليات الموت والقتل لهم كل الحق في طلب ذلك من حكوماتهم. كان الأمر خداعاً أخلاقيا ان تتظاهر الحكومة البوسنية أنها فقط تريد السلاح. فقد كانوا يحتاجون إلى جنود الناتو ليأتوا لهم به. وكان من قبيل الحماقة الأخلاقية مهما بلغ تفهمنا للأمر، أن يتظاهر الناشطون في تأييد البوسنةبغير ذلك.

تصرف بعضهم على هذا النحو لأنهم لم يفهموا بصورة حقيقية أبعاد ما يقولون. ويصح ذلك بشكل خاص على الغربيين المؤيدين للبوسنة المنتمين لليسار

الأوروبي والأمريكي، والذين كان كثير منهم يساندون الدوائرالعسكرية في حكوماتهم هم لأول مرة في حياتهم. ولأنهم أمضوا شبابهم معارضين للقوة، فإنهم لم يمعنوا التفكير فيما ينطوي عليه استخدام القوة. لقد كانت الخيارات في البوسنة ضيقة. فحتى الاستخدام المحدود للقوة العسكرية محكوم بقوانين الحرب - وهو أسلوب آخر للتعبير عن مقتضيات الحرب القاسية. فإيقاف الصرب يعني قتل الكثيرين من الصرب بمن فيهم غير المحاربين الابرياء. فالحرب هي الحرب. وليس بإرسال شرطة مفخمين للقبض عليهم أو يجعلونهم يكفون عن عدوانهم.

ومع ذلك، فلا يقلل من قدرات قوات الجنرال ميلادتش أو الجيش الوطني اليوغسلافي ان نصر على ان الصورة التي تشبث بها عسكريو الأمم المتحدة طول قامة الصرب الذي يبلغ عشرة أقدام كانت مبالغاً فيها مثل الافتراض الحالم لمؤيدي التدخل من أنهم أقزام (٢ قدم) أما النفاق الاكبر فهو الادعاء من جانب مسؤولي الأمم المتحدة أنهم يصلون إلى هذه الاستنتاجات على أساس دقيق للمعايير العسكرية الموضوعية. وقد يختلف الرأي فيما يتعلق بالمشروعية، ولكن كان هناك على الأقل دليل يؤيد فكرة عدم تحصن الصرب مطلقاً أمام ضربات الناتو الجوية وأن بعضهم يعلم ذلك، مثلما كان هناك افتراض بأن مثل تلك الهجمات ستكون ضعيفة الأثر على أي من السلطة العسكرية أو على الروح المعنوية للقوات الصربية. فقد ظل الضباط ذو الرتب العالية الامريكان والأوروبيين الغربيين يرددون، وبدقة كافية، أنه لم يتم أبدا كسب حرب من الجو - وهو مايعني ضمنا أنه طالما ظل الناتو غير راغب في ارسال قوات أرضية فلن تخدم الحملة الجوية اي هدف. على أن المهمة المطلوبة لم تكن تتمثل في هزيمة الصرب بل للنيل من روحهم المعنوية وتدمير الكثيرمن معداتهم وادخال تلك النوعية من المعدات العسكرية التي تلزم البوسنيين لجعل جنرال ميلاديتش واعوانه يعيدون التفكير في الحكمة من استمرار حملتهم.

قد يموت الصربدون شكوى ولكنهم ليسوا ممن لايقهرون فحتى والميزان العسكري في جانبهم بشكل جذري، كانت هناك مناسبات كثيرة في العامين الأولين من القتال اهتزت فيها روحهم المعنوية. ففي بانيا لوكا في خريف ١٩٩٣ كانت عناصر من جيش صرب البوسنة على وشك العصيان. ورغم ان مقاتلي التشتنيك، وكثير منهم

كانـوا «محاربي نهاية الأسبـوع» الذين جـاءوا إلى البوسنـة من صربيا والجبـل الأسود، وبأعداد قليلة مـن المانيا والنمسا. ، للقيام بأعمال قصيرة على جبهة القتـال، كانت لديهم شهية القتال، فقد قابلت كثيراً من جنود جيش صرب البوسنة في شتاء ١٩٩٣ الذيـن ابدوا تبرمهم . ومن الـواضح أنه كـان من الأفضل ان تكون محاربـاً صربياً في غرفـة حصينة فوق سراييفـو أو أن تجلس وتشرب خمر سليفوفيتـز على جبل فيز شرق تـوزلا من أن تكـون أحـد المدافعين عـن أى من تلك المدن المعـرضين للنيران داخل خادقهم. وأيـاً ماكان إصرارهم - وإعتقـادهم- أنهم راغبون في القتال للأبـد، فقد كانت الحياة بالنسبـة للمقاتلين على الخطوط الأمامية للصربتتصف بالسهـولة مقارنة بغيرهم فحسب.

واذا كان الجنـدي العادي من صرب البوسنة يشعـر غالباً بالبرد والمطـر، وبالحنين لأسرته، فقـد كانت ثقتـه مفرطـة نتيجة سلسلـة الانتصارات في القتـال. ففيما عدا أماكن قليلة مثل المنطقة حول بريكو، حيث أحرز الجيش البوسني والكروات بعض التكافؤ التكتيكي، فأننا نجد أنه حتى بالنسبة لكتائب صرب البوسنة التي تم نقلها ببساطـة من تبعية قيادة الجيش الوطنـي اليوغسلافي السابق بعـد أبريل ١٩٩٢، إلى قيادة جنـرال ميلاديتش غـالبا مـاظهرت بمظهر الجنـود غير النظاميين، لقـد حولهم الافراط في التلميع والتنظيف الى مايشبه هيئة رامبو. ان مشاهدة هؤلاء الجنود يمشون متبخترين بأشرطة الـرأس واللحى حاملين في الغالـب ليس مجرد بندقية بل مـدفعاً رشـاشاً ومسـدسـاً مع تشكيلـة من السكاكين المؤثـرة، كـان يـدعو للخـوف ولكن بلارهبة. وقد علق لي مراقب عسكري تابع للأمم المتحدة ذات مرةعلى ذلك بقوله إن هـذا الاستعـداد كان لقتل المدنيين وليس جنـود العـدو. وقـال انه لـو كـان الصرب يتصورون أنهم ذاهبون لمواجهة اناس سيردون على النار بشكل فعال لكانوا حملوا مؤونة أكبر وسلاحا أقـل ولكانوا أطلقوا نيرانهم بـالدفعات القصيرة اللآزمـة لاصابة الهدف وليس بهذا السيل الهمجي من الدفعات لمحاربين لا يبالون كثيراً أين تسقط طلقاتهم آخر الامر.

ذات مرة أخبرني عسكـري أجنبي آخر، وهو بـريطاني من مـراقبي حفظ السلام التابعين للجماعة الأوروبية - هؤلاء المراقبـون في زيهم الابيض وكان معظمهم ضباطاً

سابقين في من الجيوش الغربيـة ويعرفون في انحاء يوغسلافيا السـابقة «برجال الايس كريـم» ويشك في كونهم جـواسيس- قال ان أكثـر ما أثـر فيه فيما يتعلق بـالأسلوب الذي حاربت به جميع الأطراف أنه « لايبدو ان احداً يهتم بفهم الأمور عن بعد». ولم تكن شكوكه تتفق تماما مع القلق حول قدرات الصرب القتالية التي عبر عنها في ورع زمـلاؤه في قـوة الحمايـة التابعـة لـلأمم المتحـدة. ومع ذلك، وكما أشـار هـو، فإن التكتيك الذي استخدمه صرب البـوسنة – القصف العنيف ثم التصويب العشوائي من أسلحة صغيرة لإحداث أكبر قدر مـن الرعب في السكان المدنيين، والاغتصاب اذا صدقنـا الروايـات عنه – كان تكتيكـا أجيد اختبـاره إذا كان التطهير العـرقي هو الهدف الحقيقي. قال: « عنـدما تطلق سلاحاً أوتـوماتيكاً، فالحرفيـة كلها تكون في الضغط على الـزنـاد ثم التوقف فـوراً عن الضغط. وحتى في هـذا الـوقت ستتشتت بعض الطلقات، لكن هؤلاء الاشخاص بالطبـع لايصوبون على جنود آخرين. إنهم يصـوبون على القـريـة بأكملها ولك أن تقـول أنـه من وجهة نظـرهـم فإن كل طلقـة يطلقونها ستصيب الهدف».

كان جنود الجيش الوطني اليوغسلافي الذين يكونون العمود الفقري لجيش صرب البوسنة على درجة عالية من التدريب. ولكن في السنة الاولى للقتال، لم يواجهوا اى معارضة تقـريباً. فقد بدأ جيش حكومة البـوسنة في التشكل في عام ١٩٩٣ فقط في هيئة تزيـد قليلاً عن ميليشيا المواطنين. وكان ذلك كافيـا لجعل الصرب مفرطي الثقة في أنفسهم. أضف إلى ذلك حقيقـة ان دعايـة صرب البوسنـة أصلت فيهم بلاحـد فكـرة أن العـالم كله كـان ضـد الصرب وخـائفاً منهم في وقت واحـد- رغم الكـلام العنيف للـرئيسين بوش وكلينتـون لم يكن هنـاك تدخـل – وتحولت الثقة بـالنفس الى رضاء عن النفس.

ولقد كـان المشهد المحـزن- عندما مـارست قوات الحمايـة أخيراً حقها الشهير في طلب ضربـات جويـة لحماية أفـراد الأمم المتحدة في غـوارجده، في إبـريل ١٩٩٤- للطـائرات المهاجمة وهي تقصف وتسقط قنـابل محدودة ثم لاتـرد لاحقاً بقـوة عندمـا إستهدف كومـاندوز بريطاني كان يعمل مـراقباً جوياً متقـدماً للضربات وقتل بنيران الصرب وعندما اسقطت طـائرة هاريير بريطانية وتكرر اسقـاط الطائرات الفرنسية،

كل ذلك كان بمثابة لمفاخرة نائب الجنرال ميلاديتش، الجنرال جفرو، بأن جيش صرب البوسنة هو « ثالث أفضل الجيوش في أوروبا. »

فلا عجب إذن بحلول عام ١٩٩٤ أن يكون هذا الجيش غير مكترث بطريقة وضع أسلحته الثقيلة. فالمرء يخفي بطارياته عندما يخاف ان تدمرها نيران العدو وليس لمجرد ان يكلف العساكر بعمل شيء.

ومن الواضح ان الصرب لم يجدوا مايبرر ذلك الجهد. فماالذي يمكن أن يخطر لهم عندما يسمعون المتحدثين باسم قوات الحماية وهم يوكدون صعوبة ضرب استحكامات جيش صرب البوسنة؟ كانوا يعلمون ان أسلحتهم كانت مكشوفة للهجمات الجوية. وتولد نفس الإنطباع لدى كثير من المراسلين المتمركزين في سرايبفو الذين كانوا يتحركون جيئة وذهاباً عبر الخط بين العاصمة ورئاسة رادوفان كارادزيتش في بالي. وعندما تقود سيارتك على طول « طريق الحرب» الذي بناه الصرب على خط سلسلة الجبال حول المدينة، كان المرء يمر على خنادق واستحكامات للمورتار والمدفعية لانهاية لها، وبدون أي ساتر يمنع تدميرها من الجو وضعت الاسلحة ظاهرة للعيان على بعد أمتار قليلة من الطريق. ومن الواضح أنه عندما يتقدم الصرب فإنهم يقيمون مواقع أمامية جديدة، ولكن في معظم أجزاء البوسنةظلت الخطوط ثابتة شهراً بعد شهر ولم تنقل الأسلحة على الإطلاق.

وحتى في سرايبفو المحاصرة، والتي تحظى بأكبر قدر من إهتمام الإعلام العالمي ومن ثم كانت لوقت طويل أنسب مكان يضرب فيه الناتو، فقد ظلت أسلحة الصرب حيث وضعوها اول الأمر منذ لحظة خروج الجيش الوطني اليوغسلافي من سرايبفو والبدء الجاد في الحصار وحتى آخر ساعة من آخر يوم لإنتهاء الانذار الاخير للناتو في فبراير ١٩٩٣ والذي أجبر الصرب على الانسحاب أو على تخزين أسلحتهم الثقيلة. إن مجرد إنسحاب الصرب، عندما طلبت القوى الدولية بشكل جدي أن يفعلوا ذلك، يوضح أنهم لم يكونوا مستهزئين بقوة الناتو كما تظاهروا بذلك.

ولكن على مدى معظم الفترة التي رزحت فيها سرايبفو تحت الحصار، لم يصدق اي من جنود الصرب العاديين ولاقوادهم ان الغرب سوف يستجمع إرادته ويتحرك

ضـدهم. وعندمـا كان المرء في يـزور تلك الاستحكـامات كـان الجو السائد يـوحي بـالضجر وليس بـالقتاليـة. كان الجنـود يتحدثـون عن اسقاط أي طـائرة للناتـو أو للأمـريكان تتجـرأ على مهاجمتهم ومن وقت لآخـر يستعرضـون صواريخهم الأرض- جو المحمولـة على الاكتاف أمام الكاميرات ولكن نبرات صوتهم كـانت تظهر بجلاء أنهم لايتـوقعون حـدوث مثل تلك الهجمات. فما كـان يسمى من قبل في واشنطـون «بتأثير مقديشيـو» وجد طـريقه الى جبال البـوسنة. وقـد تفاخـر مسؤول من صرب البوسنـة وقال مرة « إنكم تظنـون أن الرأى العام الأمـريكي عندما انـزعج قتل ثمانية عشر من جنودكم في إفريقيا. انتظروا حتى تبدأ الأكفان في العودة من البوسنة. إنكم لم تعودوا أمـة قوية. إنكم لاتستطيعون أن تـواجهوا فكرة موت أطفـالكم. أما نحن الصرب فنستطيع مواجهة الموت. فنحن لانخاف وهـذا هو السبب في أننا سنهزمكم إذا حضرتم لمساعدة أؤلئك الأتراك الذي تهيمون بحبهم».

كلمات جريئة ومألوفةبالنسبة لأى شخص قضى وقتاً على الجانب الصربي.

كان كارادزيتش يحب ان يردد «سوف نكون لكم فيتنام التالية»، ومع ذلك فكثيراً مـاكـان المزاج العـام يتغير ويبـدو لفترة وكأن الامـريكـان على وشك الضرب حقـاً. وعنـدما تلـوح تلك التهـديـدات يتراجع الصرب.. وكان ويحدث نـوع من التقهقـر البلاغيّ يلجأإليـه فجأة نفس المسؤولين الـذين كانوا يتبـاهون بالقـدرة الصربية التي لاتقهر حيث يبدأون الحديث عن في رغبة الصرب في الاستشهاد. فيتحولون من نبرة التباهي إلى الإحتجاج والسؤال عن سبب عدم التفهم المطلق من الصحفين الأجانب للصرب وتفسيراتهم الخبيثة لأهدافهم. ذات مرة قال كارادزيتش لشبكة لمراسل cnn كـريستيان أمـا نبـور في في لحظة انفعـال مفعم: «عليكم أن تسـاعـدونا على إرسـاء السـلام». ولقد كـان دومـاً يقـول ان الصرب يريـدون فقط العيش فيي سـلام وأنهم يريدون وقف القتال وأنهم يطلبـون فقط حق العيش بين اناس لهم نفس العقلية « أي مثل غـرب فـرجينيـا التي لم تـرد أن تكـون جـزءاً من الكنفـدراليـة أثنـاء حـربكم الأهلية».

والأكثر أهمية أنـه عندما تبدأ القيادة الصربيـة في الخوف من أن تكون قد تمادت كثيراً وأنهم بسبب نزوة تعطش للدم يـدفعون الغرب للتحرك، كـانت تبادر بالسماح

فجأة لكل أشكال المساعدات الإنسانية للأمم المتحدة بالمرور. وسواء كان ذلك برفع الحواجز أمام امدادات الإغاثة المحشورة في مطار سراييفو او بالسماح لقوافل اللجنة العليا للاغاثة بالتحرك بحرية عبر نقاط تفتيش جيش صرب البوسنة نحو المناطق المحاصرة، مثل ماجلالي شمال وسط البوسنة أو تقوم، كما في حالة سراييفوا في فبراير ١٩٩٤ وغوراجده في ابريل ١٩٩٤، بسحب الأسلحة الثقيلة من المنطقة المحظورةبأمر الناتو، فقد أعطى الصرب كل دليل على أنهم لا يخافون فقط الضربات الجوية بأكثر مما ذكروا، بل على أنهم كانوا يعتقدون في فاعليتها أيضا بأكثر مما أعتقد المسؤولون العسكريون للأمم المتحدة. ومن ثم، وفي خلال يوم واحد، يتحولون من موقف التصلب الكامل ليصبحوا فجأة متعاونين لدرجة تجعل الزائر خالي الذهن يتعجب من كل تلك الضجة التي تثيرها اللجنة العليا للاغاثة حولهم.

ولكن بعد أن يتحول إنتباه العالم عن مذبحة البوسنة ويقل الضغط الشعبي على الحكومات للضغط على الصرب، يعود التصلب والتشدد من جديد ويبدأ إيقاف القوافل ولايسمح لإمدادات الإغاثة في مطار بالمرور سراييفو من قبل الصرب المحتشدين فيما بدأوا يسمونه بنقطة عبور حدودية دولية بين المطار والمدينة - وهي نقطة تفتيش اعترضت عليها قوات الحماية في البداية ثم سرعان ماقبلت به كما سبق وقبلت كل صياغة جديدة للاتفاقات التي عقدتها مع الصرب. اما في القرى التي قطعت عنها الإغاثة فقد بدأ الجوع في التزايد وافتقرت المستشفيات ثانية إلى الأدوية.

أما العالم، الذي ارتاح في سعادة من عبء السخط على مايحدث في البوسنة، فقد اشاح بوجهه بينما جدد الصرب، في جرأة أشد، هجومهم على آخر أجزاء البوسنة التي اشتهوها ولم يكونوا قد احتلوها بعد.

الفصل الثامن

كـان المديرون الحقيقيـون لعملية حفـظ السلام من مقـر السكرتـاريـة العامـة في نيويورك معـارضين منذ البداية للتورط في البـوسنة. ولقدقد كانت عمليـة قوة الحماية التابعة لـلأمم المتحدة في الأصل مقصورة تماماً على كـرواتيا وتم تنفيذها بعـد التوقيع على إتفاق وقف إطلاق النار الذي توسـط فيه سايروس فانس بين الصرب والكروات في نهاية عام ١٩٩١ . وكانت، بالأسلوب الفني المتبع في الأمم المتحدة، عملية حفظ سلام كلاسيكية وتقليدية، بمعنى أنه كان وضعاً خوّل فيه مجلس الأمن قسم عمليات حفظ الطـلام DPKO نشر قوات بين جانبين سبق وأرادا وقف القتـال ولكن يلزمهم قوات محايـدة لمراقبة وقف إطلاق النـار المتفق عليه. ورغم وضع مـراقبين عسكريين قليلين للأمم المتحدة في البـوسنة، ورغم اختيار قوات الحماية الدوليـة لسراييفو كمقر رئيسي لعملياتها حتى ينظر إليها على أنها لا تحابي أياً منا لصرب أو الكروات فلـم تكن هنـاك في البـدايـة نيـة من جـانب الأمم المتحـدة لاقتراح تـوسيع التفـويض ليشمل البوسنة.

ولا يعني هذا أن ذلك لم يطلب من الأمم المتحدة. وقد استغلت هذه الحقيقة من قبل أولئك الـذين اعتقدوا أنه بإعـلان استقلال البـوسنة فقـد قدم عـزت بيجوفيتش بذلك مسوغ مـوتها. وتقول تلك النظرية ان الاثنين وثـلاثين بالمائة الصرب من تعداد البوسنة لم يكونوا سيقبلون مطلقاً بالبوسنة المستقلة وكان تجاهل ذلك من قبل سراييفو بمثـابة انتحـار. ولكن الحقيقة تكمن في أن عـزت بيجـوفيتش وقع في مصيدة خيـار هوبسون، وبمشاركة رئيس مقدونيـا، جليجوروف، حاول عزت بيجوفيتش في يأس طوال عام ١٩٩١ أن يخرج بمعادلة لاتحاد كونفدرالي يوغسلافي هش.

وكان سلـوبودان ميلوسيفتش هـو الذي سيخـرج خالي الوفـاض من ذلك كله، ولذلـك أصر على أن ما يجب أن يحدث في يـوغسلافيا هـو زيادة في المركـزية ـــ وهي طريقـة أخرى للقول بزيـادة القوة للصرب وله شخصيـاً. وكان البقاء في يوغسـلافيا

ميؤساً منه لقيادة الحزب البوسني SDA وكذلك مغادرتها. وفي النهاية، وفي ظل ما سيثبت أنه انطباع كاذب بشكل مأساوي من أن أوروبا ستضمن استقلالها، فقد اختارت حكومة البوسنة إجراء استفتاء على استقلالها والذي تم تأييده بفارق واسع، بمساندة من الغالبية الساحقة للمسلمين البوسنيين والكروات (فيما عدا مقاطعة توزلا، ـــ معقل الجناح اليساري أياً كان تكوينها العرقي، وهو أمر يدعو للغرابة) وبمقاطعة من معظم الصرب.

ولكن في حين أن عزت بيجوفيتش أثبت أنه تمادى في تفاؤله عما سيفعله أو لا يفعله الغرب، فقد كان يعرف تماما أن الطريق الذي اختاره شديد الخطورة. وهذا هو السبب في أن عزت بيجوفيتش ناقش انتشار قوات حفظ السلام في البوسنة مع فانس وعدد من مسئولي قسم علميات حفظ السلام أثناء زيارتهم لسراييفو قبل بدء القتال بقليل. وكان المسؤولون الدوليون مدركين تماما لما يمكن أن يتلو من أحداث. ففي ذروة الحرب الكرواتية وحين كانت البوسنة في سلام كتب فانس إلى هانس ديتريش جنشر، وزير الخارجية الألماني، يحذره من أن إصرار ألمانيا على الضغط على المجتمع الأوروبي للاعتراف بكرواتيا وسلوفينيا سيجعل الحرب في البوسنة حقيقة مؤكدة. ومع ذلك فلم يوافقا على التوصية بإرسال جنود الأمم المتحدة. وحول ذلك قال لي مسئول رفيع في الأمم المتحدة وهو يسترجع الأحداث: «كان يطلب منا في الواقع أن ننتشر في مقاطعة من دولة مستقلة لكي نساعد على انفصال تلك المقاطعة».

كان ذلك هو الموقف الذي أبت إدارة عمليات حفظ السلام على اتخاذه حتى بعد أن بدأت المذبحة. ففي مايو ١٩٩٢، بعد شهر من حصار سراييفو، بعث ماراك جولدينج نائب الأمين العام للشؤون السياسية الخاصة والرئيس السابق لادارة عمليات حفظ السلام، بمذكرة إلى مجلس الأمن قال فيها إنه مع عدم وجود تفويض بحفظ السلام ترتضيه الأطراف ـ أسلوب مهذب للقول إن كلا الجانبين يريدان القتال ـــ فإن الوضع في البوسنة ليس «ناضجاً» لحفظ السلام. ويوافق الذين شهدوا المداولات على أن الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن، وبضغط من الرأي العام المحلي، فضلوا تجاهل التوصية رغم عدم الاتفاق فيما بينهم على ما يجب عمله في البوسنة. وبعد إصدار سلسلة من النداءات غير المجدية لوقف القتال، أصدر

المجلس في ٣٠ مايو ١٩٩٢ قراراً بفرض عقوبات على «بقية» يوغسلافيا ـ أي صربيا والجبل الأسود. كما صدق علي إرسال بعثة الإغاثة الإنسانية إلى البوسنة تحت إشراف المفوضية العليا للاجئين وكلف قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لمساعدة الوكالات الإنسانية في هذا العمل ولضمان إعادة فتح مطار سراييفو، والذي كان وقتها تحت سيطرة الصرب. وفي ٥ يونيو توصلت الأمم المتحدة إلى اتفاق مع الصرب، وفي ٨ يونيو أجاز مجلس الأمن انتشاراً موسعاً لقوات الحماية في البوسنة.

ورغم أن مجلس الأمن أصدر بعد ذلك عدداً مذهلاً من القرارات الخاصة بالبوسنة ـ أكثر من خمسين على مدى السنتين والنصف سنة التالية ـ فقد حددت تلك التحركات الأولية كيفية تفسير الأمم المتحدة فيما بعد لما هي مخولة أو غير مخولة بعمله. فقد كانت الأولوية بالنسبة لإدارة عمليات حفظ السلام في نيويورك وقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في الميدان لاستمرار الجهود الإنسانية على أي شيء آخر رغم ان نشاطات مجلس الأمن تضمنت قرارات فرضت مطالب أخرى على المحاربين. فقد تطلب قرار واحد على الأقل وجوب وقف ممارسة التطهير العرقي. وكانت الأمم المتحدة قد فرضت مناطق حظر الطيران فوق البوسنة و إعلان سراييفو وتوزلا وبيهاتش وغوارجده وجيبا وسربرنيتشا مناطق آمنة. وكانت تلك إجراءات يتعذر ترجمتها في عبارات إنسانية صارمة حيث أنه عندما تم التصديق على القرار فإن الصرب هم الذين يقومون بالقصف من الجو وكذلك بكل عمليات التطهير العرقي تقريباً (كان هذا قبل وقت طويل من محاولة HVO طرد السكان المسلمين حول موستار مثيرين موضوع جرائم الحرب الانتقامية التي تنفذها قوات الحكومة البوسنية). وفيما يخص «الملاذات الآمنة»، كما عرفت بسرعة، فقد كانت جميعها مناطق تحت سيطرة حكومة البوسنة وواقعة تحت الهجوم الصربي.

وقد عارضت السكرتارية العامة الأمم المتحدة كل مطلب بأن تفعل شيئاً أكثر في البوسنة لأنها اعتقدت أن التفويض الوحيد لقوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة كان لزيادة البرامج الإنسانية وأن التصريحات الأخرى لمجلس الأمن بشأن المسائل الأوسع مثل التطهير العرقي لم تحدد دور الأمم المتحدة فيها. وكانت قد عارضت بشدة قرار المناطق الآمنة وقاومت بعناد تنفيذ خطة منطقة حظر الطيران اعتقاداً منها أن كلا الأمرين يمثلان انحيازاً من الأمم المتحدة في القتال. وكان ذلك انتهاكاً لكل

ما اعتقدت إدارة عمليات حفظ السلام أن من واجبها الحفاظ عليه في جهودها لحفظ السلام. وقالوا أنهم لو تصرفوا بغير ذلك لعرضوا للخطر كل مفهوم حفظ السلام.

قال لي مرة مسئول من الأمم المتحدة في زغرب «إننا لن نفقد عملياتنا شرعيتها في العالم كله من أجل المحافظة على الدولة البوسنية». كذلك

صرح شاشي ثارور - وهو روائي هندي معروف ومسئول سابق في المفوضية العليا للإغاثة في حديث له عام ١٩٩٣ بأن تنفيذ قرار الأمم المتحدة المتعلق بمناطق حظر الطيران إنما «يعني وضع الأمم المتحدة في موقف يصبح فيه العاملون في صفوف قواتها لحفظ السلام، المرتدين الأزرق وغير المسلحين بمعدات ثقيلة، يصنعون الحرب والسلام في آن معا!! وكما أوضحت المنظمة الدولية لحقوق الإنسان Human Rights Watch في أحد تقاريرها فإن ثمن مثل هذا التصور هو حتمية أن تصبح حقوق الإنسان «جدول الأعمال الضائع» في عمل الأمم المتحدة لحفظ السلام رغم أن «الإنتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان غالباً ما تلعب دوراً خطيراً في تغذية النزاع المسلح وتفاقم الأزمات الإنسانية». وكانت الأمم المتحدة قد عينت رئيس الوزراء البولندي السابق، تاديوس مازوفيكي ليكون «مقرها الخاص» لحقوق الإنسان في يوغسلافيا السابقة. ورغم أنه كان يطالب الأمم المتحدة بإنفاذ قراراتها هي نفسها الخاصة بحقوق الانسان، وهدد مرة بالاستقالة لأنه لم تكن لديه الرغبة لأن يلعب مكتبه دور «مظلة تخفي إنعدام حيلة المنظمة الدولية» فقد أولى مسئولو الأمم المتحدة جهوده إهتماماً باللسان فقط ولكنهم لم يبذلوا أي جهد لتحديد ما كانوا يقومون به في الميدان من أجل أخذ توصياته في الحسبان والتي ادعوا أنهم يقدرونها كثيراً.

أما أولئك الذين أداروا العملية في البوسنة فلم يتزحزحوا أنملة عن التزامهم بمواصلة أداء دور قوات الحماية للأمم المتحدة على أنه محصور في تخفيف آثار الحرب. وقالوا إن الأمم المتحدة لم ترسل هنا لإنهاء الصراع أو لتعطي حماية حقوق الإنسانية الأولوية. وإذا كان ذلك ما أراده مجلس الأمن، فكان عليه أن يقول ذلك في عبارات صريحة، ورغم ذلك ففي الوقت الحالي، إذا كان لمثل هذا التحسن المطلوب في الموقف أن يتم، فان عليه أن يقوم بذلك من خلال ضغط آخر خارجي أو من خلال

المفاوضات. وهذا العمل متروك للحكومات ولرؤساء فريق التفاوض المشترك للأمم المتحدة والجماعة الأوروبية، أي فانس وأوين في البداية وبعد ذلك أوين وثرفالد ستولتنبرج وزير الخارجية النرويجي السابق والرئيس السابق للجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة الذي حل محل فانس استقالته في مايو ١٩٩٣. أما إذا أراد المجلس حلاً عسكرياً للأزمةالبوسنية فعليه إذن أن يتدخل لا تحت بند حفظ السلام الوارد في الفصل السادس من ميثاق الأمم المتحدة ولكن تحت بند انفاذ تدابير السلم الوارد في الفصل السابع، كما فعل في موضوع الكويت. وذات مرة قال لي مسؤول في عمليات حفظ السلام: «كان ذلك أفضل لنا. لم نكن سنشكو لو أنهم سحبوا الأمر من أيدينا وأعلنوا أنهم يريدون إنفاذ السلام وليس فقط حفظ السلام، وتركونا نقوم بأعمالنا».

كانت مثل هذه التعليقات تتسم بجو من التلاعب والسفسطة البيروقراطية وقد كانت كذلك إلى حد ما. فقد كانت السكرتارية العامة الأمم المتحدة منظمة إلى حد كبير جداً من قبل موظفين مدنيين بريطانيين وضعوا بصماتهم القاتمة والمتزمتة على المنظمة. فمن سمات أسلوب عمل الأمم المتحدة ألا يقوم أي موظف مدني في الأمم المتحدة سواء بالاعتراض علناً أو بالاستقالة بسبب مسألة مبدئية حول سياسة البوسنة. وفي الواقع لو سألت المسئولين المعنيين عن سبب عدم استقالتهم تكون الإجابة أقرب إلي نظرة باهتة، كما لو أن الفكرة غير واردة في سياق عمل الأمم المتحدة، أكثر منها دفاعاً متحمساً عن قوات الحماية التابعة للأمم المتحدة. أما في اللقاءات الخاصة فكان مسئولو الأمم المتحدة قادرين على الاعتراف بأنه، من المنظور الأخلاقي فإن البوسنيين قد يكونو على حق، ولكن في من منظور مهمة حفظ السلام التي يديرونها كان المفروض عليهم أن يظلوا على حياد تام. وفي بعض الأوقات قد تكون تلك الحيادية مزخرفة بشكل إيجابي، كما حدثت عندما قام ياسوشي أكاشي، المبعوث الخاص للسكرتير العام بمغادرة اجتماع في بالي وأعلن للصحافة أنه يعتقد أن رادوفان كارادزيتش «رجل سلام» مباهياً «بالصداقة» التي نمت بينهما. وقد أدلى بتلك التصريحات الشاذة، وحتى غير الضرورية من الوجهة الديبلوماسية، بعد وقت طويل من توصل معظم العالم المتحضر، بمن فيهم معظم مسئولي الأمم المتحدة، إلى أن القائد الصربي هو مجرم حرب بكل المقاييس.

كانت كلمات أكاشي مثيرة لغضب الصحفيين الذين يستمعون إليه، والذين رأى كثير منهم رؤية العين كيف شن كارادزيتش الحرب. وقد بدت أسماء الشهرة التي أطلقت عليه وأثارت غضب ضباط الميدان في اللجنة العليا للإغاثة المستائين مثل «التشتنيك الميتسوبيشي» و«رئيس موظفي العلاقات العامة للصرب»، بدت مناسبة في ذلك اليوم بالذات. لقد بدا على أحسن تقدير تجسيداً لانتصار الأمل على التجربة الذي بدا أنه كان السمة الرئيسية في ديبلوماسية الأمم المتحدة، والأكثر ترجيحاً هو أن أكاشي كان ـ شأن العديد من المسئولين العسكريين في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة الذين عرفهم الصحفيون، ولم يثقوا فيهم، وأنا هنا أتكلم عن نفسي ـ مدافعاً عن الصرب بوجهين، يحاول بكلماته أن يستبق موقفاً أكثر حزماً من جانب قوات الناتو. ومع ذلك كان يقال أن أكاشي من أفضل رجال الأمم المتحدة. فقد أرسل إلى يوغسلافيا السابقة بعد إنهاء واحدة من أنجح عمليات حفظ السلام للأمم المتحدة حتى ذلك الوقت وهي البعثة في كمبوديا.

فإذا ما بدا في صورة الساذج في البوسنة فإنه لم يكن بالتأكيد قليل الخبرة.

وإذا كان راغباً في الكذب بخصوص رادوفان كارادزيتش وفي معاملة القتلة وكأنهم يستحقون الاحترام والصداقة مثل ضحاياهم (ظل أكاشي يؤكد «علاقاته الخاصة الجيدة» بقيادة صرب البوسنة) فذلك لأنه ظل شديد الالتزام بالمفهوم القاصر المحدد لمهمة الأمم المتحدة في حفظ السلام. وكما أوضح عندما منع، منفرداً، هجمات الناتو على الصرب بعد تجاهل الإنذار الأخير بالانسحاب الكلي من غوارجده في أواخر إبريل ١٩٩٤، فإنه سيذهب إلى أبعد الحدود في حفظ كيان هذا المفهوم.

وقد أثبت أكاشي في هذا، كما أثبت في مجالات كثيرة أخرى، أنه لا يختلف عن أسلافه. فقد يتكلم بغير حكمة عن مشاعره الحارة تجاه كارادزيتش، ولكن كان أسلافه هم الذين قبلوا، تحت ذريعة استمرار المفاوضات، طلباً من الصرب بألا تشير الأمم المتحدة بعد ذلك إلى أن سراييفو مدينة محاصرة. فقد كان الصرب يدعون ويجادلون في أنه «تصادف» أن كل المناطق من سراييفو التي يسيطر عليها الصرب الآن كانت صربية قبل الحرب، وأنهم لا يهاجمون «المسلمين» بل كانوا فقط يحمون

الصرب من الهجوم. وبمقاييس بالي، فإن هذا الإدعاء انطوى على نوع من الهمجية لا غير. إما أن تسمع مسئولاً صحافياً محنكاً في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، وهو ضابط كندي محبوب ووثيق المصادر يدعى باري فريور، وهو يردد كالببغاء هذا السطر ويبلغ الأوساط الصحفية المفطورة على الشك أن الصرب لا يحاصرون سراييفو ولكنهم كانوا في «مراكز تكتيكية مناسبة» فإنك بهذا تستمع إلى الأمم المتحدة وهي تقلب الحقيقة (رأساً على عقب). لم يكن مسئولو الأمم المتحدة المعنيون يشعرون بالخجل وهم يكذبون لصالح الصرب، فقد كانت عقيدتهم متزمتة ولا تسمع إلا صوتها، وبالرجوع الى أصولها المجردة فإن العقيدة التي عاش عليها رجال الأمم المتحدة حياتهم المهنية تطلبت منهم ان يعتقدوا أنهم غير مفوضين لعمل أي شيء من أجل البوسنيين سوى تخفيف الآثار الإنسانية للقتال كما قالوا هم، وقد ظلوا يرددون أنه لو أنهم أيدوا التدخل العسكري لكان قد تم تصفية تلك البعثة الإنسانية. وقالوا أنه إما أن نوصل المساعدات الإنسانية أو أن نستخدم القوة. وبالنسبة لحقوق الإنسان فقد كانوا عادة ما يهزون رؤوسهم. وكلهم تقريباً اعتقدوا أن كل الأطراف كانوا يرتكبون جرائم حرب. وفي الواقع كان من الشائع أن تسمع قوة الحماية تصر على أن السبب الوحيد في أن الجانب الحكومي ارتكب جرائم أقل أن فرصة كانت ضئيلة لفعل ذلك.

(وهذا البيت لأودين: «كل من ينالهم الشر، يفعلون الشر في المقابل» يبدو تشخيصاً أكثر دقة). أما في المقابلات الخاصة، ففي حين لا يتنكرون مباشرة للجنة جرائم الحرب التي كونتها الأمم المتحدة، فانهم يوضحون أنهم يشعرون بأن على المرء إما أن يتفاوض مع ميلوسوفيتش وكارادزيتش وميلاديتش والآخرين أو أن يحاول تقديمهم للعدالة، أما الإدعاء بأنه يستطيع أن أن يقوم بالعملين معاً فقد يكون شيئاً لطيفاً تقول به الحكومات الغربية أمام مواطنيها ولكنه تصور صبياني.

وكما وضح من تصرفات الأمم المتحدة في البوسنة فإن مسئوليها اعتقدوا أنه ما لم يلتزموا بحيادهم بصرامة فإن مهمة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لن تستمر. وبصريح العبارة، لا يستطيع الصرب أن يقبلوا بالسماح لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة ولا للجنة العليا للإغاثة بالاستمرار في العمل إذا مارست القوات التابعة للأمم المتحدة العمل العسكري: فالقوافل ستوقف وسيتم قتل أو إبعاد أفراد اللجنة

العليا للإغاثة ويوقف الجسر الجوي لسراييفو - وهو أنجح عمل للمجهودات الإنسانية - كما أن المطار محاط بالسلاح الصربي، وبالتالي لا تستطيع الأمم المتحدة أن تأمل في استمرار فتحه لرحلات النقل الجوي إذا بدأ سقوط قنابل حلف الناتو. وأي تفسير أكثر قوة للتفويض الإنساني للأمم المتحدة محكوم بعدم واقعيته. فنظرياً، أعطيت السلطة لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة باستخدام كل الوسائل الممكنة بما في ذلك القوة العسكرية ما تتطلبه من أجل تأمين وصول قوافل الإغاثة إلى غايتها. أما من الناحية العملية، فقد استنتجت الأمم المتحدة مبكراً أنه في حالة تحويل قوات حفظ السلام بالضرب (أو حتى التهديد بالضرب) للمرور عبر نقطة التفتيش، مهما كان ذلك مرضياً، فإن كل شيء تعمل الأمم المتحدة من أجله سوف يدمر. وهو ما عبر عنه لي سيرجيو فييرادي ميللو، وهو خبير متمرس عمل مثل أكاشي في عمليات الأمم المتحدة في كمبوديا قبل أن يصبح المنسق الإداري الأول لعمليات الأمم المتحدة في سراييفو في أواخر ١٩٩٣ قال: «تستطيع أن تمر بالقوة مرة. وبعد ذلك تكون في حالة حرب، وتنتهي من جميع النواحي العملية الجهود الإنسانية وتكون أنت الخاسر».

والمشكلة في هذه الحجة هو أنها تمثل عقيدة لدى الأمم المتحدة، وليس حقيقة قائمة على تجربة حدثت لقوات حفظ السلام في البوسنة. وفي الواقع، عندما كانت الوحدات الفردية لقوة الحماية تستخدم القوة، كان ذلك يسهل عملها أكثر ولا يصعبه، ففي شمال البوسنة، على سبيل المثال، صمم الجنود البريطانيون المسئولون عن مرافقة قوافل الإغاثة من قاعدتهم المتقدمة في قرية كلاداني إلى مدينة توزلا على طريق معروف باسم «زقاق القنابل»، وبدون استخدام البوق، صمموا على البدء في الرد بإطلاق النار على الصرب في التلال المحيطة. وبعد اشتباكات قليلة توقفت تماماً محاولات الصرب لوقف القوافل، وفي وسط البوسنة في أواخر ١٩٩٣، تولى قيادة الكتيبة النوردية المختلطة قائد جديد وهو سويدي شديد البأس واسمه هندريكسون والذي قال لي ذات مرة: «أخبرهم أن يدعوني أمر أو أفجر رؤوسهم الفارغة جميعاً. صحيح، أحيانا لا يقبلون وعندئذ على أن أعود. ولكن لا ضير إذا حاولت. فعليك أن تفعل ذلك في البلقان: أن تتصرف كالرجل الصلب أو يبولون فوق رأسك».

ومن جانبها فقد بالت الأمم المتحدة على رأس كل أولئك الذين حاولوا، مثل

هندريكسون، أن يفعلوا شيئا أكثر. فخلال حصار سربـرنتيشا، عندما قرر قائد قوة الحماية التـابعة للأمم المتحـدة في البوسنـة، الجنرال فيليب موريلـون، أن يذهب إلى الإقليم وحـــاول من خـــلال بقـــائه أن يجبر الصرب على وقف القصـف، ارتعبت السكرتاريةالعامة في نيويـورك وأنب بطرس موريلون شخصياً وأخبر الجنرال الفرنسي أنه مذنب بـ «تجاوز التفويض»، وبعبارة أخرى فبـدلاً من الكلام عن إنقاذ الأرواح وفـرض السلام، قـام مـرويلون للحظـة قصيرة فعلياً بإنقـاذ أرواح وفرض قـدر من السلام. لم يكن الأمـر وكأن موريلون قـد أمر جنوده بإطـلاق النار على الصرب، بل لقد ذهب ببسـاطة إلى حيث اعتقـد أنه قد يفعـل شيئاً جيداً (فـالجنرال، أيـاً كانت القيود المحيطة به، كان لديه الشعور الديجولي القديم بالشرف والعظمة الشخصية). وبعـد شهور قليلـة، طرد مـن القيادة وأرسل إلى فـرنسا وسرت إشـاعـة أن الحكومـة الفرنسية استجابت لطلب شخصي من بطرس غالي نفسه.

بالنسبة لمن هو متعاطف مثلي مع القضية البوسنية والذين اعتقدوا أن نشاط الأمم المتحدة في محاولـة منع أو ـ بعـد الضربة الجوية في غـوارجده عـام ١٩٩٤ ـ الحد من التدخل العسكـري قد جعلها، مهما كان عن غفلة وعـن غير عمد، أداة في المذبحة الجماعية لمسلمي البوسنة، فلن يبرر أي شيء أن نـؤكد أن رجال الأمم المتحدة تصرفوا بدافع الإخـلاص العنيد لحفظ السلام كما فهموه ولتفـويض اعتقدوا أن مجلس الأمن أمـرهم بتنفيـــذه. ولكن يظل من المهم أن نحـــاول أن نفهم السبب في تصرف الأمم المتحدة على هذا النحـو، وفي حين أنه قد يرضينا أن ننسب هذه السيـاسة إلى نوع من الخباثـة التنظيمية الكامنـة، فإن الشخصيات التي تـدير حفظ السلام التـابع للأمم المتحدة تعد بشكل عـام من أذكى الموظفين المدنيين في العالم وأكثرهم ثقـافة ويميلون لأن يكونـوا أكثر تأثراً، وليس أقل، بـالمذبحة من أي شخص أو بلد آخـر في العالم. والواقع أن ما كـان مروعاً بالنسبة للغـرباء عن المنطقة هو تلك الفجـوة بين الحساسة التي فهم بها كثير من مسئـولي الأمم المتحـدة في كل من يـوغسـلافيـا السـابقـة وفي نيويـورك وجنيف ماكـان يحدث وبين الإصرار على أنه يجب أن يسمح للمـذبحة أن تستمر.

ومع ذلك فكلما زادت مقابلاتي مع مسئولي الأمم المتحدة، وضح لي أنهم لم يكونوا قط واقعين في شرك منظمة ربما أكثر تزمتاً وبيروقراطيـة هرمية من أي مؤسسة فيما عدا

العسكرية، ولكنهم اعتادوا على أن يتخاطبوا معاً بلغة ذاتية المرجعية قد تكون ذات معنى لديهم ولكنها مفتقرة للمعنى في إطار البوسنة. ومن المؤكد أنه بسبب ذلك التقديس الأعمى من قبل الأمم المتحدة «للتفويض» الذي استطاع تقرير بطرس غالي إلى مجلس الأمن بتاريخ ١٦ مارس ١٩٩٤، في تقييمه لما إذا كانت قوة الحماية تستمر أو تتوقف، أن يزيح من أمامه جميع الانتقادات الهامة للعملية. وفي هذا التقرير يقول بطرس غالي: «إنني أدرك أن استمرار الصراع والمأساة في منطقة عمليات قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة منذ تجدد تفويضها قد أدى إلى انتقادات كثيرة وان كانت غير مبررة، لكفاءة أداء هذه القوة» جدير بالاعتبار ولكنه غير مبرر لفعالية القوة».

واستطرد التقرير يقول ان مثل هذا النقد غير مبرر لأن تطورات معينة «مشجعة» حول سراييفو «مثل وقف اطلاق النار الذي فرضه الناتو» كانت تعني أن التسوية صارت وشيكة. ولكن الأهم أن من الظلم انتقاد ما قامت به الأمم المتحدة في البوسنة لأن انتشار قوة الحماية يجسد إرادة المجتمع الدولي في المساعدة على الوصول إلى مثل هذه التسوية... إنها مسؤولية الأطراف أن تنتهز الفرصة التي يتيحها استمرار قوة الحماية لتظهر بتصرفها أنها ملتزمة بالبحث بجدية عن طريق نحو السلام. فإذا أظهروا ذلك فإن الأمم المتحدة على إستعداد، كما هي دائماً، لمساعدتهم.

إن قراءة عبارات مثل هذه بعد قضاء شهر أو إثنين في البوسنة يعني أن تدخل في عالم يبدو أن الحقيقة فيه تقف على رأسها. فإيا ما قد يقوله آكاشي أو بطرس غالي في العلن، فلم يكن الوضع مشجعا في وسط مارس ١٩٩٤، وأصبح الأمل أضعف في الشهور التالية، حيث أثبتت المنطقة المحظورة حول غوراجده المفروضة من الناتو أنها نكتة مكشوفة، وأن التهديد العسكري ليس سوى خدعة وحتى وقف اطلاق النار في سراييفو كان يزداد هشاشة. أما عن موضوع نجاح قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة فهو قول يشبه في الحقيقة قول إحدى الشخصيات في مسرحية هزلية قديمة: «لقد نجحت العملية. فقط مات المريض». ولو أن مسؤولي الأمم المتحدة تكلموا ببساطة، كما يفعل عادة بعض الأقل تبصراً فيهم، عن الأرواح التي تم انقاذها بالنقل الجوي، أو أنهم أصروا، كما فعل بعض العسكريين، على أن البوسنيين هم شرذمة من المتوحشين الذين كان يجدر السماح لهم بأن يواصلوا قتل بعضهم البعض، لكان ذلك قابلاً للفهم على أقل تقدير. إما الأمر الشاذ فهو أن تسمع أفضل الناس

في قوة الحماية وفي قسم عمليات حفظ السلام يقـولون بإخلاص وفي نفس واحد أنهم قامـوا بعمل جيد بينما يعترفـون في النفس التالي أن الوضع في البـوسنة تحول إلى كـارثة محققة .

هنا يأتي دور التشويه الاحترافي لمسؤلي حفظ السلام، فكما قال لي مسؤول في قسم الشؤون المدنية التابع لـلأمم المتحدة في سراييفو: «عليك أن تتعلم كيف توزع نفسك في هذه المهنـة . فأنا أعرف مـا فعله الصرب في البوسنـة . لقد رأيت الجثث وسمعت بكاء النسـاء . ولكن لا يهم أين يذهب تعاطفي أو مـا أقوله أو مـا كنت أريد أن يتم عمله لو أنني كنت صحفيا مثلك . فعملي ليس محاربة الصرب ولا شجبهم . أنا هنا لمساعدة البوسنة بقـدر ما أستطيع ، ولكي أفعل ذلك فليس على فقط أن أبدو محايداً أعـامل الصرب والمسلمين على قدم المسـاواة ولكن حيث أن الصرب هم المنتصرون في هـذه الحرب وحيث يلزمك تصريحهم بأن تقـوم بمعظم الأمور هنـا فقد كـان علي أن أكون على وفاق معهم» .

بالنسبة لكثير من مسؤولي حفظ السلام كان التعبير عن عواطفهم الأخلاقية ترفاً بعيد المنال . وقد سارع أكثرهم تبصراً بالاعتراف بالوضع الأخلاقي الغامض تورطت فيه هـذا الأمم المتحدة بسبب ذلك . كان فـريد كاني يسخر وهـو يقول أنه لـو كانت الأمم المتحـدة متـواجـدة في الثـلاثينات لكـان كل فـرد في أوروبـا يتكلم الألمانيـة ، وبالنسبة لمن تعلم منا خلال سنتين أن يزدروا الأمم المتحدة على حيادها وعلى رضاها المغرور عن نفسها في البوسنة فإن هذا يوجز كل شيء يلزم قوله عن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة . (اللجنة العليا للآجئين في الأمم المتحدة أمر مختلف تماما) ولكن كان هناك مسئـولون في الأمم المتحدة استطاعـوا الاعتراف بهذا ومع ذلك مازالوا يـدافعون عما قاموا به في البـوسنة . ولم يكن تعليق فريد كاني بعيداً عن أفكـاري عندما كنت في سراييفو، لـذلك صعقت وأنا أسمع مسئولا في الأمم المتحـدة يعلق في ارتجال فيأحد الاجتماعات قائلا : « كما تعرف ، عندمـا تتكلم عما لم نستطع القيام به في البوسنة فإن ردي أنه كانت هناك كثير جداً من المواقف لم تكن أداة حفظ السـلام ببساطة ملائمة لها . فعلى سبيل المثال ، أعتقد أن الأمم المتحدة ما كـانت لتكون فعالة في التعامل مع هتلر في الثلاثينات .

واستطرد قائلا: «إننا متهمون بأننا لم نفعل أكثـر في البوسنة ولكن الحقيقة أنه منذ عملية حفظ السلام الأولى عام ١٩٤٧ لم نتجاوز تفويض مجلس الأمن. وبالتأكيد لم نكن في وضع يسمح بعمل ذلك هنـا. وعندما تـديننا فأعتقـد أن ذلك لأننا الـرموز الأكثر وضوحـا للعالم، وبالتالي لفشل العالم في منع الاشيـاء الفظيعة التي حدثت في يوغوسـلافيا السابقة. ولكن عندمـا تديننا، فإنك في الواقع تطلق النـار على الرسول الوسيط. لوموا حكوماتكم على ما حـدث: كان يمكنهم ان يعطونا تفويضا مختلفا. لوموا انفسكم لعدم دفع حكوماتكم للتصرف. فـلا معنى لان تلومونا فالأمم المتحدة ليست حكومة العـالم. انها منظمة لحكومات العـالم. وحفظ السلام ليس سوى اداة نجهـزها نحـن في الأمم المتحدة اذا طلب منـا مجلس الأمم ذلك. إنكـم تظنون أننـا نتخفى خلف التفويض ولكن الحقيقة أنه يمدنـا بالشرعية الوحيدة التي نملكها. إن قيـامنا بعمل مـا هو أقل ممـا يطلب مجلس الأمن شيء قد يحدث ــ وغالبـا ما نكـون مجبرين ـ ولكنك وزمـلاؤك تلومـوننا لعدم القيـام بها هو أكثـر. ولكننا لا نفعل ذلك لأننا ببساطـة لا نرى أن ذلك وظيفتنا أو حقنا. ولو حـاولنا فعل ذلك، لكنا نسلب سلطة الدول الاعضاء، وأقولها لك إنهم لن يتحملوا ذلك لوقت طويل».

لقد انطوى هذا الكلام ضمنيا على فكرة أن تكـون قوات حفظ السلام إما ملتزمة بموقف المتفرج المحايد المهذب أو ألا يتورطوا على الإطلاق. ورفض أي رأي بدور لها في تفسير التفويض الذي أعطى لها والقرارات المحددة التي أمرت بتنفيذها ولقد بدا أن مسئولو الأمم المتحدة غير متقبلين لفكرة أن القـرارات التكتيكية التي تتخذها قوة الحماية التـابعة لـلأمم المتحدة على أرض الواقع في البـوسنة يمكن أن يكـون لها الأثر العميق على القرارات التي تتوصل اليها حكـومات الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن سواء في الأمم المتحـدة أو في المجالس العليـا مثل الناتـو. وأشاروا بحق إلى أن مجلس الأمن ظل يأمر قوات حفظ السلام بالقيـام بأعمال صعبة وغامضة ولكن بعد ذلك لم يكن راغبـا في مسـانـدة تلك التفـويضـات الجديـدة حتى بـالقـدر الأدنى من المال والرجال التي تتطلبها.

والمثـال الكلاسيكي على ذلك هـو ما يسمى بـالملاجيء الآمنة الصـادر في مايـو ١٩٩٣. فقد قدرت قـوات حفظ السلام حاجتها إلى ثلاثين ألف جـديدة من الجنود لحماية تلك المنـاطق. وقال قائد القـوة أنه عند اللزوم يستطيع أن يـؤدي المهمة بعشرة

الآف من الجنود ـ أو «الملاجىء الآمنة الخفيفة» كما سرت النكتة في مقر رئاسة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة في زغرب ـ وفي نهاية الأمر، سمح مجلس الأمن بـ ٧٥٠٠ جندي وأخيراً حدد المال اللازم بـ ٣٥٠٠ جندي فقط. وحتى تلك القوات لم يتم التفويض لها إلا بعد عام وبعد كثير من التراجع من الاعضاء الدائمين وسلسلة طويلة لمناورات السياسية من جانب مسئولي قسم عمليات حفظ السلام. وكما هو الحال مع قرارات الأمم المتحدة في البوسنة غالبا، فإن الغرض المقرر من اي قرار نادراً ما يكون مثل الهدف الحقيقي منه. فقد تم تبني سياسة المناطق الآمنة بعد أن حول صرب البوسنة سربرنيتشا إلى ساحة قتل ضخمة. وكان هناك في فرنسا، بصفة خاصة، ضغط شديد على حكومة ميتران للتدخل العسكري كما كان الضغط يتنامى في بريطانيا. وكان الرأي لدى كثير من مراقبي الأمم المتحدة، داخل وخارج السكرتارية العامة، انه يجب أن يُرى الفرنسيون والانكليز وهم يفعلون شيئا، وتحديد بعض المدن في البوسنة كملاجىء آمنة يظهر ذلك العزم من دون تكليف الأمم المتحدة أو خلف الناتو بعمل الكثير.

وخلافا لذلك كانت الولايات المتحدة تحبذ هذه السياسة لأنها كانت على أقل تقدير تميل نحو تدخل عسكري متصاعد. وبدا أن إعلان مناطق آمنة تعتبر خطوة في هذا الإتجاه. وكما إتضح، بالطبع، فإن البريطانيين والفرنسيين ـ الذين عارضوا التدخل في كل خطوة وكان يلزم رؤية كل عمل لهم في هذا الضوء حتى يمكن فهمه جيداً ـ حصلوا على النصيب الأفضل في هذا. أصبحت سربرنيتشا حظيرة إيواء بالنسبة للاجئي البوسنة، كما أصبحت غوراجده بعد عام، ولم يتم عمل شيء خاص لحماية المناطق الأخرى ـ بيهاتش وزيبا وتوزلا وسراييفو. أما الولايات المتحدة، وبرغم تعهداتها بمساعدة البوسنيين ـ كان تلك هي الفترة التي ظل فيها الرئيس كلينتون يصر على أنه «يفضل» رفع حظر السلاح ولكنه لم يستطع أن يجعل الحلفاء يوافقون ـ فلم ترفض فقط أن تلتزم بإرسال قوات بل خلفت في النهاية وعدها المقطوع منذ وقت طويل بتمويل القوات الملتزمة من الدول الاخرى. وبعد سنة من إصدار قرارات المناطق الآمنة كانت أزمة غوراجده هي التي اضطرت إدارة كلينتون لكي تؤكد مرة أخرى التزامها الأصلي.

وبذلك كان هناك لوم كثير في كل اتجاه. فقد كان مسئولو الأمم المتحدة مخادعون

عندما تظاهروا بأنهم الطرف الوحيد النزيه في مأساة البوسنة وفي الحقيقة، كانت قوات حفظ السلام تنفذ جدول أعمال سياسياً خاصاً جداً وجيد التخطيط منذ بداية إنتشارها. فقد كان افتراضها الأساسي بسيطاً. إذ رأت الأمم المتحدة أن مجرد تدخل واسع النطاق لمساندة البوسنيين بل وأي نشاط عسكري متزايد، سواء كان ضربات جوية للناتو أو رفع لحظر السلاح ذي الجانب الواحد ضد حكومة البوسنة، يعتبر مخاطرة بكل شيء كانت تحاول تحقيقه في البوسنة. كان معيارها غير أخلاقي باعترافهم هم - إذ رأى مسئولو الأمم المتحدة أنه لا دخل لهم في الحكم على الصواب والخطأ في الصراع. كذلك لم يكن المعيار سياسيا، حيث إنه رغم كونه حكومة البوسنة دولة معترف بها دولياً وأن «جمهورية» صرب البوسنة إنقلاب غير شرعي، فقد شعرت الأمم المتحدة بأنها مجبرة على أن تتعامل معهم على قدم المواساة «كأطران» أو بوصفهم «الأطراف المتحاربة».

وبالاحرى، أرادت الأمم المتحدة أن تمرر المساعدة وتسهل السلام.

فقد أصر جنرال برتراند دي لابريسيل، القائد العام لقوات الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة في نهاية اكتوبر ١٩٩٤ على أن «مهمة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة هي حفظ السلام. ليس لدى اعداء. لدى شركاء».

ومن وجهة نظر قوة الحماية كانت طبيعة شروط السلام غير ذات صلة تقريبا. فلم يكن يلزم ان يكون السلام عادلاً أو حتى سلاماً يمكن حفظه. فكل ما كانت تطلبه الأمم المتحدة أن توافق عليه «الأطراف». ومرة ثانية، كان المظهر التي ظهرت به الأمم المتحدة هو أنها منظمة تحاول في حيادية أن تساعد على حل موقف رهيب. ومرة ثانية كذلك، أخفت هذه الواجهة مصالح كانت الأمم المتحدة تحجم على الاعتراف بالدفاع عنها ولكن لم يكن من الصعب معرفتها فإذا كان الغرض من مهمة هو أن توقف الحرب، وكان الطرف الفائز مستعداً للتسوية بينما الطرف الآخر، بشعوره بأنه على حق ولكنه الخاسر، مصمم على مواصلة القتال، فعندئذ فإن من يديرون المهمة يجدون معظم الوقت أن مصالحهم مع الفائزين. فهم والفائزون يريدون السلام في حين أن الطرف المهزوم، الذين استولت عليهم فكرة أن الحق معهم، يرفضون القبول بهزيمتهم، في ظل هذا الإلتقاء ومع فهم الفائزين والأمم المتحدة

لذلك، فهما يشتركان في نفس الهدف.

ذلك هو ما حدث بالضبط في البوسنة وبالطبع حزنت الأمم المتحدة على ما قام به صرب البوسنة ولكن طالما ليس لديهم تفويض بعمل شيء حيال ذلك وتفويض خاص لإنهاء معاناة الشعب البوسني فقد وجدت الأمم المتحدة أنها تحاول حث حكومة البوسنة أن تعود إلى صوابها وتستسلم. وقد لا يكون ذلك نتيجة مثالية ولكن على الأقل سيتوقف قتل الناس. وإذا تضمن هذا إلغاء شرعية عدد من دول الأمم المتحدة بصورة أساسية، فليكن ذلك.

كان من المثير للاهتمام أن اعتراض كل من قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة وإدارة عمليات حفظ السلام على قرار المناطق الآمنة هو أنه لكي يكونوا عادلين و«إنسانيين» بحق كان على القرار أن يطلب نزع سلاح القوات البوسنية في المناطق الست، والا ستكون تلك المناطق مسرح عمل لإعادة تموين تلك المناطق للقوات الحكومية. كان ذلك معقولا في لغة حفظ السلام.

وكانت المشكلة تكمن في أنه إذا كانت قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة قد استطاعت في الحقيقة أن تنزع سلاح القوات البوسنية في عاصمة الدولة، سراييفو، وفي ثاني أكبر مدينة تحت سيطرتها وهي توزلا، وفي المناطق التي كانت تمثل آخر مقاومة بوسنية في أجزاء من الدولة تم تطهيرها عرقياً بصورة كاملة، اذا كان الأمر كذلك فإنها ستلغي دولة البوسنة بصورة نهائية باسم حماية المواطنين البوسنيين من هجوم الصرب.

ولحسن حظ البوسنة، فشلت محاولة تغيير القرار. ولكن الاستعداد الذي أبدته الأمم المتحدة للتضحية بالبوسنة لإسعاف البوسنيين يملأ مجلدات لما اعتقدت انها تقوم به في الدولة. وكما أدرك أي غريب قضى أي وقت في البوسنة فإن هذا الالتقاء في المصالح بين الأمم المتحدة والمليشيات الصربية لم يكن وضعاً استثنائيا بل كشف عن نفسه في الواقع بصورة يومية تقريبا. ومع ذلك فقد كان واضحاً جداً متى سيقوم الصرب بهجوم. وعادة عندما يقومون بذلك تكون الخسائر في الأرواح بين المدنيين رهيبة وتتناولها الصحافة ويزيد الضغط في الغرب من أجل نوع من التدخل. وفي عدة مناسبات فإن الأمر الوحيد الذي منع وصول قاذفات القنابل كان حركة وقائية

من قوة الحماية.

فعلى سبيل المثال، عندما احتلت قوات ميلاديتش اخر نقطتين هامتين فوق سراييفو يوليو ١٩٩٣ وهما جبل اجمان وجبل بيلبساكا فقد بدا وكأن الأمم المتحدة قد ترسل طائرات مهاجمة لرد الصرب، وعند تلك النقطة قام قائد قوة الحماية في البوسنة، وهو الفريق فرانسيس بريكمونت البلجيكي ونائبه البرجادير البريطاني جاي دي فير هايز، والذي كانت علاقاته الطيبة الواضحة مع كارادزيتش وميلاديتش مصدرا للدهشة والسخط الشديد في سراييفو، قاما بتدبيج اتفاقية يسمح الصرب بموجبها لقوة حفظ السلام الفرنسية بالتمركز على خط الجبهة الجديد ويتراجع الصرب قليلا ولكن ليس بالقدر الذي يجعل خطوط الفرنسيين والمليشيات الصربية منفصلة بحيث تستطيع الطائرات المهاجمة أن تفعل شيئا.

كانت الأمم المتحدة تقول إن اتفاق فصل القوات المزعوم كان نصرا كبيراً للسلام - كان يشاع على نطاق واسع أنها من صنع هايز ورئيس الشؤون المدنية للأمم المتحدة في سراييفو فيكتور اندرييف الروسي. وقد أصر مسئولو الأمم المتحدة للصحافة أنه «لا حاجة» للضربات الجوية. ولكن في الحقيقة فإنه بوضع قوات حفظ السلام قريباً من الصرب بحيث تقتل الضربات الجوية من الفرنسيين مثل عدد التشتنيك فإن الأمم المتحدة لم تتصرف كمراقب محايد بل نجحت في التأكيد على أن رغباتها - وفوق كل شيء الرغبة في منع التدخل - قد انتصرت. وهكذا مرة أخرى تتلاقى المصالح. فبوضع العقبات أمام الضربات الجوية تمكنت الأمم المتحدة من الحفاظ على مهمتها وتمكن الصرب من المحافظة على مكاسبهم على أرض المعركة. فلا عجب أن تكون العلاقة بين الصرب وقادة قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة سمناً على عسل. فأثناء معركة جبل إيجمان، وكما في كثير من المعارك الاخرى سابقاً ولاحقاً، كانت الأمم المتحدة أفضل صديق للصرب. وبدا الأمر وكأن طائرات الناتو لا يمكنها أن تقتل الجنود الفرنسيين. أو بمعنى أوضح، بدا أن أيا من قوة الحماية أو المتشددين في بالي لم يكونوا غافلين عن تلك الحقيقة.

كذلك لم يكن يبدو أن مسئولي الأمم المتحدة في شك من صحة مثل تلك الأفعال. فالمهم تجنب قتال آخر وحسب. وهذا يعني أن يهدأ الوضع عندما يتهادى

الصرب ويندرج تحت هذا عادة عدم الاستجابة مطلقاً والانتظار حتى تتفجر الأزمة . فعندما قام الصرب بالهجوم على قوات الأمم المتحدة مباشرة، كما كانوا يفعلون من وقت لآخر، فإن القوة لم تستخدم مطلقاً أو استخدمت على نطاق ضيق بحيث لم يكن استخدامها فقط بلا فاعلية عسكريا بل أظهرت للصرب الا يخافوا من قوة الحماية للأمم المتحدة، كما حدث عندما أمرت بضربتين جويتين لمساعدة رجالها في غوراجده في ابريل ١٩٩٤ . وقد شجع ذلك الصرب، وإن كانوا ليسوا بحاجة لذلك، على الشعور بأنهم يستطيعون أن يفعلوا ما يشاءون في البوسنة . فأياً ما كان يفعله الصرب مع الأمم المتحدة فقد ارادت الأمم المتحدة أن تتفاوض مع الصرب .
وعلى مدى سنتين، وكما تعود المراسلون على البلاغات الرسمية المتفائلة في حذر من قوة الحماية معلنة أنه سيتم هذه المرة عقد صفقة، فقد سقطت بوسانسكي برود وسريسكا وجايسا وزيبا . كما تم تطهير بانيالوكا وتدمير سراييفو وتحولت سربرنتيشا وغوراجده إلى معسكرات ضخمة للاجئين المسلمين . وفي منتصف ١٩٩٣ قال ديفيد أوين «إننا نتحرك بصعوبة نحو تسوية سلمية»، وكان يجدر به أن يقول أن جنرال ميلاديتش يتحرك بصعوبة نحو النصر.

ويمكن انتقاء الأمثلة في كل فترة من الحرب على العلاقة الحميمة بين الأمم المتحدة والصرب . وربما وصل الأمر إلى أسفل الدرك عندما عقد أكاشي اتفاقاً سرياً مع الجنرال ميلاديتش لمرافقة سبع دبابات لجيش صرب البوسنة عبر المنطقة المحظورة حول سراييفو. كانت تلك قضية خانت فيها الأمم المتحدة ليس فقط التفويض بحفظ السلام، بالسماح للصرب باعادة ترتيب وضع الاسلحة على جبهة أخرى على راحتها، بل خانت كذلك قرار الناتو بخصوص المنطقة المحظورة التي يفترض ان قوة الحماية للأمم المتحدة تشرف عليها . ولم يكن أكاشي أو رؤساؤه في نيويورك آسفين على هذه الصفقة . فقد قالوا أن الصرب أعطوهم شيئا في المقابل، هو بالتحديد حق نقل مائة وخمسين آخرين من قوات الحماية إلى غوراجده وتمركز المراقبين العسكريين للأمم المتحدة على الخط الأمامي في بركو في شمال شرق البوسنة ـــ وهي المنطقة التي يوجه الجنرال ميلاديتش اهتمامه اليها بعد تدمير غوراجده .

وقالت قوة الحماية وإدارة عمليات حفظ السلام تبريراً للأمر: ما قيمة سبع دبابات صربية أخرى مقارنة بتلك «الانجازات»؟ ومع ذلك أصر هؤلاء المسئولون

أنفسهم على أنهم كــانــوا فقـط ينفــذون تفــويض مجلس الأمن ولم يكـن ذلك من عندياتهم. ولم يحصل الصرب فقط على صفقة من الأمم المتحدة، كما هي العادة، ما كان يصح أبداً أن تقدم لهم، ولكن، عندما إنكشفت الصفقة وحاول أكاشي المحرج ان يلغيها، تحركت دبابات جيش صرب البوسنة داخل المنطقة المحظورة على الفور. .
ومنذ اضطـر أكاشي للسماح بـاستخدام القـوة الجوية لم يكن هناك مـا تستطيع الأمم المتحدة أو النـاتو أن يفعلاه لوقفهم. بل إن دبـابة تقدمت على مرأى من قـوة الحماية المرافقة. كان هناك طابور من ثلاث عربات: الدبابة الصربية فوق الشاحنة ثم عربة مرافقة صربية ثم العربة المرافقة لقوة الحماية. وقد أعلن المكتب الصحفي لقوة الحماية في اليوم التالي ان العربة المرافقة الصربية بدأت فجأة في التحرك ببطء جيئة وذهاباً عبر الطـريق لحجب الـرؤية عن الموجـودين في عـربـة قوة الحمايـة. وأثنـاء ذلك أسرعت الشاحنة التي تحمل الدبابة بـالتقدم. وأعلن العقيد إيريك شايبيرون المتحدث بإسم قوة الحماية لرجـال الصحافة ما يلي: «لقد فقدنـاها ونبحث عنها في كل مكان داخل المنطقة المحظورة»

لم تكن قـوة الحماية التـابعة لـلأمم المتحدة لا تجد غضـاضة فقط في تـرك الصرب يفعلون ما يحلـو لهم في البوسنيين، بل أثبتوا طوال القتـال أنهم راغبون في ترك الصرب يفعلون ما يريدون بقوات الأمم المتحـدة. وهناك مثال صارخ على ذلك: فأثناء الفترة نفسها من صيف ١٩٩٣، والتي كان الجنرالان هايزو بريكمونت يتلمسان طريقا لمنع الناتـو من طرد التشتنيك من جبل ايجمان، اختـار الصرب الهجوم على وحدة فـرنسية أقامت معسكراً قرب أنقـاض ستاد زيترا الاولمبي في سراييفو، حيث قام جيش صرب البوسنة باطـلاق اكثر من ثمانين قذيفة على الوحدة الفرنسية ودمـروا عدداً من عرباتها رغم عدم قتل أي من أفـرادها وهذا معجـزة، وتخاذل جنرال بريكمـونت عن إعطاء الأمر بالرد مفسراً ذلك لاحقاً بأنه لم يكن يريد أن يعرض للخطر محادثات السلام التي كانت على وشك البدء ثانية في جنيف. وبينما كانت الشاحنات تسحب عربات نقل الجنود المدمرة في شوارع سراييفو، اتضح أن السكان المحليين كانوا يهتفون في ازدراء. وقال لي أحدهم: «على الأقل هناك ثمانين قذيفة لن يصوبها التشتنيك نحونا».

ومع ذلك فقد كان كلا القرارين ـ التعامل مع الصرب وعدم الرغبة في الرد بنفس الأسلـوب على النيران المباشرة من الخطـوط الصربية ـــ متفقين تماماً مع أهـداف الأمم

المتحدة وعملياتها في البوسنة. ومن دون التأكيد على أن هايز واندريف قاما فعلاً بإعطاء ميلاديتش مخرجاً من أزمة ايجمان، فقد أخبرني أحد مسئولي الأمم المتحدة لاحقاً أنهم لو كانوا قد فعلوا ذلك فلا غبار عليهم، حيث قال: «لقد كنا وسطاء في هذا الموقف. يقول لنا الصرب بما يستطيعون عمله ودورنا أن نقول: حسنا. إذن عليكم أن تفعلوا ذلك. . وبالطبع نحن نرحب بأن يفعلوا كل ما في استطاعتهم. هذا هو ما تدور حوله مفاوضاتنا معهم. ولكن ليس في التفويض ما يسمح بإجبارهم على اتخاذ قرار معين، كما أنه ليس من مهمتنا أن نجبر الجانب الصربي على إتخاذ قرارهم. فكل ما نفعله هو المساعدة على إتفاق الأطراف».

ولم تكن المسألة ببساطة أن الأمم المتحدة تجد نفسها موضوعيا على وفاق مع الصرب وليس مع موقف الحكومة البوسنية فيما يتعلق بفرض السلام بسرعة، رغم أن ذلك كان جزءاً كبيراً منها. والواقع أنه كان من رأى كثير من مسئولي الأمم المتحدة أن المجرمين الحقيقيين في حادثة تفكك يوغسلافيا لم يكونوا كارادزيتش أو ميلوسوفيتش وبل فرانكو تودمان وهانز ديتريش غنشر وعلي عزت بيغوفيتش مع الترتيب التنازلي في إلقاء اللوم. ولقد اعترفوا أن عزت بيغوفيتش حاول قدر المستطاع الإبقاء على وحدة يوغسلافيا. لكن مع اعتبار ميلوسوفيتش فوق أي طعن فقد توصلوا إلى أن عزت بيغوفيتش يتحمل مسئولية القبول بأي شيء يرغب القائد الصربي في تقديمه له. ذلك ما اعتقدوا أنه الموقف الصحيح في ١٩٩١ وقابل للتطبيق بنفس الدرجة عام ١٩٩٤.

ولم يكن هناك مجال لإنكار أن صرب البوسنة قد حققوا بسرعة معظم أهدافهم العسكرية وعند بداية ١٩٩٤ كانوا يضغطون من أجل وقف إطلاق النار. وكان هذا في واقع الأمر تحديدا لخطوط التقسيم في البوسنة حسبما تم في ميدان القتال. ولكن من أجل الوصول إلى السلام، أي سلام، كانت الأمم المتحدة راغبة في مسايرة الوضع. وبديهياً يكون الجانبي البوسني، الذي كان في مفهوم الأمم المتحدة، كما قيل عن الايرلنديين، غير جاد في حرية بلده، هو المعيق لذلك. فقد كان يريد تسوية بالقوة أولاً وبعد ذلك فقط يكون وقف إطلاق النار. في عام ١٩٩١ في كرواتيا طالبت خطة فانس بالسماح بعودة من طردوا من مناطق بلدهم التي كانت تحت الاحتلال الصربي وأن تتولى الأمم المتحدة السيطرة على المناطق المتنازع عليها، أو ما

سمي بالمناطق الواقعة تحت حماية الأمم المتحدة، حتى يتم الوصول إلى تسوية نهائية. ولكن في نهاية ١٩٩٤ لم يسمح للاجيء واحد بـالعودة وكان هناك اعتراف عالمي بأن الصرب، وليست الأمم المتحـدة، هم الذيـن يسيطرون على تلك المنـاطق. وفي ظل تلك الظروف، كـان لدى حكومـة البوسنة كل العـذر في رفض ضغط الأمم المتحدة عليها للموافقة على وقف «مؤقت» مشابه لاطلاق للنار في بلدهم.

لكن مسئولي قوة الحماية التـابعة للأمم المتحدة كانوا أكثر اهتمامـاً بسلامة رجالهم هم من المحافظـة على وحدة أراضي البوسنة والهرسك. ولايعني ذلك أن تهديـد أفراد الأمم المتحدة على الأرض كان وهمياً. فقد كان يمكـن أن يكون حوالي ثلاثون الفاً من رجال الأمم المتحـدة على الأرض في البوسنـة هم الهدف الأول للصرب لو كـان هناك تهديد عسكـري غربي جاد، رغم أن مسألـة قتل أو أخذ رجال الأمم المتحـدة رهائن شـدد بالتأكيـد من تصميم الأمم المتحدة على معـارضـة التدخل بكل مـا تملك من الوسائل. وكما أوضح الصرب عنـدما احتجزوا ما يقـرب من مائة وخمسين من قوات حفظ السـلام رهائن بعـد طلعـات قاذفـات الناتـو فـوق غوراجـده، فإن مثل تلك التهديدات كانت فارغة. وكان رفض أكاشي بعد ذلك السماح بضربات الناتو، حتى عندمـا أصبح من الواضح أن انـذار الناتـو بخصوص غـوراجده لم يحترم، نـاشئا في جانب منه عن قلقه على سلامة رجالـه. وبالرغم من ذلك كله، فان هذا يمثل فقط طرفاً من القصـة. ففي نفس الوقت الذي كان فيـه الصرب يحتجزون افراداً من الأمم المتحدة ومع اقتراب وقت الانـذار الاخير للناتو فقـد قام مسئـول مدني رفيع في الأمم المتحدة في سراييفو، هو سرجيو فيرا دي ميلو، وقائد قطاع قوة الحماية للأمم المتحدة، جنرال اندريه سوبيرو، شخصيا، بقيادة قوة صغيرة داخل غوراجده، مما أمد الصرب في الواقع بأهداف أكثر ورهائن محتملـة أكثر. وليس واضحاأن أكاشي كان يمكن أن يعطي تخويلا بضربات جـوية تحت أي ظروف، ولكن وجود تلك القـوات الأضافية لقوة الحماية والمسئولين جعلت اختياره سهلاً. ومع ذلك فعلى نفس النمط تحدث دي ميلو ورفاقه بأن ما فعلوه كان نصراً لعملية السلام.

كـانت هنـاك أمثلة كثيرة على أن فهم الصرب لقـوة الحمايـة للأمـم المتحدة كـان أفضل من فهم قـوات الحمايـة لنفسها حتى أن المراسلين سرعـان مـا افترضوا، عنـد الشك، أن المحصلة ستكون زيـادة في مهانة الأمم المتحدة، فقد بـدأت اللعبة مبكراً

ولم تتغير بعد ذلك. فإذا استطاعت قوة الحماية وادارة عمليات حفظ السلام القبول، كما فعلوا في ٩ ابريل ١٩٩٣ بعـد اسبوع من تحرير الأمم المتحدة لقرار بتخـويل الناتو بفـرض حظر الطيران فـوق البوسنـة، بقيام الجنـرال ميلاديتش بـالطيران في مروحيـة القيادة لحضور اجتماع مع جنرال مـوريلون، فمن الواضح انها ستقبل بأي شيء يجرؤ الصرب على تقـديمه. قـال صـديق لي من سراييفـو في ذلك الوقـت ساخـراً: «بهذا المعدل الذي يسيرون عليه فإنهم سيطلقون على إذلال النفس إسماً قبيحا».

لكن محاولات الأمم المتحدة لعقد صداقة مع الصرب كانت تقوم على ما هو أكبر من شعور جنرالات قوة الحماية بالـراحة مع جيش صرب البوسنة أكثر من راحتهم مع البـوسنيين، أو مـن تفضيل مسئـولي الأمـم المتحـدة المدنيين للســلام بأي ثمن واستعدادهم للتضحية بأي مبدأ باسم جهود المساعدات الانسانية ـ رغم أنه مع مرور الوقت فقـد وضح تماما التناقض بين مـوقف قوة الحماية لـلأمم المتحدة نحو حكـومة البوسنة وصرب البوسنة. وغالبا ما علق مسئولـو اللجنة العليا للإغاثة، الذين رافقوا مسئولي قـوة الحماية إلى الاجتماعات في كل من رئاسـة حكومـة البوسنة أو مقـر رئاسة رادوفان كارادزيتـش في بالي، على مدى ارتياح قادة الأمـم المتحدة لصحبة الصرب. وفي اللجنة العليـا للإغاثـة كانت يُشـار الى أي مسئول رفيع في الأمم المتحدة بطـريقة روتينية على أنه «السيدة ميلاديتش».

بل أن أعضاء من موظفي الجنرال روز كانـوا يقولون سرا أن الجنرال يعتبر أن خطة التقسيم في ربيع ١٩٩٤ غير عادلة مع صرب البوسنة وأنه، أثناء اجتماعه مع رادوفان كـارادزيتش، أعلن عن تحفظـاتـه عليهـا. إن تأثير مثل تلك التصريحات على رغبـة الصرب في قبول الخطة أمر يسهل التنبؤ به. فكيف يكون الغرب جاداً اذا كان مسئول الأمم المتحدة الرفيع في البوسنة لديه شكـوكه؟ لكن رغبة الأمم المتحدة في النظر إلى ما يحدث في البـوسنـة من وجهـة نظـر كـارادزيتش ليست مجرد نتيجـة لـلآراء الخاصـة لمسئولين معينين، بل كانـت الأحرى دالةً للطريقة التي عملـت بها قوة حفظ السلام للأمم المتحدة تاريخياً منذ بدايتها.

وطوال الصراع كـان مسئولو حفظ السـلام التابع لـلأمم المتحدة على الأرض، في يوغسلافيـا السابقة وكذلك في نيـويورك وجنيف يحاولون التعامل مـع صرب البوسنة

(ومع حكومة ميلوسوفيتش في بلغراد كذلك) وكأنهم جادون حيال تسوية يجري التفاوض عليها. وبسلوكهم هذا كانوا يستخدمون سلسلة من الشكليات ويعملون في إطار افتراضات قد تكون مناسبة في التعامل مع أناس يريدون ايقاف القتال ولكنها غير مناسبة تماماً في التعامل مع قادة محبين للحرب لدولة شريرة كانت في الواقع جمهورية صربيا.

وليس من المستغرب أن الصرب كانوا محصنين ضد تلك الدعوات الكئيبة للتصرف كمواطنين مسئولين في المجتمع الدولي بنفس الدرجة التي كانوا محصنين بها ضد التهديدات بالعمل العسكري الذي كانوا يعرفون أنها فارغة. ومنذ البداية، كانوا واضحين حول أهداف حربهم وواضحين حول استراتيجيتهم العسكرية والأكثر أهمية أنهم كانوا واعين لحقيقة أنه مهما قال ممثلو القوى العظمى وأياً كانت القرارات التي قد يمررونها في مجلس الأمن، فلم تكن هناك إرادة مطلقاً بين الحكومات الغربية لدعم هذا الكلام بالقوة. ولم يكن المجتمع الدولي يعرف ماذا يريد وبالتالي كان مشلولاً. كان يريد للحرب أن تتوقف وللإبادة الجماعية أن تنتهي وان يتم احتواء الصراع، ولكن كان يمكن تحقيق آخر هذه المتطلبات فقط، والتي كانت على المدى القريب على الأقل، متسقة مع إنتصار صربي مثلما هي متسقة مع هزيمة صربية، من دون تعريض حياة جنود الناتو للخطر.

ومنذ الحرب الصرب كرواتية عام ١٩٩١ كان من الواضح أنه لن يتم ارسال القوات الأميركية والانكليزية والفرنسية للقتال في البلقان. فالمساعدة على توصيل المساعدات الانسانية شيء، والقيام بحرب شيء آخر. وبالنسبة للصرب فإن رفض الغرب القيام بعمل بينما يتم تدمير فوكوفار وقصف دوبروفنيك كشف لهم - في كنين وبالي وبلغراد - كل ما يريدون أن يعرفوه. ولم يكن الصحفيون الساخطون فقط هم من يعتقد ذلك. فعندما اتهم ديفيد أوين، في اجتماع في نيويورك أوائل ١٩٩٣، بأنه كان يتصرف مثلما تصرف الإنكليز والفرنسيون في محاولة لإرضاء هتلر عام ١٩٣٨، رد ببرود: «كانت ميونيخ العام الأخير». ومهما يمكن أن يقال عن ديبلوماسية أوين فقد كان محقاً تماماً في ذلك. كان قد تم إرسال فانس وأوين من قبل الأمم المتحدة والإتحاد الأوروبي للتفاوض حول تسوية في البوسنة وهما يعلمان منذ البداية أنه لن يكون هناك ضغط عسكري أو حتى تهديد جاد به يظهرونه امام الصرب مع علمهم

بأن الصرب كانوا على وعي تام بذلك . ومع مضي الوقت فإن حقيقة أن أوين وفانس نفسيهما بدا حملة نشطة ضد التدخل العسكري الغربي (مجادلين في مضيعة للوقت بأنهما على وشك تخطي الوضع) لا تغير شيئا .

قال أويون في مقابلة : «كانت هناك جهود للوم المتفاوضين. ضعوا اللوم على حكوماتكم . إنني وسيط ، مفاوض . والمفاوض يعمل دائماً في جانب السلام . على أن أتمسك بتلك الحيادية . إنني أعيش داخل هذا الإطار . . لم نكن مطلقاً ضد مشاركة أكبر من جانب الحكومات . . . أن وظيفتنا هي حفظ السلام والانتظار حتى تستأنف الحكومات المشاركة في المفاوضات!!

المشكلة أنه لم يكن هناك سلام يحفظ ولا شيء للتفاوض عليه. فكل ما كان يريده الصرب هو النصر. وهذا ما كان على الأمم المتحدة والمجموعة الأوروبية وفانس وأوين والباقين أن يواجهوه. إنها مشكلة قديمة تواجه الليبراليين في صراعهم مع الشموليين: عدم القدرة على تصديق أن ما قاله القتلة لجماهيرهم المحليين كان يعكس ما خططوا لعمله بأكثر مما يعكس ماقالوه حول مائدة المؤتمر. فلو شاهد أحدهم رادوفان كارادزيتش أو الجنرال ميلاديتش في تلفزيون بلغراد أو بالي فسيجدهما يتحدثان عن إقامة صربيا الكبرى وعن النصر، اما إذا كانوا يتكلمون مع الصحفيين فإنهم يتكلمون (أو على الأقل فعل ذلك كارادزيتش على أي حال، أما ميلاديتش فغالبا ما يهدد أعداءه بالدمار ويحذر المراسلين ومسئولي الأمم المتحدة بأن يتنبهوا لحركاتهم وأن يقفوا عند ذلك) عن الطبيعة الدفاعية للحرب وينكرون وضع اللوم على جانب الصرب. كان الصرب يراهنون مع الديبلوماسيين بينما في الميدان استمرت قواتهم في عمل ما كانت تفعله على طول الخط.

قال أوين ذات مرة «يعرف الصرب كيف يتعاملون مع الأمم المتحدة». ولقد أصبح خط سير مسئولي الأمم المتحدة في البوسنة مألوفا لدى أولئك الذين إستطاعوا المضي في مراقبته: يصل الديبلوماسي أو القائد العسكري للأمم المتحدة إلى زغرب أو سراييفو واعداً بمجهود متجدد. وغالباً ما يصر، عند مواجهته لجمهرة من الصحفيين المعادين الذين طالت إقامتهم في البوسنة، أن من الخطأ لوم الصرب على كل شيء وأنه خطأ أكبر أن نسخر من عملية المفاوضات وتبرز ثقة هادئة وامكانية أن

ستصير الأمور اخيراً نحو الأفضل. كان يتم اعـلان ذلك إما بصراحة أو بالتلميح في الكواليس أو تحت بند ليس للنشر. ثم يحدث التخلي عـن الوهم حتما، ذلك الصعود على منحني الوهم السحيق والـذي سار فيه كل مسئول في الأمم المتحـدة قبل مغادرة البوسنة وقد صارت سمعته البراقة إلى أشلاء.

كان الطيارون من الرتب العليا غالبا ما يفعلون ما هو أسوأ مما يفعله الانتهازيون. فعندمـا إمتد التفويض لقـوة الحماية التابعة لـلأمم المتحدة أول الأمر ليغطى البـوسنة والهرسك بالإضافة إلى كرواتيا فإن مستـوى المسئولين العاديين للأمم المتحدة، بعكس اللجنة العليا للإغاثة، كان منخفضا نـوعا ما. فقد كان المسئول المدني الرئيسي للأمم المتحدة في يـوغسلافيـا السابقة وهـو دبلومـاسي أنجلو ـ أيـرلندي يـدعى سيدريك ثورنبري ينظر إليه من قبل كثير من الناس في فريق أوين/ فانس وداخل اللجنة العليا للإغـاثة على أنه انتهازي لبق الحديث منهجـه الأساسي أن يبذل أقل قـدر من الجهد وأن يحول اللـوم حيثما يستطيع. وعندمـا تم تعيين يـاسـوشي أكاشي كممثل خـاص للأمم المتحـدة في يوغسلافيا السـابقة وكذلك تعيين سرجيـو دي ميلو كقنصل مقيم للأمم المتحدة في سراييفو فإن العارفين بهما سارعوا بافتراض أن السكرتارية في نيويورك أصبحت أخيرا جادة في البـوسنة. كان هذا، وهـو ما أكده لي رجـال الأمم المتحدة، أول فريق وأن وصول قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة الى نتائج مختلفة هو مسألة وقت فقط.

وفي الوقت ذاته تم استبدال جنرال بريمكونـت ـ الذي كان سجله خالياً من أي خبرة قتاليـة والذي تعـود على أن يتنقل بين المفـاخرة للصحفيين بـوصولـه غير المسبوق إلى جنـرال ميـلاديتش (الـذي ادعى معـرفتـه قبل تفكك يـوغسـلافيـا) والشكـوى من بيروقراطيـة الأمم المتحدة في نيـويورك والصعـوبات التي يـواجهها «تحت النيران» في سراييفو ـ بالسير مايكل روز، وهو جنرال محارب فعلاً وكان قائداً سابقاً في كوماندوز الخدمة الجوية الخاصة البريطانية وعسكـري محنك في الفوكلاند وفي الحرب في أيرلنده كما حصل على دورة في حفظ السـلام في كـامبرلي بكليــة العسكـريين البريطـانيـة. وبالرغم مما قاله أحد مسؤولي الأمم المتحدة، والذي كانت له تعاملات مع روز، عن «نظـرة بعيدة» تلمح أحيـانـاً في عيني الجنـرال، أرجعها إلى قضـاء روز وقتـاً طويـلاً «يقتحم الغرف ويجمد كل شخص أمامه»، فلم يكن هناك شك أن روز كان ضابطاً

على كفاءة عـالية. في بادىء الأمر، وعنـد ترتيب وقف إطلاق النـار وسحب أسلحة الصرب الثقيلة حول سراييفو، ظهر حقيقة أن تلك القيادة المدنية والعسكرية الجديدة ستغير الأمور. فقد وصلت اللجنة العليا للإغاثـة التابعة للأمم المتحدة إلى أماكن في البوسنـة كانت تحجز عنـدها لشهـور. وفي سراييفو بدأ روز في رفع القمامـة وإصلاح خط الترام، بل وإقامة مبـاراة في كرة القدم على مرأى من الصرب المحـاصرين ـ وهو شيء لم يحلم به أحد قبل وقف إطلاق النار.

ولكن، وكما كـان يجب أن يكـون واضحـاً منـذ البدايـة، كـان وراء الأكمـة مـا وراءها. ولـو أن مسؤولي الأمم المتحـدة والحكومـات الغربية انتبهـوا أكثر إلى مـا يبثه تلفزيون بـالي، فإن أولئك الذين اعتقدّوا تماماً أنهم حققوا انتصـاراً على الصرب كانوا سيدركون أن الجو في جمهورية صربيا لم يكن انهزامياً. فقد توقف الصرب من زمن عن خطتهم في أخذ كامل مدينة سراييفو. وقد علق أوين عند نهاية سحب معظم (وليس جميع، كما اتضح) أسلحة الصرب الثقيلة من حـول سراييفو بقوله «إلى حـد ما، كان يطلب من الصرب أشياء سبق وقبلوا بها مبدئياً . . .».

وعندما يزور المرء بالي أو المنـاطق التي يحتلها الصرب في سراييفو، فإنه يلاحظ أن الحديث بين قـادة صرب البوسنـة لم يعد، كما كـان قبل ست شهـور، حول إعـادة الاستيلاء على بقية المدينة بل حول التقسيم. كـان نيكولاس كوليفتش، الناقد الأدبي الـذي أصبح وزيراً، يحب أن يحيي الصحفيين الـزائرين في بـالي بأوصاف «سراييفـو الجديدة»، أي أطـراف وضواحي المدينة التي يخطط الصرب لجعلها عـاصمتهم بعد نهاية شـاملة لـلأحقاد في البـوسنة. كـان يجري تبديل كل شيء مـن الأسماء الجديدة للشوارع إلى خطط الإنشـاءات الجديدة. وربما كان يجدر بـالأمم المتحدة أن تعتبر أن فتح جسر الأخوة والوحـدة بين الجزء الواقع تحت سيطرة حكومة البـوسنة في سراييفو وجريبـافيكا، النتوء الذي يحتلـه الصرب داخل سراييفو، بمثابة إشـارة على أنه ليس مطلقاً خطوة نحو لم شتـات سراييفو ثانية، بل إجازة لتقسيمها قـانونياً، أو هي على الأقل قامت بـذلك عندمـا سمحت للصرب بإقامة مـركز جمارك مع شعـارات تقول «مدينة سراييفو الجديدة» و «نقطة عبور» على لافتة بجانبها.

عند رفع اللافتـة أعلن مسؤولو الأمم المتحدة بازدراء إن إقـامتها لم يكن جزءاً من

صفقتهم مع الصرب وأنه يجب إنزالها. وهو ما لم يحدث بالطبع. لقد كان أوين على الأقل أكثر صراحة. ففي أوائل ١٩٩٤ كان مستعداً للاعتراف علناً بأنه مع مرور كل يوم فإن «احتمال تقسيم دائم لسراييفو يصبح أكبر». كان مثل ذلك التقييم الصريح للوضع منعشاً وبخاصة عند مقارنته بتصريحات أكاشي المتناقضة. ولكن أوين ابتعد بذلك كثيراً عن الموقف الذي صرح به مراراً وبشكل حاسم طوال النصف الثاني من عام ١٩٩٢ وطوال عام ١٩٩٣ والقائل إنه «لن تكون هناك جمهورية صربيا الكبرى» والآن بدأت اللعبة وكان يعرف بها. والقوة فقط هي التي تستطيع إجبار الصرب على التخلي عن أي منطقة حول سراييفو ولكن وكما علق أويون «الروس موجودون هناك الآن، وأي هجوم الآن يعتبر تعدياً على كبريائهم».

ولكي يحبطوا الضربات الجوية للناتو قام الروس بتحريك قوات إلى الجانب الصربي من خط المواجهة قبل أيام من انتهاء مهلة الإنذار الأخير للناتو في نهاية فبراير ١٩٩٤. قال أويون «كان حلف الناتو مستعداً لاستخدام الضربات الجوية». ولكن مع انتشار الروس تبخر هذا الاستعداد. فقد كانت القوى الكبرى تهتم بروسيا أكثر من اهتمامها بالبوسنة وكان من المستبعد تماماً القيام بضربة جوية قد يقتل فيها جندي روسي واحد. وكان الصرب يفهمون ذلك. فعندما وصلت الكتيبة الروسية التي كانت في السابق جزءاً من قوة الحماية المنتشرة في شرق كرواتيا إلى بالي، تم استقبالهم كمحررين حيث رفع السكان المحليون تحية الأصابع الثلاثة للقوميين الصرب ووزعوا خمر سليفوفيتز والمقانق والجبن والخبز كما رد الروس على التحية بمثلها وهم يساعدون في صعود الشباب فوق عرباتهم المصفحة. ولاحقاً كانوا يتمازحون مبادلين بالبيريهات الزرقاء للأمم المتحدة قبعات جيش صرب البوسنة التي يرتديها الجنود الصرب في الجانب المقابل. ثم انتقلوا إلى مواقع على طول خط المواجهة وبانتشارهم لم تعد هناك إمكانية أمام حكومة البوسنة لاستعادة بوصة بالقوة من سراييفو يسيطر عليها الصرب كما حاولت أن تفعل في أواخر ديسمبر ١٩٩٣م.

ربما كان كل ذلك أمراً محتوماً. أوكما قال أويون «إننا نخدع أنفسنا إذا تصورنا أن الناس يستطيعون العودة إلى مناطق الصرب». لكن لم يؤكد هذا التقييم أي من الأمم المتحدة أو الحكومات الغربية الرئيسية المعنية بالبوسنة. ورغم مرور وقت طويل حتى تم إعلانه، فإن الإنذار الأخير من الناتو للصرب وما حدث في سراييفو نتيجة له تم

تقديمه وبخاصة في الولايات المتحـدة ـ ربما بسبب عاطفة النخبة، تجاه البوسنيين أو لأن كلينتون وهو مرشح للرئاسة وعد برفع حظر السلاح ضد الحكومة البوسنية حيث كان الشعور بالفشل السابق عنيفـاً ـ على أنه نصر عظيم. ولكن لم يكن الأمر كذلك مطلقاً. فقد أكـد ما كانت القوى الكبرى قـد قررته مسبقاً: إن الحل الوحيـد للأزمة البـوسنيـة هو التقسيم مع السماح للصرب بـالاحتفـاظ بقـدر كبير من الأراضي التي احتلـوها وطهـروها عـرقياً. ولم يكن سيتم عمل شيء مطلقـاً من أجل سراييفو لـو لم تواجه القوى الكبرى بأزمة علاقات عـامة سببتها الصورة المتلفزة لمذبحة السوق في ٥ فبراير ١٩٩٤ مع جماهيرها. وكان الحد الأدنى هو الذي تم.

وقد اتضح عدم تغير العلاقات الأساسيـة في القوة بين الأمم المتحدة والناتو وبين الصرب بعد ذلك بشهرين، في إبريل ١٩٩٤، عندما شن جنرال ميلاديتش هجوماً على جيب غوراجـده شرقي البوسنـة. وكانت غـوراجده أحد ثـلاث جيوب لمقـاومة حكـومـة البـوسنة في وادي درينـا، وهي منطقـة كـانت تضم غـالبيـة مسلمـة قبل ١٩٩٢.

وكانـت المدن الأخرى في المنطقـة ـ فوكـا وكانيسي وبيـلايينا وزفـورنيك ـ قـد تم أخذها في أوائل الحرب مع ممارسة التطهير العـرقي بقسوة خاصة هناك. ولكن ظلت ثلاث مناطق، كل منها يتكون من مدينة رئيسيـة واحدة ـ سربرنيتشا وزيبا وغوراجده وسلسلة من القـرى المحيطة مع حكومـة البوسنـة. وظلت المناطق الثلاث شـوكة في حلق الجنرال ميلاديتش. ولم تتفق خطة إقامة صربيا الكبرى الممتدة من صربيا مروراً بـالبوسنـة إلى كرايينـا مع وجـود ثلاث منـاطق بـوسنية محتشـدة بمقاتلين من رجـال العصابات على درجة عـالية من التدريب يقطعون خطوط اتصالاتـه شرقاً إلى كرواتيا وجنوباً على طول نهر درينا إلى الجبل الأسود والأدرياتيكي.

كـان ميلاديتش قـد تعامل مع سربـرنيتشا في أوائل ١٩٩٣ حيث نشر عـدداً من قواته ومدفعيته حول الجيب وبدأ في التقدم إلى الدخل في بطء. وكما كان يحدث دائماً فقد دمج ميلاديتش الفكر العسكري للجيـش الوطني اليوغسلافي «وحلف وراسو» ـ الذي يمكن تلخيصه في عدم إرسال جندي مطلقاً حين يمكن إرسال طلقة أولاً ـ مع نزوع صرب البـوسنة إلى جعـل المستشفيات ومحطـات معالجة الميـاه ومراكـز اللاجئين

هدفاً لهم من أجل إحداث أكبر قدر من الرعب بين السكان. وسقطت قرية بعد أخرى حتى وصلت قوات ميلاديتش إلى مشارف سربرنتشا نفسها. وفي يوم محدد تم قتل ستين مدنياً في المدينة بينهم عدد كبير من الأطفال بنيران قذائف جيش صرب البوسنة. وعندئذ فقط أصدر مجلس الأمن قرار المناطق الآمنة. وبالرغم من الهجوم القصير الذي قام به في سربرنيتشا قائد قوة الحماية في البوسنة وقتها، جنرال فيليب موريون الذي وعد الناس هناك بأنه «لن أترككم أبداً» لكن بعد أسبوع عاد إلى سراييفو، فقد كان تأثير القرار الوحيد أن ظل وسط المدينة المشلول اقتصادياً في يد البوسنيين.

وكانت غوراجده تكراراً لسربنتشا، لكن هذه المرة مع عجز الدبلوماسي المميز أكاشي والعسكري الصلب روز عن فعل شيء لوقف الصرب أو لتقييم مقاصدهم بدقة. فقد أعلن الجنرال روز في ازدراء عند نقطة معينة وكأنه لم يسمع مطلقاً عن مثل هذا التكتيك من جانب كارادزيتش وميلاديتش: «لقد كذبوا عليّ. لن أثق في الصرب مرة ثانية» كذلك بدا أكاشي كما لو كان مذبوحاً بفأس. كما حدث ذلك أيضاً للمفاوض الروسي، وكيل وزارة الخارجية فيتالي شوركين، الذي كان حتى تلك اللحظة يدافع عن كل ما يفعله الصرب. ومع استمرار قصف غوراجده طالبت قوة الحماية بضربتين جويتين غير مؤثرتين وتراجعت بسرعة. ثم أعلن الناتو عن منطقة محظورة وبعد إحدى عشرة ساعة سحب الصرب معظم أسلحتهم الثقيلة وأعلن أكاشي وروز أن الأزمة قد انتهت.

ثم انهمكت قوة الحماية في إعادة كتابة ما حدث في غوراجده. ووفق قولهم فإن الحصار لم يكن بذلك السوء. فحينما كان أعضاء رئاسة روز يقاومون الضغط من اللجنة العليا للإغاثة لعمل شيء حيال غوراجده فإنهم أعلنوا أنهم يعتبرون مسؤولي اللجنة أناساً لا يعتمد عليهم وأن تقارير الرئيس الكندي لفريق المراقبين العسكريين للأمم المتحدة الرائد بات ستوجران عديمة القيمة كذلك لأنه يبدو أن الرائد قد انهار تحت الضغوط، كما قال أحد مساعدي روز للصحفيين، وحتى بعد توقف قصف غوراجده، استمر روز وجماعته في الإصرار على أن الأزمة كلها مبالغ فيها، في تقريره. و بعد زيارته الأولى لغوراجده بالطائرة، عقد الجنرال روز مؤتمراً صحفياً أصر فيه على أن كلاً من الدمار في المدينة وأعداد الخسائر في الأرواح مبالغ فيها جداً وقال

في غضب: «إننا نقوم بإجلاء الجنود الجرحى الذين يقفزون خارج مروحياتنا».

في الواقع، كان هياجه بسبب أنه اعتقد أن قوات حكومة البوسنة استدرجت أحد جنود قوات الطيران الخاصة البريطانية، والتي تقوم بتنظيم الطيران المتقدم وذلك بدعوته إلى أحد مواقعهم وأطلقوا النار على الصرب وتركوا الضابط البريطاني ليقتل من الضرب المضاد. وعلى أي حال، يُقال إن روز كان يعتقد بينه وبين نفسه بأن مذبحة السوق في سراييفو كانت في الواقع إحدى حالات قصف البوسنيين لأنفسهم بالمورتار. وكان مساعدوه يخبرون الصحفيين الزائرين بذلك على وعد بعدم النشر طبعاً. ولكن اللجنة الدولية للصليب الأحمر وكذلك اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة والتي كان لها مسؤولون دوليون في غوراجده أثناء وبعد القصف أنكرتا تقرير روز بكل وضوح. فقد قال بيتر كيسلر من اللجنة العليا للإغاثة والذي أمضى سنة في يوغسلافيا السابقة مقابل كل شهر أمضاه روز هناك: «إننا نواجه كارثة إنسانية هنا».

وفي تلك الأثناء، أوضح صرب البوسنة أنه فيما يخصهم فإن كل ما يطلبه إنذار الناتو منهم هو وقف قصف غوراجده وسحب معظم أسلحتهم الثقيلة. وبعد أيام قليلة من افتراض سحبهم لجميع رجالهم وجميع آلياتهم كما طُلب منهم بدأ صرب البوسنة مرة ثانية في تحريك قواتهم إلى مسافة أقرب من وسط المدينة. ثم أرسلوا مجموعة من لاجئي صرب البوسنةبمرافقة جنود من جيش صرب البوسنة في زي رجال الشرطة الأزرق. وأصر كاردزيتش في تكرار مخيف لتصريحاته عن سراييفو نفسها قائلاً: «إننا لن نسلم مطلقاً الجزء الصربي من غوراجده». وفي بادىء الأمر أنكرت الأمم المتحدة التقارير عن وجود جنود ومستوطنين في المدينة. حيث قال الجنرال روز «إننا لن ندخل حرباً لأن الصرب تركوا دبابة صدئة في مكان ما» ثم اعترفت قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة أن «قليلاً» من الصرب ربما لا يزالون داخل المنطقة المحظورة. وفي نهاية الأمر، وعندما لم يكن من الممكن المضي في إنكار تقارير أفراد قوة الحماية، اعترف الجنرال روز أنه توجد «مشاكل» في غوراجده. وبالطبع فإن الحقيقة تمثلت في أن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لم تكن عاجزة فقط، بل في أنه بعد كل ما حدث ظل أكاشي وروز يفضلان ذلك على القتال. كان الصرب يستطيعون أن يفعلوا ما يشاءون مع قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، فهم لن يحاولوا التدخل ولا

حتى نفخ الصافرة ما لم يكونوا مجبرين على ذلك .

وكان أحد الأشياء التي يحب مسؤولو الأمم المتحدة أن يحدثو الزائرين عنها أن كل شخص في يوغسلافيا السابقة يكذب . وربما كانوا على صواب في ذلك . ولكن للذين شاهدوا القتل في البوسنة ، بدا غالباً وكأن مسؤولي الأمم المتحدة أنفسهم هم أكبر الكذابين جميعاً . فمن خلال التغطية «بورقة التوت» الإنسانية على ما كان يحدث حقيقة في البوسنة وبالتظاهر بأن اهتماماتهم لم تكن تلك الاهتمامات الضيقة الأفق لمنظمة مفلسة أخلاقياً وعقلياً أجبرها مجلس الأمن على تولي مهمة كانت غير قادرة على القيام بأعبائها بشرف ، فإن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة وإدارة عمليات حفظ السلام أصبحتا مشاركتين في الإبادة الجماعية . وكما قالوا فإنهم كانوا فقط يتبعون تفويضهم . وكان لهذا رنين جميل . فهل استطاعوا أن يسمعوا صدى لجملة مشابهة صدرت منذ نصف قرن مضى ، اختلفت فقط في استبدال كلمة «أوامر» بكلمة «تفويض»؟ لكن ربما كان مسؤولو الأمم المتحدة على حق ، فربما كانت كل الأطراف في الصراع تكذب . على أن ما كان فاحشاً في تلك الأكاذيب الصادرة الأمم المتحدة ـ بالنسبة لنفسها كما للعالم كله ـ أنهم صدقوا أنفسهم وهم يتفوهون بها . كانوا يعتقدون أنهم الإنسانيون ، وكانوا يعتقدون أنهم حافظو للسلام .

الفصل التاسع

استرد العالم شرفه في البوسنة من خلال أولئك الذين يعملون في «منظمات الإعانة غير الحكومية» واللجنة الدولية للصليب الأحمر ومكتب المفوضية العليا للاجئين بالأمم المتحدة. لقد عملوا هناك بدون أي جدول أعمال سري ورفضوا بشدة القبول بفكرة أن مصالح الدول الكبرى التي تمولهم تجبرهم على تنفيذ جداول الأعمال السياسية لتلك القوى. وإذا كانت المنظمات غير الحكومية قد حاولت أن تتصرف بحيادية فإنها لم تفعل ذلك بروح قوة الحماية الدولية التي تتظاهر بأنه من الممكن وحتى من المفضل المحافظة على «توازن» بين القتلة وضحاياهم، وعند الاستطاعة تعزيز العلاقات معهم. فلم يتفاخر روني برومان، أحد مؤسسي المنظمة الفرنسية غير الحكومية MSF «أطباء بلا حدود» بأنه كون علاقة شخصية طيبة مع رادوفان كارادزيتش، كما لم يفعل ذلك برنارد كوشنر، وزير الشؤون الإنسانية السابق في عهد فرانسوا ميتران والذي برغم اشتراكهما في تأسيس MSF معاً، لم يكن على وفاق معه.

فبالنسبة لهم، ولمعظم الناس في المنظمات الأخرى غير الحكومية العاملة في البوسنة، كان الالتزام بالمساعدة والتزام العدالة في لب الأمور وليس التظاهر بحيادية كان أساسها موجوداً في لعبة السياسة وخيال البيروقراطيين فقط. وعلى أدنى تقدير، يمكن القول إنه بالتمسك بتلك المبادىء (حتى، في وضع كوشنر، المطالب بالتدخل العسكري على أسس إنسانية ومن أجل وقف التطهير العرقي) لم تحقق تلك المنظمات أقل مما كانوا سيحققون لو أنهم اختاروا طريق الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة.

ومهما تسبب أسلوبهم في تكرار دخولهم في صراع مع قوة الحماية وسكرتارية الأمم المتحدة، فقد خرجت تلك الجماعات من محنة البوسنة دون أن تصبح شريكة غافلة في الإبادة الجماعية.

أما عن مسؤولي قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة والذين كان كثير منهم يكنون احتراماً كبيراً بصفة شخصية لما أنجزته المنظمات غير الحكومية في كرواتيا والبوسنة،

فعادة ما كانوا يلصقون أساليبهم المختلفة بمتطلبات تفويض كل منهم . قال لي موظف في الشؤون المدنية في زغرب «لدى مسؤولي هذه المنظمات حرية قول أشياء لا نستطيع نحن أن نقولها ونحن سعداء بالتعاون معهم حيثما نستطيع ليس للعمل الطيب الذي يقوم به معظمهم ولكن لأن شخصاً ما هنا عليه أن يقول تلك الأشياء . أما إذا قالتها قوة الحماية فستنتهي مهمتنا هنا ، وبسرعة كما أتصور. جميل وجميل جداً أنت تتحدث عن وقوفك في المواجهة ولكن تصور أن ذلك هو الخط الذي التزمناه وأن النتيجة ستكون طردنا فهل سيحسن ذلك من الوضع في البوسنة؟ الحقيقة أنكم أيها الصحفيون ستكونون أول من يصرخ فينا للعودة»، واستطرد قائلاً: «لم نقصر في تطبيق التفويض رغم أنني على علم أكيد بالاختلاف بين التفويض والحل. أنتم الصحفيون تدأبون على مطالبتنا بأن نبدي صلابة أشد وكذلك يفعل كثير من رجال تلك المنظمات. ولكننا نقف بالفعل على أعتاب المخاطرة. وأخذ طريق بالقوة بينما نقوم بتوفير المساعدة الإنسانية يظل دائماً الأسلوب الخاطىء. فازدواجهما أمر قاصر» . وتوقف ثم قال: «انظر، أياً كان تصورك، فلدى بعض منا أقوى الشكوك الأخلاقية فيما يفعله هنا وما إذا كان علينا في الواقع أن نبقى. ولكن رجاء لا تلق بالمسؤولية على الأمم المتحدة. ولا تستمر كما يفعل معظم الصحفيين للأسف في قصر اللوم علينا . فنحن منظمة ملتزمة بالسلام. وهذا هو دورنا كما أن للمنظمات غير الحكومية دورها ولكم في الصحافة دوركم» .

كانت كلماته تمثل توتراً معيناً في تفكير الأمم المتحدة، شديد الرفض ولكنه مصدوم نوعاً من الموقف الناقد في عنف تجاه عملية قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة . وكما قال مسؤول رفيع في الأمم المتحدة في رسالة غير موقعة لمجلة الشؤون الأجنبية (Foreign Affairs) من أن تصميم الصحافة على إثارة التدخل لصالح حكومة البوسنة «يغري ببعض الالتزام الشخصي ــ الجهادي في الواقع ـ الذي لا يتفق مع الإبقاء على المعايير المهنية الحقيقية» . إن من الأمور المثيرة للجدل ما إذا كان من حق مسؤول في الأمم المتحدة، وهي منظمةلديها في الأصل كل الشفافية والانفتاح أمام تحقيقات الصحافة شأن الفاتيكان أو الجيش الأحمر السابق، أن يتكلم في تعال عن الواجب والتقصير في الواجب من الصحافة. كذلك كان أكثر تشويقاً افتراض الكاتب أنه لم يكن للأمم المتحدة دور فيما أسماه «تفكيك بالقوة لمجتمع متعدد إلى

دويلات عرقيـة أحادية» وهو عمل اعتبره في آخر للـرسالة «معاد للقيم الـديمقراطية المتفق عليها». لكن ما كـانت الصحافة غاضبـة بشأنه لم يكن فشل الأمم المتحدة في مساندة القيـم الديمقراطية، بل فشلهـا في معارضة الإبادة الجماعية. وقـد فهم ممثلو قوة الحماية وسكرتـارية الأمم المتحدة ذلك تماماً ولكنهم نادراً ما كانـوا يرغبون في قول ذلك بصراحة . وللغرابة، فقد كان الاستثناء من ذلك هو سيدريك ثورنبيري الذي كان رئيساً للشؤون المدنية لقوة الحماية في يوغسلافيا السابقة عامي ١٩٩٢ و ١٩٩٣. ففي خطاب ألقاه في ستوكهولم قال: «لقد اتهمنا بصفة أساسية بعدم الالتزام في وجه نوع جـديد من الهولوكـوست. . . وإذا كانت الأمم المتحـدة متواجدة عنـدما تحدث بعض الأهـوال، فيمكن إلقـاء اللـوم علينا». ورغم إصرار ثـورنبيري على أن المهمـة كـانت ناجحـة وفق شروطها، فعلى الأقل سلـم بأنهم يستحقون اللـوم بمعنى ما لـه أهميتـه، حيث قال: «إن وسـائل الإعلام، وهي تـرانا رمـزاً للمجتمع الدولي، تلـوم شعوب وحكـومات العالم لما تراه على أنـه إخفاقها في التعـامل باهتمام أكبر مع وضع صدم أوربا وأذهلهافي نهاية القرن العشرين».

كان ذلك صحيحاً على قدر ما وصلت إليـه الأحداث. فقد كانت الأمم المتحدة تعطي المجتمع الدولي ورقـة التوت التي تستر عدم قدرة بعض دولـه، مثل الولايات المتحدة، على شحـذ الإرادة للعمل وفشل البعض الآخر، مثل بـريطانيا وفـرنسا، في أن تكـون صريحة مع شعوبها حـول قرارهـا بـالسماح للقاتل في البـوسنة بـالتمادي في أفعاله. ولكن المحير في موقف المسؤولين داخل قـوة الحماية وسكرتارية الأمم المتحدة هـو قـدرتهم على تصـديق أنهم يستطيعـون، بعد أن قـدمـوا أنفسهم ستـاراً للقـوى العظمى، أن يظلوا خارج دائرة الشك والـريبة أخلاقياً عما فعلـوا. ففي نفس حديثه أوضح ثـورنبيري نهج الأمم المتحدة المعتـاد في أن «أياً من كـانوا المجـرمين الأساسيين فالآن ليست هناك أطراف بـريئة في سراييفو أو البوسنة وما يلـزم أن نحفظه في عقولنا هو أن الوحشية تحط من قدر جميع المتأثرين بها».

ولكن يبـدو أن الهيئة العليـا في قـوة الحماية أو في قسـم عمليات حفظ السـلام لم تنزعج من أن ذلك الموضـوع عن الفظائع التي ارتكبها الطرف البـوسني (أو ما أسماه الجنرال موريون «الطرف المسلم») والذي بكل إصرار، يمكن أن ينطبق عليهم لذلك. فلم يكن الأمـر ببساطـة، كما تصور أغلبهم، أن الصحافـة تتهمهم ظلماً بديـلاً عن

القوى الكبرى في الجرائم التي يجب أن تلقى على أعتابهم أو أنها كانت تدعو للتدخل عن غير وعي بحيث لاتدرك إنجازات قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة. بل إن ما ظل يصدم الكثيرين في الصحافة هو عجز الأمم المتحدة عن رؤية مدى خطئها أخلاقياً من دوام اختيار التوسط بين القتلة والمغتصبين وبين أولئك الذين عانوا على أيديهم ليس في البداية فقط بل بعد وقت طويل من معرفة الجميع أن القتلة والمغتصبين خططوا للاستمرار في القتل والاغتصاب برغم كل الوعود التي قطعوها على أنفسهم. ومثلما اعتقد سيدريك ثورنبيري، بحق وليس عن خطأ، من أن كثيرين في الطرف البوسني امتهنوا في القتال، فإن كثيراً منا ممن غطوا المذبحة سرعان ما استنتجوا أن الأمم المتحدة امتهنت بما يتطلبه التفويض فيما يتعلق بما تفعله وما لا تفعله.

وأعتقد أنه بسبب حضور كثير من أهل الصحافة إلى البلقان ولديهم توقير للأمم المتحدة كمؤسسة وكنموذج أكثر مما كان لدى المؤسسة نفسها، تعاظم غضبنا وامتعاضنا من كيفية إدارتها لعملياتها. وكما قال لي مسؤول رفيع في الأمم المتحدة فإن ذلك كان بالفعل حالة من الافتتان «من بعيد». ولكن سواء أراد مسؤولو الأمم المتحدة أم لا، فقد كانوا يمثلون مؤسسة تصور كثير منا أنها أداة لإرادة مجلس الأمن أو محصلة ممارسات مؤسساته وأنماطه البيروقراطية. وقد لا تكون الأمم المتحدة حكومة العالم بعد ولكن كان يفترض على الأقل في وضع متطرف كالإبادة الجماعية، أن تعمل باسم الإنسانية، وكذلك باسم حماية المصالح الاستراتيجية لدولها الأعضاء. فلو كانت قوة الحماية و إدارة عمليات حفظ السلام قد اختارت تفسير التفويض لها بهذه النظرة الضيقة، فمن المؤكد أن لذلك صلة بتخلي بطرس بطرس غالي عن التزامه بالدفاع عن المبادىء الأخلاقية التي يفترض أن تمثلها الأمم المتحدة تماماً كما تلتزم بها كان الأعضاء الدائمون الخمسة يرغبون أو لا يرغبون في تخويل قوة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة القيام به.

إن الغضب من الأمم المتحدة الذي أثاره هذا التخاذل الأخلاقي لدى عدد كبير من الصحفيين على الأقل ــ وليس بشكل طبيعي كما تصور مسؤولو الأمم المتحدة غالباً ــ كان في الواقع وضعاً غير مريح بالنسبة لهم من الناحية المهنية. وبالنسبة لي شخصياً، فإنني أعرف أنني وصلت إلى البوسنةوقد قاومت دائماً مطالبات بأن أكون

صاحب موقف ساخط من قضية أو أخرى. فقد كنت أعتقد أن السخط عدو للفهم ـ لو استخدمنا كلمة محببة كثيراً لدى مسؤولي الأمم المتحدة في نيويورك ـ حيث إنه في نهاية الأمر تكون المعلومات ناتجة عن قراءة عاطفية ومبتسرة للأحداث. ولست أدري ما رأيي الآن، وبالطبع، هناك معنى يمكن أن يفهم في ضوئه التاريخ كله، وليس فقط تاريخ البلقان، على أنه تاريخ للمذابح. ولكن في البوسنة لم يكن ضروريا ان يستمر القتل إلى ما لانهاية. فقد كان في إمكان القوى الكبرى ان توقفه. وكان جميع الاعضاء الرئيسيين في سكرتارية الامم المتحدة وبخاصة السكرتير العام نفسه، يستطيعون القيام بحملة لوضع حد له بدلاً من عمل كل ما في استطاعتهم لتسهيل عدم التدخل.

كان الصحفيون الذين سافرت معهم الى البوسنة على جملتهم اكثر مني شكا. فبالنسبة لمعظهم لم يكن ذلك اول تعرض لهم على احوال حرب داخلية. ومع ذلك فسرعان ما أصبحوا وظلوا، رجالا ونساء، ساخطين على ما شاهدوه في البوسنة وعلى دور الامم المتحدة فيها. ولو انهم «اصبحوا مواطنين»، كما اعتاد مسئولو الامم المتحدة وبعض زملائهم هناك في امريكا ان يتندروا، لما استشعروا الندم. وقد كتب جون سويني مراسل الاوبزيرفر اللندنية حول ذلك يقول: «بالنسبة لكثير من الصحفيين كانت اللحظة الحاسمة عندما اخبر متحدث للامم المتحدة مؤتمرا صحفيا انه قد تمّ الاتفاق على وقف لاطلاق النار واراد ان يشكر الصرب على تعاونهم وفي اللحظة التالية انبطح الجميع على الارض بفعل ضربات المدفعية الصربية».

أن مثل تلك القصص اسوء من ان تعرف فقد كانت شيئا مألوفا. كانت تمر اوقات يبدو فيها وكأن شعار قوة الحماية التابعة للامم المتحدة ينبغي ان يقرأ على النحو التالي: «العمل من اجل استسلام البوسنيين». فبعد كل شيء، ألم يكن الاستسلام من جانب حكومة البوسنة هو أضمن طريق الى السلام؟ هكذا اعتقدت الامم المتحدة مهما لبست مسوح الانسانية. على أن المظهر العام لما بدا أنه محاولة منظمة من جانب قوة الحماية والممثل الخاص للأمم المتحدة للتقليل من حجم جرائم الصرب (سواء بالتغطية على المدى الكامل لما كان يفعله الصرب أو ببذل الجهد لتوضيح أن جميع الأطراف تتصرف بشكل إجرامي) يصبح أكثر تهذيبا بالتبرير المبطن بأن كل مايتم علمه هومن أجل إعطاء فرص أكثر للسلام وأنه يتم بتكليف من القوى

العظمى . وقد ظلت الأمم المتحدة تقول أن الموقف لم يكن من صنعها ، وكأن ذلك كان تبريرا أو كأن الجرائم الكبيرة ليس فيها أبد سوى شركاء واعين .

من وقت لآخر، يعترف مسئول في الأمم المتحدة ، بشرط عدم النشر بالطبع ، بالشعور بقدر معين من عدم الارتياح للدور التي «أجبرت» قوة الحماية التابعة للأمم التحدة على أن تلعبه في البوسنة ولكنه عند ذلك عادة مايضيف أو تضيف أن الأمم المتحدةلم تكن تستطيع أن تفعل ماتفعله الصحافة ولم تكن تستطيع ان تفعل ما تفعله المنظمات غير الحكومية . وقد يبدو ذلك مقنعا إلى أن نتذكر أنه كان هناك في الواقع منظمة اخرى تابعة للأمم المتحدة في البوسنة أثبتتا وجود طرق أخرى لتفسير التفويض . فقد عمل مفوض الأمم المتحدة للاجئين على أساس أخلاقي مخالف لقوة الحماية والممثل الخاص للأمم المتحدة . فمع استثناءات قليلة ، رفض مسئولو المفوضية القبول بفكرة أن هناك أمورا قليلة يمكنهم عملها عندما يكون كل شيء آخر خارج حدود قدرتهم . ولم تتخفى اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة خلف نصوص تشريعية في التفويض ولاهي إدعت ، كما فعلت إدارة عمليات حفظ السلام ومسئولو قوة الحماية التابعين للأمم المتحدة ، بأنها بسبب عدم تعرضها مسبقا لموقف مثل البوسنة فقد كان فشلها هناك خطأ من المجتمع الدولي .

بل على العكس ، فإن مسؤولي اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة ، دوليين وحليين على السواء ، حاربوا وارتجلوا ، وفي موقف مستحيل لم تكن له سابقة ، ومرة بعد اخرى انتزعوا ما يشبه المعجزة . وحسب قواعد الأمم المتحدة المقررة فإن معظم الأماكن التي عملت فيها اللجنة العليا للإغاثة بشكل روتيني في البوسنة كانت من الخطورة بحيث يصعب العمل فيها . ومع ذلك فقد بقيت اللجنة على أي حال . وسواء مع او بدون مرافقة عسكرية ، كان سائقوا قوافلهم يندفعون بالمساعدات متجاوزين لمجرمين همج عند نقاط التفتيش ، وغالبا تحت وابل النيران . وعلى عكس العربات لدى قوة الحماية فإن معظم عربات اللجنة العليا للإغاثة كانت غير مصفحة . والأمثلة على الشجاعة الشخصية للهيئة الدولية كانت من الكثرة بحيث بدأ أفراد اللجنة العليا انفسهم يعتبرونها أمرا مسلما به . فقد أصبح شيئا عادياً أن يقوم مارك فاشون ، وهو ضابط شاب للإمدادات الفرنسية الكندية في مطار سراييفو في خريف ١٩٩٢ وشتاء ١٩٩٣ ، بقيادة شاحنة وقود خفيفة الهيكل عبر

خطوط الحصار في وقت كان أفراد قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لا يغامرون مطلقاً بـالخروج الا في عربـات مصفحـة. وكـان كل ما قـالـه «إن هذه الحرب تـرفع نسبـة الادرينالين في دمك». وإذا قاد ضباط «حماية» لجنـة الإغاثة، كما كان يطلق عليهم، مثل بير أولبير وفيليبـوس بافيليبـو في بـانيا لـوكـا السيارة وحـدهم غير مسلحين إلى بـريبودور ليطلبـوا من العمدة هنـاك فعل شيء لـوقف التطهير العرقي -وهي رحلـة عـرضتهم للقتل مـرات كثيرة- فإن ذلك يعتبر جـزءاً من عملهم. وقـد أصر رئيس اللجنة العليا للإغاثة في الأمم المتحدة في يوغسلافيـا السابقة خوزيه ماريا مانديلوس ذات مرة في نبرة عاطفية: «اذا كـانوا يريدون بيع الأحذية لكـان عليهم في هذه الحالة أن يظلـوا في ريـو او نيـويـورك أو باريس». وكـان هـذا هـو نفس إعتقـاد مـرءوس مانديلوس.

لم يكن في تـاريخ اللجنة العليـا لـلإغاثـة التـابعة لـلأمم المتحـدة مايـوحي بأنها ستتصرف بشكل خاص في يوغسلافيا السابقة بتلك الطريقة غير العادية التي عملت بها. لقد أنشئت اللجنة عام ١٩٥١ خلفا للجنة العليا للاجئين التابعة لعصبة الامم والمنظمة الدولية للاجئين الناشئة التابعة للأمم المتحدة IRO. وكان «التفويض» لها أن تقدم الحمايـة الدولية لـلاجئين وللأشخاص الـذين شردوا داخل دولتهم أو الذين هربـوا عبر حدود دولتهم. وبالإضـافة إلى حماية الـلاجئين أينما كانوا كـرست اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة جهودها لإعادة توطينهم، وإذا أمكن، يعيدونهم إلى وطنهم بعد أن تخف الأزمة التي تسببت في هروبهم في المقام الأول. وكل عام كانت مهمة اللجنة العليـا للإغاثة تـزداد صعوبة مع تضخم أعداد الـلاجئين وبعد تقلص رغبـة دول أخرى في قبـولهم. ففي عـام ١٩٧٠ كان يقـدر عـددهم بحوالي مليـونين ونصف لاجيء في العـالم. وفي عام ١٩٨٠ أصبح أحـد عشر مليونـاً ثم صار تسعـة عشر مليونا عام ١٩٩٣.

كانت تلك الأعداد تشمل فقط أولئك الذين عبروا حـدوداً سياسية بسبب تهديد سياسي واضح، أمـا الرقم الخاص بمن يسمون «المشردين داخلياً»-أشخـاص تعتقد اللجنة العليا لـلإغاثة بحاجتهم لنفس الحماية والمساعـدة التي تقدم للاجئين، ولكن أملهم ضعيف في الـوصـول إلى دولـة أخـرى حيث يجدون مأوى- فيصل إلى اربعـة وعشرين مليـونـا. ولا يتضمن ذلك مـا يقـدر بمائة مليـون من الأشخـاص الـذين

يتحركون بإستمرار بحثاً عن مستقبل مريح لهم ولأسرهم والذين عادة ما يصنفون على أنهم «مهاجرون اقتصاديا». وكما قالت المفوضة العيا للاجئين، ساداكو أوجاتا، في تقريرها عام ١٩٩٣: «في عالم يظل فيه الإضطهاد وانتهاك حقوق الإنسان بالجملة والصراع المسلح هو الخبز اليومي فإن مأساة اللاجئين تتزايد عن أي وقت مضى»، ثم تضيف «إن الحجم الحالي وطبييعة مشكلة اللاجئين ومحدودية القدرة الأستيعابية للدول المضيفة يعني أن طرق الحماية التقليدية لم تعد كافية ويجب إستكمالها بأساليب مرنة تتناسب مع فترة الإنتقال الحالية والجيشان الحاصل في الشئون العالمية».

وبالرغم من أن اوجاتا لم توضح ذلك في تقريرها فقد كانت قبل كل شيء خبرة اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة هي التي جعلتها تدرك كيف أن الطرق القديمة التي ذكرت في كتيب عمليات اللجنة العليا للأغاثة والمسمى «الكتاب الأزرق» أصبحت غير صالحة. وقد سمعت أوجاتا تعلق مراراً أنها ليست في الواقع المفوضة العليا للاجئين بل موظفة على مكتب في يوغسلافيا السابقة. وقلقها مفهوم فحتى عام ١٩٩٣، كانت عمليات اللجنة العليا للأغاثة التابعة للأمم المتحدة في البلقان تستهلك ما يقرب من نصف ميزانيتها السنوية وتستخدم عدداً ضخماً من هيئة موظفيها الدولية المدربة. فكان يتم إحضار الأشخاص من معسكرات اللاجئين في شرق آسيا وجهود إعادة التوطين في مالاوي والعمل مع الباحثين عن ملاجىء لهم في أوروبا الغربية وذلك للعمل في البوسنة وكرواتيا وصربيا. كانت النكتة الشائعة في مقر رئاسة اللجنة العليا للإغاثة في جنيف أن الأشخاص العائدين من يوغسلافيا يكاد يهاجمهم زملاؤهم في الأماكن الأخرى مغتاظين من الطريقة التي تلتهم بها هذه العملية في يوغوسلافيا السابقة مصادر المنظمة في الوقت الذي يتعرضون فيه باستمرار لوابل النيران في البوسنة. لقد بدأت اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة تعاني مع اتساع نشاطها من ضيق مالي شديد قبل أن تبدأ أزمة يوغسلافيا. وكما أثبتت أزمة لاجئين أخرى على طول حدود رواندا مع تنزانيا وزائير في ربيع وصيف ١٩٩٤ - حيث تم وفي يوم واحد اجلاء ١٥٠ ألف شخص جوا وفي اسابيع قليلة عدة ملايين وهو اكبر عدد يهرب في مثل هذه المدة القصيرة- فقد بدا أن اللجنة العليا لا تستطيع أن تركز كل اهتمامها وأفضل رجالها على البلقان.

ومع ذلك كانت مهمة اللجنة العليا للإغاثـة في يوغسلافيا السابقة، بمعنى ما، مكافأة كان قادة المنظمة ممتنين للإستغناء عنها، وذلك لنجاحهم في عمليتها الحديثة الشهيرة والمتمثلة جهود الإغاثة في كردستان في أعقاب حرب الخليج. وكما لجأ مجلس الأمن لقـوة حفظ السـلام في كل من الصـومـال والبوسنـة جـزئيـا على الأقل بسبب التقديـر المغالى فيـه بعد الحرب البـاردة لما يمكن ان تقوم بـه فعليا تلك القـوات فقد ختارت سكرتاريـة الأمم المتحدة اللجنة العليا للإغاثة لكي تكون الـوكالة القائدة في يـوغسلافيـا السابقـة بسبب مـا استطاعت عملـه في كـردستان. وكـانت التعليمات الموجهـة للجنة العليـا لـلإغاثـة في البلقـان عمـومية وغير دقيقـة. وإلى أن تم تعيين ياسوشي أكاشي ممثلاً خاصا للسكـرتير العام، كان الممثل الخاص لساداكو أوجاتا في زغرب هـو أعلى مسئولي الأمم المتحدة في المنطقة -رغـم أن رئاسة قوة الحماية التـابعة للأمم المتحدة في المدينة لم تر الأمر بنفس الطريقة. إن مجرد إتخاذ مثل هذا القرار -أي أن تكلف وكالـة إنسانية محنكـة في التعامل مع إحتياجات الـلاجئين بمهمة الوكـالة القائدة لـرد فعل الأمم المتحـدة إزاء أول حرب في أوروبـا في نصف قرن- كـان إشارة مبكرة إلى تقاعس الأمم المتحدة عن مواجهة ما كان يحدث حقيقة في البوسنة. إن ما كـان يحدث هو في الأسـاس حرب، عمليـة إبادة جماعيـة وليست كارثـة إنسانيـة في أساسها. ومع ذلك فكما قـال أحد مسئولي منظمة غير حكوميـة: «لفترة طويلة ظل العـالم يثرثـر ويثرثـر ولكن الحقيقة هي انـه رغم الدواعي العمليـة فإن اللجنة العليـا للإغاثـة التابعة للأمم المتحدة كـانت المؤسسة الدولية الـوحيدة التي تفعل شيئا على أرض الواقع لوضع جميع المشاعر الطيبة في حيز التنفيذ. فقد بذلوا أقصى الجهد وإنها لمأساة أن تكون جهودهم هي كل ما يستطيع أن يحشده العالم. فالطريق لوقف الإبادة الجماعية ليس بأن تقيم مستشفى ميدانياً لأولئك المحظوظين بالنجاة منها».

وبالـرغم من مهارتهم وتفـانيهم في التعامل مع آثـار الحرب، فإن معظم مسئولي اللجنـة العليا لـلأغاثـة الـذين أرسلوا إلى البـوسنة كـانـوا يعرفـون القليل عن الحرب نفسها. ولم يكن ذلك ببساطـة لأن كثيرين منهم قضوا حياتهم المهنية يـرتبون طلبات اللجوء للاجئين في أوروبا أو يديرون معسكـرات للاجئين في أفريقيا وشرق آسيا. بل لأنه لم يكن لدى أي شخص في اللجنة العليا لـلإغاثة أي خبرة في توفير المساعدات أثناء الحرب. ومع ذلك فقد كـان ذلك بالضبط ما تم حشدهم مـن اجل القيام به-

في كرواتيا أولاً، ثم في البوسنة. وكما ذكر فريد كاني، الذي أتي إلى البوسنة ولديه خبرة في توفير المساعدات الإنسانية وقت الحرب ربما فاقت خبرات ذوي المناصب في اللجنة العليا للإغاثة مجتمعين: «كانت جميع وكالات الأمم المتحدة تفتقر إلى كل من المبدأ العملياتي والخبرة العملياتية التي تسمح لهم بالخروج بخطة متكاملة في البوسنة. فلم تكن هناك مطلقاً خطة متكاملة في جنيف أو نيويورك كمفهوم لما كانوا يريرون تحقيقه. ونتيجة لذلك، فإن وكالة الإغاثة التابعة للأمم المتحدة كانت تعمل كرد فعل للأحداث وليس لمحاولة تشكيلها».

بعد قليل من بدء العمل في يوغسلافيا السابقة ادرك كبار مسئولي اللجنة العليا للاغاثة المعنيين أنه رغم إمكان ضم كل من كردستان والبوسنة لتمثل «جيلاثانيا» للجهود الإنسانية، فلم يكن هناك عامل مشترك في الواقع بين العمليتين. فقد تم نشر اللجنة العليا للأغاثة في كردستان في نهاية حرب الخليج بعد أن هرب نصف مليون تقريباً من الأكراد من جيش صدام حسين. وأعلنت الأمم المتحدة منطقة عسكرية محظورة شمال خط ٣٨ وتعهدت بتطبيق ذلك عسكريا وأنيطت مهمة التعامل مع الأكراد داخل المنطقة بلجنة عليا للإغاثة متكاسلة من الأساس. وفي أول الأمر، ورغم حقيقة أن الاكراد كانوا يموتون بالمئات على طول التلال فإن مسئول اللجنة العليا للإغاثة في كردستان، وهو أسترالي يدعو نيكولاس موريس، كان يناضل للتأكيد على أن مساعدة المطرودين في منطقة حرب ليسوا مشمولين في تفويض اللجنة العليا للإغاثة. ولكن تحت ضغط شديد من الأمريكيين، تولت اللجنة العليا للإغاثة مهمة توفير الإغاثة الإنسانية، ولدهشة الكثيرين، وفي المنظمة نفسها، كانت المجهودات ناجحة إلى حد كبير.

إن تجربة إمكان توفير المساعدات وسط الحرب ربما أوحت بامكان القيام بعملية مشابهة بها في البوسنة. وعلى أي حال، فإن جعل اللجنة العليا للاغاثة الوكالة القائدة كان تقريبا السبيل الوحيد المتاح أمام سكرتارية الأمم المتحدة والاعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن، عندما اصبح واضحا أن مجلس الأمن لن يسمح بتدخل عسكري كما حدث في العراق. كان الشعور، أو على الاقل الأمل، أن تمكن تجربة كردستان اللجنة العليا للإغاثة من القيام بالمجهود الانساني الرئيسي المطلوب في يوغسلافيا السابقة. وفوق كل ذلك، كان يجب أن يظهر وكأن القوى الكبرى تعمل

شيئا. فإذا كان كل المقصود، موضوعيا، هو محاولة تخفيف آثار المذبحة التي كانوا غير قادرين على حشد الإرادة السياسية لوقفها، فلم يكن ذلك مزعجا لقادة دول حلف الناتو. وفي داخل السكرتارية كانت النظرة أكثر إتزانا. وكان خيار اللجنة العليا للإغاثة أقل لأن مسئولي الأمم المتحدة إعتقدوا أن هناك فرصة كبيرة لنجاحها أكثر مما كان بسبب الشعور بأنها المنظمة الوحيدة التي تواجه حتى ولو فرصة ضئيلة للنجاح.

ووفي الحقيقة، كانت اللجنة العليا للإغاثة أقل استعدادا للمهمة مما تصور أحد. وعندما أدرك جوزيه ماريا منديلوس، الدبلوماسي الأسباني الذي خدم لسنوات في امريكا الوسطى ثم إصبح القيادي الثاني في اللجنة العليا للاغاثة التابعة للأمم المتحدة في كردستان قبل أن يأتي إلى يوغسلافيا السابقة، حقيقة ما يحدث في البوسنة عندما جاء ممثلا خاصا للمفوضة العليا أوجاتا، فقد فهم على الفور ان الدروس التي أخذتها اللجنة العليا للإغاثة في الشرق الأوسط لن تنفع في البلقان. وقال لرجاله في تلك «الخلطة» من الفرح والاكتئاب التي غالبا ما تحركه «مهما فعلنا فسنضطر إلى أن نلقى بالكتاب الأزرق جانبا». وكانت تلك عبارة قال معاونوه أنه يحب تكرارها لمعظم الضباط الميدانيين الجدد في اللجنة العليا للاغاثة بمجرد اللقاء معهم. وأصر منديلوس على تأكيد أنه لن يضطر الناس إلى تنحية جنيف من عقولهم فحسب بل إن عليهم أن ينحوا كردستان عنها كذلك. ففي يوغسلافيا السابقة عليهم أن يبتكروا أشياء خلال عملهم. ولم يكن ذلك بالأمر السهل. وكان منديلوس يحب أن يقول «كانت كردستان صعبة ولكن كردستان مجرد حفلة شاي إذا ما قورنت بما نواجهه هنا».

جاء أول تعرض لمنديلوس لحقائق التطهير العرقي. بمحض الصدفة. ففي أوائل ربيع ١٩٩٢ كان عائدا بالسيارة من مكتبه في سراييفو (فمثلما كانت تفعل قوة الحماية، أدارت اللجنة العليا للاغاثة عملياتها أثناء الحرب الصرب كرواتية من العاصمة البوسنية المفترض حيادها) بعد اجتماع في بلجراد. وبالمصادفة وصل إلى مدينة زفورنيك على جانب البوسني لنهر درينا، في نفس اللحظة التي كانت تجتاحها وحدة صربية غير نظامية معروفة بالنسور البيضاء.

استعاد المنظر في رعدة: «رأيت أطفالا تحت جنازير الدبابات وضعهم تحتها رجال بالغون ثم تدوس عليهم بواسطة رجال آخرين. وفي كل مكان كان الناس يطلقون أسلحتهم وكان المحاربون يتحركون في أنحاء المدينة يقتلون بأسلوب مدروس كل المسلمين الذين تقع عليهم أيديهم. بالتأكيد كان وراء ذلك نوع من الشحن المسموم. فقد كان الإعلام الصربي يصدر التقارير عن المسلمين الذين يقومون بطرد الصرب من زفورنيك وعن الأعمال الوحشية التي ارتكبت هناك.

ورغم أن هذا قد يكون صحيحاً في بعض الأحيان، فعادة ما يكون هؤلاء الصرب مدفعوين إلى عمل ذلك من قادتهم المحليين.

وعلى أي حال فإن الصرب الذين قاموا بالتقتيل في ذلك اليوم لم يأتوا من زفورنيك. فهذه الأزمة لم تبدأ كحرب بين الصرب والمسلمين بل كانت حرباً بين قوميين متعصبين. كانت لهؤلاء الناس استراتيجية محكمة والهدف كله إيقاع أكبر قدر ممكن من الرعب بين السكان المدنيين وتدمير قدر ما يستطيعونه من الأملاك وتركيز أكبر قدر من العنف يمكن إيقاعه بالنساء والأطفال. وبعد أن قام أفراد الميليشيا بعملهم تصل السلطات القائمة ـ الجيش الوطني اليوغسلافي أو قوات كارادزيتش أو الشرطة المحلية، لإعادة النظام ظاهرياً. ولكن بالطبع كان ذلك يعني نجاح التطهير العرقي في ذلك المكان المحدد وبالتالي يمكن للنسور البيضاء أن تبتعد».

ويقول منديلوس إنه قام، في ذلك اليوم، بنقل أكبر عدد من المسلمين الأحياء من زفورنيك معلناً للقادة الصرب المحليين أنه يضع السكان تحت حماية اللجنة العليا للإغاثة. وباسترجاع الأحداث فإن ما بدا بطولة متهورة كان له ثمنه. فالبرغم من أن منديلوس فعل المعجزات وأنقذ مئات الأرواح بإجلاء المسلمين عن البلدة ورتب أمر نقلهم إلى توزلا، فقد كان وهو يتصرف بأنبل الدوافع يعطي الضمانات بأن زفونيك صارت فصاعداً مدينة صربية ـ وهو الغرض السياسي لهجوم النسور البيضاء في المقام الأول ـ وقد اعترف منديلوس نفسه بذلك حين قال لي: «ليست لدينا الآلية للتعامل مع التطهير العرقي. إننا نستطيع أن نعالج أعراض المرض سواء بتحسين الأوضاع الأمنية في المناطق التي لم يحدث فيها التطهير العرقي بعد، أو ببذل أقصى جهدنا لتنبيه المجتمع الدولي لعمق الأزمة أو بمحاولة ترتيب توزيع الطعام من خلال قوافل

الإغـاثة وإعـادة الإمداد الجوي للمنـاطق المحـاصرة. ولكن يبدو وكأننـا لا نستطيع إجبـار الأطــراف على وقف الحرب أو أن نتـدخل عسكـريــاً لمنع استمـرار التطهير العرقي.

إنـه موقف رهيب. ومنـذ البـداية أحب النـاس تبسيط المشكلـة بالكـلام. فهم يتكلمـون عن لبننـة البلقـان الآن تكلموا من سنـوات قليلـة عن بلقنـة لبنـان. لكن الحقيقـة هي أنه في هـذه اللحظة لم يهزم أي من الأطـراف بمن فيهم البوسنيـون، ولا توجد إرادة قوية ولم يتحقق أي نجاح ورغم كل جهـود فانس وأوين فلا يوجد ضغط دولي حقيقي». قـال منديلـوس ذلك كلـه في خريف ١٩٩٢، عنـدمـا كان لايـزال متفائلاً نسبياً. وعنـدما غادر، بعد أكثـر من عام لاحقاً، وهو كسير الفـؤاد حول ما حدث وبعـدما انهارت صحتـه، كان الـوضع أسوأ بكثير. ولكن التحليـل الأساسي الذي توصل إليه في تلك اللحظة ينطبق على عام ١٩٩٤ مثلما انطبق على عام ١٩٩٢ فقط مع استبدال زفـورنيك بغوراجده وإضافـة حلف الناتو للمعادلة ومـا عدا ذلك فلم يتغير شيء كثير.

كان منـديلوس قد قال: «أحيـاناً تذكرني الحيـاة في هذا البلد بماكونـدو في كتاب جارسيا مـاركيز «مائة عام من العزلـة». لم يكن الوضع سهلاً في كردستـان أو أمريكا الوسطى، ولم يكن بـأي حال سائغـاً. ولكن هناك أوقـات يكون كل مـا أحلم به أن يرسلـوا بي إلى مكان استوائي حيث الأمـور واضحة، مكـان يكون فيه لاجئـون وبلاد تـرسل وتستقبل، دون تعقيدات أخـرى. إن هذه الأزمـات من الصعوبـة بحيث لا يوجـد حل لها. ولكن أن تحاول خلق مناطق آمنة ومناطق محميـة وسط أتون الحرب، عندمـا تكون الجبهـة في تغيير مستمر ولا يكون الـلاجئون نتـاج الحرب، كما كان في السلفادور، بل هم هدف شنها في المقام الأول ـ فكيف يمكن للجنة العليا للإغاثة أن تقوم بذلك؟ إنهم يقـدمون لنا المزيد من الجنود. وأنا لم أطلب مطلقـاً جندياً واحداً. وفي الوقت نفسـه، لدي خمسين شاحنة لإعادة إمـداد مئات الآلاف من البشر. حتى لو تم تشغيل الشاحنات على مدار الساعة، فكيف يفترض أن أفعل ذلك؟ لقد قمنا بعمل المعجزات من قبل ولكننا بدأنـا نفتقدها الآن والشتاء على الأبواب حيث تصبح كل مشكلة لـدينا بـدءاً من مشكلة إبقـاء الشحانـات على الطريق إلى إطعـام وكسوة اللاجئين أصعب على الحل بكثير».

أدت اللجنة العليا للإغاثة مهمتها بنجاح في الشتاء الأول للمذبحة البوسنية وكذلك في الشتاء الثاني. فلحسن الحظ كان الجو فيهما لطيفاً. وكان في جعبة منديلوس وخلفه، والطريف أنه كان نيكولاس موريس، الرئيس السابق للجنة العليا للإغاثة في كردستان، بعض المعجزات. تم إسكان اللاجئين وأمكن إعادة توطين أقلية محظوظة في الخارج. كما تم إرسال معدات أكثر وأفضل وبخاصة من الدول النوردية ومن إدارة التنمية البريطانية عبر البحار. وبدأ تشغيل الجسر الجوي إلى سراييفو، الذي أداره منديلوس ومساعده الذكي الشاب الأنجلوشيلي فابريز يوهوكتشايلد عندما كان مجرد تفريغ يدوي للأطعمة بالرافعات المعدنية، وغالباً تحت وابل النيران، بدأ يعمل بشكل أكثر كفاءة مما يحلم به أي شخص. وبحلول نهاية عام ١٩٩٣ كان من الواضح أنه في معظم الأماكن في البوسنة يمكن تفادي الكارثة الإنسانية. وما كان يقتل الناس ليس الجوع والمرض كما تنبأ الكثيرون، بل الرصاص والشظايا. وإذا ما كان الحكم عليها حسب المعايير الإنسانية الضيقة، فإن مجهودات الإغاثة التي قدمها المجتمع الدولي كانت ناجحة. وكانت المشكلة تكمن في أنه ليس البوسنيين وحدهم الذين اعتقدوا بفشلها بل أن كثيرين من أفضل الرجال داخل اللجنة العليا للإغاثة اعتقدوا بفشلها كذلك. وكانت مقدرتهم على تبيين ذلك هي التي وضعت رجال اللجنة العليا للإغاثة في خلاف، أخلاقياً، مع زملائهم في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة.

أصبح معظم من قابلوا خوزيه ماريا منديلوس معجبين به من اللقاء الأول غالباً وأنا منهم، ولكن كانت هناك أقلية سليطة اللسان شديدة الانتقاد لما فعله في البوسنة. فقد أصروا على أنه في حين كان منديلوس يتكلم عن أعمال جيدة فإنه مجرد منفذ لقواعد الأمم المتحدة مثل أي مسؤول رفيع آخر. وقد علق مراسل عرفته في سراييفو قائلاً: «نعم، هو رجل عظيم. ولكني كنت سأحترمه أكثر لو أنه، بدلاً من حواديت النميمة عن الجنرال مرويون أو متابعة ثأره من الشؤون المدنية للأمم المتحدة، واجه واقعياً قسم عمليات حفظ السلام وقوة الحماية التابعين للأمم المتحدة. كان منديلوس دائم الحديث عن وشوك ترك التحفظ. فهو دائماً يقول بصفة أساسية بعد آخر إغماضة عين الحماية التابعة للأمم المتحدة: «هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير». أنا أعرف أن اللجنة العليا للإغاثة في وضع رهيب ويعلم

اللـه أنهم ضمير الأمم المتحدة هنـا في البـوسنة . ولكـن طالما أن أفضل رجـال الأمم المتحدة يـرفضون الاحتجـاج على ما تفعلـه المنظمة وطـالما أن فكرة الاستقـالة فعليـاً بسبب أمر في السياسة مستحيلة فعندئذ سيستمر ذلك الإخفاق طو يلاً» .

واستطـرد قـائلاً: «في الأمم المتحـدة، ربما بسبب تعـودهـم على الانتصـار السهل بواسطتنـا فقد أصبحـوا عباد النصر الصغير. يقول رجـال قوة الحمايـة التابعـة للأمم المتحـدة: حسناً، التطهير العـرقي مازال مستمـراً ولكن مطار سرايـيفـو عادة يكـون مفتوحـاً. فماذا نفعل، نغادر؟ الناس أحيـاء بسبب جهودنـا . ومنديلوس يعـرف ما يكفي لأن يدرك أن هـذه الإجابـة غير سليمة . فهو يعـرف أنه خـلال نصف الوقت الذي كانت قوة الحماية تتباهى فيه أنه بفضل جهودها توقف الطرد الجماعي في بعض المنـاطق، فإن السبب أنـه لم يكن هناك بعـد أي مسلمين ليطـردهم الصرب . وأكبر شيء يعرفه هو أي كارثة كـانت تلك العملية على الأمم المتحدة، بقدر ما كانت على البوسنـة . كان يعرفهـا وهو المثقف الأوروبي في مـلابس الأمم المتحدة الزرقـاء . لكنه وجد ملجأه في انتصـاراته الضئيلة : في تمريـر قافلة هنـا أو عقد صفقة هنـاك لإجلاء عدد قليل من الأشخاص من منزل على خط المواجهـة . إنه لا يريد حتى أن يفكر في العـدد القليل من القـوافل التي عبرت أو قلـة مـا استطاع أن يفعلـه لـوقف التطهير العرقي ـ وربما كان على حق . فرجال اللجنة العليا للإغاثة الذين فهموا ذلك حقيقة خمدت أنفاسهم تماماً . ولست ألومهم أيضاً . تصور معرفة ما يعرفونه!» .

ولقـد كـان يستطيـع أن يضيف أنـه حتى على مستـوى العمليـات فقـد كلفت «الانتصارات الضئيلة» اللجنـةالعليا للإغاثة الكثير. من بين النقـد الذي وجه كثيرا لمنديلوس وكبار رجاله أنهم ما لم يـذهبوا شخصياً للتأكد من مرور قافلة محددة فإنها لم تكن لتنجح في ذلك مطلقاً . وفي كل مـرة تقريباً ، كان التفاوض يستمـر لعدة أيام . وفي تلك الأثنـاء، وعنـدمـا يكـون منديلـوس أو مـانـويل دي ألميـدا رئيس وحـدة العلاقـات الخارجية في اللجنـة العليا للإغـاثة على جسر في مكـان ما يحاول أن يحث صرب البـوسنة على السماح بمـرور قـافلة، تكـون هناك عشر قـوافل أخـرى ممنوعـة حسب النظام ـ أو عدم النظـام ـ الذي وضعه مندويلوس . وعنـدما يكون بعيداً عن مقره الـرئيسي في زغرب، فإن برنـامج اللجنة العليا للإغـاثة وموظفي التـوطين الذين كان عملهم من الأهميـة لجهود اللجنة مثـل القوافل على الأقل، كانـوا يعملون على

مسؤوليتهم الشخصية في الأساس. وكما أوضح العاملون في الإغاثة الأكثر حنكة، فإن كثيراً منهم وببساطة كانوا عديمي الخبرة لدرجة أنهم لا يستطيعون العمل في هذا الموقعالخالي من الإشراف.

وقد اعترف حتى أشد المعجبين بمنديلوس بأنه كان إدارياً ضعيفاً ولكن المشكلة كانت أعمق من ذلك. ففي النهاية كان يُطلب من اللجنة العليا للإغاثة أن تقوم بأعمال فوق طاقتها وفي وقت واحد. فقد كان يطلب من منديلوس ويشعر بالالتزام بأن يلعب كلاً من دور الدبلوماسي الدولي ومسؤول اللجنة العليا للإغاثة. كان شخص دونه كفاءة سيستسلم حيث إن المهمة كانت في جوهرها مستحيلة. ولكن يحسب منديلوس أنه لم يستطع أن يحشد العزم البليد لرفاقه في قوة الحماية وقسم عمليات حفظ السلام التابعين للأمم المتحدة لئلا يتخطوا حدود مهمته. وبالتأكيد لم يكن يستحوذ عليه الاهتمام بالحفاظ على «حيادية» اللجنة العليا للإغاثة في وجه الإبادة الجماعية، فحتى عندما تكون المهمة ميؤساً منها، وكان التفويض والذرائع نكتة سخيفة، وحتى إذا كان كل ما قد يتحقق في أية لحظة متاحة هو إخراج حملة حافلة من اللاجئين من بوسانسكاكراپينا أو إدخال قافلة إلى مدينة في وسط البوسنة حيث الناس جياع، مع ذلك كله يستمر منديلوس في المحاولة.

ورغم ذلك فإنني أعتقد أنه غادر يوغسلافيا السابقة وهو مدرك لفشله. فبعد بضعة شهور، لمح كثيراً إلى الموقف في البوسنة في مقالة كتبها لجريدة أسبانية يومية وكانت آخر جملة تقول: «نعم للتدخل». ولكن في ذلك الوقت بالطبع، كان الوقت قد فات على ذلك وما كان يتم دراسته هو شروط تقسيم البوسنة، وليس كيف يتم إنقاذها.

وبالنسبة للجنة العليا للإغاثة نفسها، ورغم أنها ظلت إسمياً الوكالة القائدة في يوغسلافيا السابقة ظل جدول أعمالها لبعض الوقت خاضعاً فعلياً لرغبات قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة. ومن المحتمل أن منديلوس لم يكون مندهشاً. فقبل ذلك بكثير كان قد أخبرني أنه يشعر أن أوروبا «تغرق مرة أخرى في مستنقع قومياتها» وأضاف قائلاً: «لقد صعقنا نحن الذين اعتقدنا في شيء أفضل. فهناك صراع الجات وهذا الصراع وذاك الصراع. أنهم يفضلون أكثر أن يفكروا في أي شيء ما عدا

البوسنة» وقبل منـديلوس بأنه ملام أيضاً. فقد قـال لي: «كنا غير مستعدين للتفكير في البـوسنيين كشعب لـديهم شيء نتعلم منـه. وفي المقـابل أصررنـا على معـاملتهم كضحايا وسكان متلقين للإغاثات فقط».

وقد عارض منديلوس منذ البداية جعل الإغاثة الإنسانية ذات صبغة عسكرية. ومما أثار رعب مساعديه أنه أحب مقارنة بطولة سائقيه المدنيين بالعناد والحذر المتزمت للجنود. ومع ذلك فقبل أن يغـادر منديلوس يـوغسلافيا السابقـة أصبحت عسكرة جهود الإغاثة دستوراً للأمم المتحدة.

ولم أفهم مطلقا ـ وطـالما لم يكن يسمح لمسؤولي السلام باستخـدام السلاح خلال المرور من نقـاط التفتيش لتمريـر المساعـدات ـ لماذا أصبح مجالاً للنقـاش أن يقومـوا بمرافقة القـوافل. . فقد استطاع كثير من القوافل بدون مـرافقة، بما فيها تلك التي أشرفت عليهـا المجموعـة اليهوديـة في سراييفو وآدرا وهي منظمـة إنسانيـة، أن تعبر حتى في أسوأ فترات القتال.

كـان أقـرب تفسير هو أن الأمـم المتحدة أرادت أن تظل متحكمـة، ولإنقـاذ نفسهـا والـدول الأعضاء الأخـرى التي ظلت تـؤكد بـاسمها أنها تعـالج بـذلك الارتباكـات المرتبطة بـذلك النوع من الجهر بما يـدور على أرض الواقع في البـوسنة والذي تـولع به اللجنة العليا للإغـاثة. فقد كانت عادة رجال الاستعلامات العـامة في اللجنة العليا للإغاثة من الإفصاح عما في عقولهم غير مقبولة حيث لم تكن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة تـريد أن تـرى تصريحات مثل تلك التي أطلقها مـرة لويس جنتـايل، رئيس اللجنة العليا للإغاثة في مكتب بانيالوكا في أواخر ١٩٩٣ وأوائل ١٩٩٤، والتي قال فيهـا إن ما سمـح العالم بحـدوثـه في البـوسنة «لا يُغتفـر مطلقـاً» أو مـا قالـه لاري هولنجـوورث في شكواه ضد قصف الصرب لسربـرينتشا والذي يتضاءل معـه «أشد الأمـاكن حـرارة في جهنم». وبـاسـم عمليـة التفـاوض، أرادت قـوة الحمايـة تقليل الخلافـات بين الأمم المتحدة والصرب وليس رؤيتهـا تشتعل بسبب مسؤولي اللجنـة العليا للإغاثة الذين لم يفهموا أنه يجب إخفاء بعض الحقيقة.

ولكن ومنذ البداية، شجع منديلوس رجـاله على فضح الأحوال التي يشاهدونها أياً كـانت النتـائج السياسيـة، وسواء كانـوا يذكـرون تفاصيـل حصار غـوراجده أو

استمـرار التطهير العرقي في بـانيالـوكا، فيمكن الاعتماد على مسـؤولي اللجنة العليـا لـلإغـاثـة في ذكـر الحقيقـة. فـربما كـان ذلك كل مـا يستطيعـون عملـه من أجل البوسنة. ولم يكن ذلك يعني أن لويس جنتـايل كان يستطيع وقف التطهير العرقي في بوسانسكا كراپينا أوأن دكتورة ماكغلوهين من اللجنة العليا للإغاثة كان بإمكانها عمل الكثير من أجل الجرحى. ولكن ذكـر الحقيقـة ليس بـالإنجاز الـذي يصح إهمالـه. وسيسجل التـاريخ لمسؤولي اللجنـة العليا لـلإغـاثة قـولهم الحقيقة بـدون تحريف. وبالطبع يقوم رجال الاستعلامات العامة وأحياناً كبار مسؤوليهم بالتدخل مؤكدين أن تقارير اللجنة العليا للإغاثة كانت مبالغة وأن الدمار في الحقيقة «أو عدد الضحايا أو عدد المشردين أو مدى الحاجة» كان أقل كثيراً من التقارير الأولى. فطالما أن الضحايا في تلك الحالات كانوا دائماً في غالبيتهم من البوسنيين فغالبـاً ما كان رجال قوة الحماية يلمحون بشكل عـام كصدى للدعاية القـادمة من بالي وبلجراد، بـأن البوسنيين قد لفقوا تلك التقارير لكي يحملوا الغرب على التدخل.

وبعد أن زار جنرال مايكل روز غـوراجده في أعقاب إقامة الناتـو لمنطقة عازلة في مايو ١٩٩٤، عاد إلى سراييفو وأعلن أن تكرار قصف المستشفى عار من الصحة وأن معظم الجرحى كـانـوا من الشباب في سن الجنـديـة «وهـو تلميح لأن الصرب كانـوا يقصفون أهدافـاً عسكرية مسلحة ولا يـرتكبون جرائم ضد المدنيين). وعنـدما سئل عن السبب في أن اللجنـة العليا للإغـاثة ومنظمـة «أطباء بـلا حدود» غير الحكـومية الذين ذهبـو إلى غوراجـده أثناء الهجـوم الصربي قد وجهـوا نفس الاتهامات وقـدموا نفس التقديرات بالضحـايا التي قدمها البوسنيون والتي رفضهـا روز، قال الجنرال أنه لا يعـرف وأنه ربما لأنهم أمضـوا كثيراً من وقتهم في الملاجىء فإنهم قد استقـوا الكثير مما ظنوا أنهم يعرفونـه من التقارير البوسنية. وقد كرر مسـؤول الاستعلامات العامة في اللجنة العليـا للإغاثـة، في البوسنة، بيتر كيسلـر، بصلابـة، أنه متمسك بتقديـراته وحتى عندما أكدت الدكتورة ماكغلوهين كلام البوسنيين عن الأحداث، بدأ مسؤولو قوة الحماية التـابعة للأمم المتحدة مرة أخـرى يوضحون للصحفيين، كما فعل المراقب العسكري الكنـدي في الأمم المتحدة، أنه لابد أن خبرتها سيطـرت عليها وأنها ليست شاهدة موثوقة.

كانت تلك مسؤوليـات حفظ السلام للأمم المتحدة. وبالنسبـة لمن كان يرى أن

قوة الحماية غالباً ما تستميح الأعذار للصرب في الماضي فلم يكن هناك شيء مستغرب في كلمات الجنرال روز. فقد اعترف على الأقل بأن بعض المدنيين قتلوا في غوراجده. ويعتبر ذلك خطوة في الاتجاه الصحيح بالنسبة لرجل بدا أنه صدق أن البوسنيين، وليس الصرب، هم المسؤولون عن المذبحة في السوق المركزي في سراييفو. وقد أمضى الجنرال ماكينزي، رغم كل شيء، عاماً كاملاً ينكر أن مذبحة طابور الخبز في أغسطس ١٩٩٢ منسوبة بأي تأكيد للصرب. كما عارض الجنرال بريمكونت جعل غوراجده منطقة آمنة لأن «المسلمين»، كما ادعى، سيستخدمونها قاعدة للإغارة على الصرب. بل إنه ادعى أن الصرب كانوا أكثر من يعتمد عليهم في التفاوض، أثناء جولة عمله في البوسنة، رغم أنه في خطاب وداعه لشعب سراييفو اعترف أنه سيفتقد المدينة لأنها متعددة الثقافات مثل مدينته المحبوبة بروكسل.

ولم يقل جوزيه ماريا منديلوس إنه سيفتقد سراييفو. بل ودع زملاءه في اللجنة العليا للإغاثة بحرارة وقال إنه سيفتقدهم. ولكن عند نهاية عمله كممثل خاص كان من الواضح أن منديلوس قد ضاق ذرعا بالوحشية والأكاذيب، ومثل كثيرين من الرجال الأكفاء الذين عملوا معه على مدى السنتين الماضيتين وانهاروا أخيرا تحت عبء الضغوط الجسمانية والنفسية، فقد خمد حماسه كذلك. كان هذا شعورا مشتركا يشارك فيه المراسلون والعاملون في المنظمات غير الحكومية والمسؤولون في قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، حتى قيل إن جنرال بريكمونت باح لمجموعة صغيرة بأنه يتوق للعودة إلى وطنه لأنه، في النهاية، ظل تحت وابل النيران ثلاثة شهور (يفترض أنه كان يقصد إقامته في سراييفو). إن الأمر يخلص في أن بعض الناس يخمدون قبل غيرهم مثلما ييأس بعض الناس قبل غيرهم.

وكان منديلوس ورجال اللجنة العليا للإغاثة الآخرين قد نال منهم اليأس. فكلما عملوا أكثر بدأوا يدركون أن ما ينتظرهم هو الإخفاق، مهما بلغ تفانيهم والسبب الأساسي لذلك يكمن في أنهم ببساطة لم يعرفوا ما يتوقع العالم منهم في البوسنة. وكما قال لي توني لاند وهو موظف محنك في اللجنة العليا للإغاثة والمسؤول عن مكتبها في سراييفو عام ١٩٩٣ و١٩٩٤: «أي نوع من الالتزام يريد الغرب والأمم المتحدة أن يقوموا به في الحقيقة؟ يمكن أن تنجح سياسة المناطق الآمنة في ظروف معينة ولكن ليس قبل أن نضمن للناس في تلك الأماكن نوعية معقولة من الحياة

فليس هناك مياه في سربرنتشا. وإذا لم يسمح لنا الصرب بإعادة المياه، ألا يعني ذلك أن علينا نقلها إليهم؟ إننا نواجه نفس نوع المشكلات العملية في الأماكن الأخرى. إنني لا أتحدث حتى عن مشكلة الروح المعنوية للناس في تلك الأماكن وهي المنعدمة تماما».

«كنا نعلم منذ البداية أن الثمن فادح حتى لو تم وقف عام لإطلاق النار غدا، ولكن السؤال هو وفق أي مبادىء مطلوب منا أن نعمل هنا. وأسألك: هل المياه حق إنساني لهؤلاء الناس؟ أنتم الصحفيون تتحدثون بحق عن حقوق الإنسان وكأنها مجرد ضرب الشرطة المبرح، أو تتحدثون، بحق، عن الاغتصاب والتطهير العرقي. ولكن ماذا عن التعليم؟ أو الكهرباء؟ وماذا عن محاولة إعادة تلك الأشياء في وضع يستمر فيه القتال والتطهير العرقي والاغتصاب في كل مكان حولك؟ ومرة ثانية يبرز السؤال كما كان منذ البداية، ماذا نحاول أن نحققه هنا في الواقع. علينا أن نقرر، فرغم مرور سنتين لم نفعل ذلك بعد».

حتما لقد وصلت اللجنة العليا للإغاثة إلى حالة من الرضا عما فعلته في البوسنة. ورغم أنها المنظمة التي فعلت أكثر من الآخرين لفضح الحقائق عن التطهير العرقي، فقد كانت هناك أوقات وجدت فيها نفسها تساعد عليه في الواقع. ففي إحدى المناسبات قال منديلوس «إنني أفضل إجلاء ثلاثين ألف شخص عن ثلاثين ألف جثة». وفي عام ١٩٩٣ قامت اللجنة العليا للإغاثة في سربرنتشا بتنظيم عملية إجلاء ضخمة للسكان المدنيين عبر المناطق التي يسيطر عليها الصرب إلى توزلا، ولم يكن ذلك يتم بالضغط على أي شخص. فكما قال موظف في اللجنة العليا للإغاثة وقتها: «كل شخص يريد أن يخرج من جحيم سربرنيتشا. إنهم يعلمون أنه لا مستقبل لهم فيها». ومع ذلك فكما أبدى جندي بوسني في مرارة وهو يشاهد أول قافلة تعبر الأرض المشاع وتتحرك بعدها نحو مدينة توزلا: «هذا هو التطهير العرقي. إن اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة تقوم بالعمل نيابة عن الصرب».

أصر مسؤول اللجنة العليا للإغاثة المكلف بالإجلاء أنه يقوم بإجلاء «إنساني محض» وحذر أنه رغم أن العملية في سربرنتشا كانت الأكبر بين عمليات اللجنة العليا للإغاثة في البوسنة حتى الآن، فإنها لن تكون الأخيرة. وقد كان محقا، شأن كل

من مالوا في البـوسنة إلى تلك النظرة الكارثية. ففي ربيع ١٩٩٤ عندمـا صار واضحا للجنة العليـا للإغاثة أن الصرب في بـوسانسكا كـرايينا وبخاصة في منطقـة بيريودور كانوا يبدأون مرة أخرى حملة منظمة من القتل والحرق المتعمد ضد نحو ستة آلاف من المسلمين الـذين بقـوا، كانت هنـاك محاولـة لإجـلائهم بـالجملة إلى كـرواتيـا، وكأن المسلمين لا يستطيعون الفرار من تلقاء أنفسهم. ففي محطة حافلات بانيالوكا علقت لافتـة في خريف ١٩٩٣ تعلن عـن منع المسلمين من ركوب الحافـلات، وفي الخارج كررت الكتـابة على الجدران تلك المزاوجـةالمميزة لـلافتات العنصريـة في العالم أجمع: «ممنوع الكلاب أو المسلمين».

كانت اللجنة العليا للإغاثة ولجنة الصليب الأحمر تحاولان على مضض القيام معا بعملية الإجـلاء. وسرت الشائعـات في زغرب أن الأمـوال المقدمـة سرا إلى السلطات الصربية المحلية غير كـافية وهذا هو السبب في فشل الإجـلاء أخيرا. ولكن الأحداث السابقة في سربرنتشا، والتي تكـررت العام التالي على نطاق أضيق في أماكن كثيرة من البوسنة وتحركت دون أن تكتمل في بوسانسكا كرايينا، كلها كانت تحدد بشكل متزايد مدى مـا يصل إليه التفويض للجنة في «حمايـة» اللاجئين في الواقع. لقـد تورطت في حقيقة الأمر، في وضع مستحيل فإمـا أن تقف مكتوفة الأيدي وتشـاهد التذبيح أو أن تقوم بنفسها بتسهيل الهدف الأكبر لحرب الصرب في نقل السكان غير الصرب خارج مناطق البـوسنة التي يسيطر عليها جيش صرب البـوسنة. وبالنسبة لمسؤولي اللجنة العليا للإغـاثة الذين كرسوا حيـاتهم للعناية باللاجئين، فقـد كان الخيار غير محتمل مهما أدركوا حتميته.

وباسترجاع الأحداث، فـإن قتل البوسنة كان قد أصبح نتيجة محتـومة سلفا بعد سربرنتشا، وهو مـا عبر عنه لاري هولنجوورث من اللجنة العليا لـلإغاثة حين قال: «كان يجب أن نكـون أقوي من ذلك منـذ البدايـة. ففي هذا اليـوم والزمن، يجب أن يكون إطعـام الناس حقـا مطلقا، ولكننـا بدلا من ذلك حـاولنا أن نلحق بـالترتيب الصحيح الـذي يقنع الصرب بتركنـا نـدخل. ومنـذ أغسطس ١٩٩٢ وحتى مـارس ١٩٩٣ أدخلنا العـدد القليل، وفي تلك الأثناء كـان الصرب يطبقون على سربـرنتشا ويأخـذون القرى ويجبرون النـاس على الهرب جاعلين الموقف في تلك المنـاطق التي لم يأخذوهـا يعد أكثر يأسا». وقبل أن تقـرر اللجنة العليا للإغـاثة أخيرا إجلاء المدنيين

من المنطقة أكد منـديلوس في غضب أن ما يقدمه الصرب لـلأمم المتحدة بموافقتهم على فتح ما يسمونه «الممـر الإنساني» في الشمال الشرقي عبر خطوطهم كان مجرد فتح ممر للتطهير العرقي. «نعتقـد أن للناس الحق في مساعدات إنسـانية في الأماكن التي يعيشون فيها وليس بعد قصفهم وتجويعهم بعيدا عن بيوتهم».

إن عدم مقـدرة اللجنة العليـا للإغاثـة في بادىء الأمـر على استيعاب مـا كانت تواجهـه لم يكن مدهشا. وكما قـال لي بيير أوليه، المسؤول الفرنسي الشـاب في اللجنة العليا للإغاثة الـذي قابلته لأول مرة في بانيالوكا عـام ١٩٩٢ والذي تطوع في وقت ما لكل مهمـة مرهقـة في البوسنـة وقبل أن يقتل في اصطـدام طائرة وهـو في طريقـه إلى مقـدونيا «لم تكن هنـاك حرب مطلقـا تمثّل الهدف العسكـري الرئيسي فيهـا في خلق لاجئين بـالجملة. من السهل أن تقـول إن على اللجنة العليـا للإغـاثة ألا تتـورط في السياسة ـ وأن شابا مثلي بـلا خبرة خاصة في السياسة لا يصح أن يتفاوض مع صرب البـوسنـــة أو HVO أو حكـومة البـوسنـة. ولكن مع وجود لاجئين في قلب الأزمـة السياسية والعسكرية ليس هناك سبيل آخـر. لا يهم إذا كان منديلوس يريد ذلك أو حتى أن يكون مؤهـلا للقيام باللعب في حقل السياسة العليا. فلقـد تورطت اللجنة العليا للإغاثة في هذا الدور منذ البداية».

وكان أوليبه على حق. كان منـديلوس ورفاقه يلعبون السياسة منـذ بداية العملية ولكن من دون الموارد التي تتطلبهـا السياسة. وقـد قال هـربرت أوكـون مرة مـازحا: «دبلومـاسية دون التهديد بـالقوة على الأقل تشبه لعب البيسبـول دون عصا». وكما أعلن لاري هولنجوورث لمراسل من صنداي تايمز اللندنيـة وهو يغادر البوسنة للأبد في ربيع ١٩٩٤: «كان يجب أن نكون أكثر خشونة منـذ البداية. لقد أضاعت الأمم المتحدة فـرصة الإمسـاك بزمـام المبادرة وأن تكـون ذات بأس ورأينا سلطتهـا تتضاءل تدريجيا منذ ذلك الوقت. ولو أننا قلنا منذ البداية إما أن توقفوا هذا القتال أو نذهب ولن يحصل أحد على شيء، لكنا قد أثبتنا بعض القوة».

إن الطريقة التي بدا أن قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة تفضل أن تتعامل بها مع قلة حيلتها هي التظاهر بأن الوضع سيتحسن قريبا وأنه بطريقة ما ستبدأ المفاوضات في نهاية المطاف في إعطاء النتائج. إن هذه الـرغبة في الاعتقاد في قرب النهاية منعتهم

من ذكـر الحقيقة حتى لأنفسهم. وعنـدما طـالب المراسلون ديفيـد أوين بأن يواجـه الصرب بخصوص معسكرات الاغتصاب ابتسم قليلا وكأن ذلك أبعد المطالب منالا في العـالم وقـال لأحـد المراسلين: «يصعب كثيرا أن تتكلم عـن أشيـاء مثل تلك مع الصرب» ومع ذلك فعنـدما طلب الصرب من الأمـم المتحدة أن يتـوقفوا عن تسميـة حصار سراييفـو بكلمة حصـار، استجابت الأمم المتحـدة على الفور. لكن على أقل تقدير تمسكـت اللجنة العليا للإغاثـة بسخطها. فعند عودة لاري هـولنجوورث من سراييفو إلى سربرنتشـا أعلن: «إنها المذبحة هناك، ويجب وقفهـا، و إذا استلزم الأمر إطلاق النار، فليكن ذلك».

وعلى عكس منديلوس فقـد رحب هولنجوورث أول الأمر بنشر جنـود قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة لكنه قـال لاحقا: «لقد بدا كما لو أن مهمتي صارت أسهل وأن حياة آلاف من البوسنيين ستصبح أكثر احتمالا. وبدا غرض القوات واضحا: مرافقة المساعدات دون التدخل في الحرب ذاتها. ولكن من ناحية أخرى، إذا أرسلت جيشا ولم تسمح له بالاعتداء فلماذا الدبابات وقوة النيران إذن؟ لقد خرجت للأسف بنتيجة مفادهـا أن القوات أرسلت ليس لاتخاذ موقف صلـب ولكن ببساطة لتظهـر بموقف الصـلابة». في الـواقع، كان هـذا بالضبط مـا قـاله قـائد رفيع الرتبـة في قوة الحمايـة لمجموعـة من الصحفيين في زغرب في أوائل ١٩٩٤ قبل قليـل من إعادتـه إلى وطنه: «إن مهمتنا هنا ليست لعمل شيء في الواقع. إن مهمتنا أن نعطي الانطباع بأننا نفعل شيئـا» قال ذلك بنبرة تمزج بين ازدراء الأوامـر التي نفـذها بإخـلاص وازدراء لأولئك الذين لم يفهموا ماهية قوة الحماية التـابعة للأمم المتحدة في البوسنة، ثم ضحك وقال «إنها مهمة غاية في الصعوبة».

إن مكمن الشجاعة في موقف اللجنة العليا للإغاثة هو أنها، ورغم التزامها برأي الأمم المتحدة في كونهم محايدين، رفضـت أن يؤخذ ذلك على أنهم معفين من التورط بالمفهـوم الأخلاقي. وقد تكلم منديلـوس بصراحة عن إحباطـه «كعضو في المجتمع الدولي» بـأنه لا يستطيع فعل مـاهو أكثـر. أو بعبارة أخرى، لم يقبـل بفكرة أن دوره كمسؤول في اللجنة العليـا للإغاثة يعفيـه من التزاماته الأخـلاقية كإنسان. ولا يعني هذا أن يضرب منديلوس واللجنة العليا للإغاثة عن العمل من تلقاء أنفسهم.

فمن الزاوية الموضوعية يمكن النظر إلى جهودهم الإنسانية على أنها ورقة التوت الساترة لتخاذل القوى الكبرى عن التدخل عسكريا في البوسنة. أو «الفخ الإنساني» كم يجب أن يسميه صحفي فرنسي في سراييفو. أما في ظروف العمليات، أي في أمور الحياة اليومية التي واجهوها، فقد كان مسؤولو اللجنة العليا للإغاثة يحاولون المساعدة. كانوا يعرفون أن ضباط الحماية يستطيعون عمل القليل للحماية وأن قوافلهم لن تمر ولكن ذلك لم يجعلهم ساخرين كما حدث كثيرا مع قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة، بل إنها جعلتهم يتصلبون في قرارهم. ففي مقر الرئاسة في زغرب غضب المسؤولون الكبار من الالتصاق بالأعمال المكتبية واستخدموا كل ذريعة واضحة للعودة إلى البوسنة. كان خوزيه ماريا منديلوس مشهورا بتفضيله صحبة سائقي قافلته على صحبة الدبلوماسيين الذين كان يقضي معهم معظم وقته. ولكنه في نهاية المطاف فقد الأمل أيضا.

قال لي منديلوس قبل قليل من مغادرته البوسنة: «بصراحة نحن في اللجنة العليا للإغاثة نشعر أن المجتمع الدولي تخلى عنا وكذلك الأمم المتحدة في نيويورك. إننا نشعر كما لو كنا يتامى. وعندما تدهور الموقف تماما في شرق البوسنة، وجدنا أنفسنا في الوضع المستحيل أخلاقيا الذي يضاعف الهدف من التطهير العرقي من أجل إنقاذ أرواح الناس. ومع ذلك فلم تصدر أي تصريحات عن هذا من مجلس الأمن أو من مفاوضي فانس وأويون أو السكرتير العام. ويبدو أننا سنعتمد على أنفسنا في هذا الوضع المستحيل. لقد أصبحنا شركة نقليات وعلينا تجاهل جميع أمور الحقوق الإنسانية والتي هي صميم التفويض لنا. إننا ننقل الطعام ونتصرف مثل أي وكالة سفريات للزوار الأجانب.

«كانت هناك فترات طويلة، أيا ساءت الأمور، عندما كان لدي أمل! وأتذكر تفكيري أنه عند نقطة ما سيضطر المجتمع الدولي إلى عمل شيء ما ولا يكتفي فقط بالكلام، فعندما حضرت إلى هنا في الماضي وتحدثت معك عن المعجزات والقيود فقد كان ذلك بالطبع عن الصمود حتى يتم عمل شيء ما. وأنا أفتخر كثيرا بما حققناه في اللجنة العليا للإغاثة التابعة للأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة. ويرجع الفضل بدرجة كبيرة إلى جهودنا في ألا يموت الناس جوعا في سراييفو. ولكن في كل مكان آخر. .» وتهدج صوته واهتز: «في كل مكان آخر تقريبا، الأمور غاية في السوء» وبعد

شهر كان منديلوس قد رحل. وفي زغرب وسراييفو لم يخف كبار موظفي اللجنة العليا لإغاثة ارتياحهم لرحيله. فكما حدسوا عن حق فإن خلفه، نيكولاس موريس، لم يتبع مثل هذه السياسة المستقلة ولم يكن لديه حساسية منديلوس المكشوفة إزاء العسكريين في لحظة أصبحت فيها قوة الحماية وليست اللجنة العليا للإغاثة، لأسباب عملية، هي الوكالة القائدة لنشاط الأمم المتحدة في يوغسلافيا السابقة. وفي ظل قيادة موريس عادت اللجنة العليا للإغاثة وكالة إغاثة صرف ولا شيء غير ذلك.

كان تبديل منديلوس بموريس إشارة إلي التغير في دور اللجنة العليا للإغاثة وربما في تفكيرها كذلك. ولا جدال في أن موريس كان أفضل كإداري وأفضل كبيروقراطي، وربما في إطار الأمم المتحدة الأفضل كسياسي كذلك. كان ينظر إليه كرجل محترم، كما كان ينظر إليه من قبل الكثيرين أيضا كرجل واقعي وصارم. ولكن كان هناك بعض التساؤل حول «التزامه التحفظات». فبعد كل شيء كان الرجل الذي عارض توسيع دور اللجنة العليا للإغاثة في كردستان – وهو موقف أكسبه اسم موريس «ليس تفويضي» الذي أطلقه عليه المراسلون الذي كانوا موجودين في شمال العراق في ذلك الوقت. فعلى النقيض من منديلوس الذي قاوم بثبات مبدأ أن مهمته تنحصر في احتواء الكارثة أو أن يفعل ما يستطيعه فقط، يسلك موريس طريقا أكثر تحفظا. وتحت قيادته ارتدت اللجنة العليا للإغاثة في يوغسلافيا السابقة بشكل كبير إلي كونها وكالة أرثوذكسية للأمم المتحدة. لقد اشتكى من خدموا في العملية منذ البداية من فقدان الروح، وبحلول منتصف ١٩٩٤ كان معظمهم إما قد غادر أو يفكر في المغادرة. وعندما غادر آخر عضو في المجموعة القريبة من منديلوس، وهو مانويل دي أليدا، إلي جنيف في يونيو ١٩٩٤، كان في هذا النهاية الرمزية للعملية أو كما أسماها أحيانا «الوحش» الذي خلقه منديلوس.

كان منديلوس ينظر دوما إلي مهمته لا على أنها مجرد إنقاذ أرواح أو توفير الإغاثة، بل إحياء آمال الناس. وكما قال أحد زملائه بعد مغادرته للبوسنة: «قد يكون جوزيه ماريا حظي بانتصارات جوفاء، ولكن وبينما يكسبها كان في استطاعة رجال اللجنة العليا للإغاثة أن يواصلوا الاعتقاد ويواصلوا الأمل. والآن هناك أزمة ولا أمل وهذا يثبط معنوياتنا جميعا». وبمجرد مغادرة البلقان شعر منديلوس بحريته في كشف

مدى إحباطه شخصيا. فقد أعلن «لقد وصلت عملية مفاوضات السلام في يوغسلافيا السابقة إلى ذروة الفساد. كانت بادىء الأمر تحافظ على دولة البوسنة والهرسك التي اعترف بها المجتمع الدولي. ولاحقا جاء الاقتراح بتقسيم الدولة إلى عشرة أقاليم، وفي النهاية أصبح لدينا فكرة خلق دويلات عرقية تجبر السكان على أن يحددوا هويتهم وفق منطق فاشستي». وكان منديلوس يصر على أن ذلك غير مقبول. فقد قال «يجب وضع حد للبراجماتية وللحوار الذي فرضته الإبادة الجماعية. فإذا لم نكن مستعدين للتدخل فمن الأفضل أن نبقى في بلادنا، ولكننا موجودون وتعهدنا بالفعل بالتدخل الإنساني وخلقنا توقعات كاذبة».

إن الأمر الرائع عند مشاهدة رجال اللجنة العليا للإغاثة وهم يتقدمون في الميدان كان، على الرغم من وصول الأمور إلى حالة اليأس، هو رفضهم الدائم للانهزامية. أما الآن فقد كان منديلوس في الواقع يقبل الهزيمة. وفي وقت لاحق، ترك اللجنة العليا للإغاثة وانغمس ثانية في السياسة الإسبانية وفاز في انتخابات البرلمان الأوروبي على قائمة الاشتراكيين. لقد فشلت ما أسماها «أضخم وأعقد وأخطر عملية تعهدت بها المنظمات الإنسانية» على الأقل، إذا كان مقياس النجاح هو وقف ما كان يجري في الواقع. وحتى نيكولاس موريس أصر عام ١٩٩٣ على أن «فشل المجتمع الدولي في أن يقلب منطق الحرب يعني فشل العمليات الإنسانية القائمة أساسا على قلب ذلك المنطق». كذلك قالها لاري هولنجوورث بكل صراحة، فقبل أن يغادر البلقان قال في غضب إنه «يجب على الغرب أن يعقد العزم فيما إذا كان يريد أن ينقذ مسلمي البوسنة أم لا». وبحلول ربيع ١٩٩٤، كان من الواضح أنه عقد عزمه وكانت الإجابة أنه لا يريد.

الفصل العاشر

سألني عجوز في مقبرة «لايون» في سراييفو في إبريل ١٩٩٣ : «لم لا يلقي الأمريكان القنبلة الذرية على الصرب؟ وبعد لحظة انفجرت قنبلة مورتار على بعد ثلاثمائة متر. وقام المشيعون ـ وكانوا قد حضروا لدفن طفل عمره أربع سنوات قتله قناص قبل يومين ـ بالزحف أو بالأحرى بدأوا في حركات زحف صامتة بحثاً عن ساتر حيث لم يكن هناك، باستثناء تمثال الأسد الذي شوهه القصف والحافة التي يقف عليها وسط المقبرة، أي ساتر على الإطلاق. فحتى الشواهد في سراييفو أصبحت تصنع من الخشب بعد عام من الحصار. ويقول الحفارون إن الشواهد أصبحت بنصف سماكتها قبل ستة شهور. وحملقت في انفعال في قبرين تم حفرهما حديثاً في نهاية أحد صفوف الدفن. ومن خبرتي السابقة عرفت أنهما أكثر الأماكن أمناً للقرفصة إذا بدأ القصف جدياً، وهو احتمال واضح حيث تخصصت القوات الصربية الرابضة على التلال المحيطة بالمدينة في إطلاق النار على المشيعين وهم يدفنون موتاهم.

وبمعايير سراييفو، كانت مقبرة «لايون» أكثر أماناً من المقابر الرئيسية المحلية الأخرى، فلم تكن مكشوفة تماماً مثل ملعب الكرة القريب، الذي حولته السلطات المحلية إلى مقبرة في خريف ١٩٩٢، لاستيعاب فيض الجثث من مشرحة مستشفى كوسيفو، والذي امتلأ هو الآخر بعد عام لثلثه بالقبور. وحتى وقف إطلاق النار في فبراير، كانت كل منطقة في سراييفو مصدر خطورة، ولا يوجد مكان بعيد عن مرمى نيران المورتار أو المدفعية أو القناصة المنتشرين في كل جهة. وعلى أقل تقدير كان القصف غير شخصي نسبياً. لأن رجال المدفعية يصوبون على منطقة أو غالباً على مبنى محدد. ولكن المرعب والمهين بشكل خاص في كونك تحت نيران القناص هو أن القناص يلتقط ويختار من بين الناس المارين أمام شعرات التعامد لمنظار مدفعه.

ويقول لنفسه «أعتقد أنني سأقتل الفتاة ذات السترة الحمراء»، أو يقول «أعتقد أنني سأدع الرجل الطويل يعبر الطريق وأحاول إسقاط صديقه، الشاب القصير غير الحليق في المعطف الصوفي، عندما يحاول أن يتبعه».

في ذلك الصباح، وقبل أن نذهب إلى مقبرة لايون قال لي صديق فرنسي، وهو مصور حربي ذو خبرة طويلة: «هناك طريقتان لتصوير الجنائز: على قدميك مع الأحياء أو على ركبتيك بين الأموات». كان يمكن له أيضاً أن يتكلم أيضاً عن أساليب التفكير في سراييفو أو بشكل عام عن المذبحة في البوسنة. فعندما يكون المرء في المدينة وقت الحصار فإن المسيطر (بصرف النظر عن خوف المرء الذي يفقده نصف عقله)هو أن الوضع يبدو بسيطاً وهو أن مدينة أوروبية تتلاشى: قرطاجة بالتصوير البطيء، ولكن هذه المرة في وجود جمهور ومع تصوير بالفيديو. وليس هناك شيء، لا التاريخ المعقد للمنطقة ولا أخطاء وجرائم البوسنيين أنفسهم ولا المخاوف المبررة أحياناً لصرب البوسنة، يستطيع أن يخفف من الجريمة التي وقعت. لا شيء لا شيء. لا شيء.

ولقد كان نوعاً من أوهام الصحفيين -الناشيء بلا شك عن التقدير المشترك للذات من ناحية، وعن الإيمان غير المدروس في التقدم والآثار المهدئة للرخاء، ومن الإيمان الذي نهنيء أنفسنا عليه بأن أوروبا أصبحت مكاناً متحضراً ـ أن نتصور أنه إذا تم إخبار الأهل في الوطن وإطلاعهم على ما يحث حقيقة في سراييفو، وإذا ما شاهدوا منظر طفل أصيب لتوه برصاصة مدببة أو بشظية مشرشرة على شاشة التلفزيون أو جثث المواطنين الذين يحصدون وهم في الطوابير للحصول على الخبز أو الماء، فإنهم سيطلبون من حكوماتهم فعل شيء. كان أمل الصحافة الغربية هو أن العارفين بالأوضاع في الوطن سيطلبون من حكوماتهم ألا تسمح بأن يقتل ويغتصب ويشرد مسلمو البوسنة. وبدلاً من ذلك فإن اللدغات الصوتية و «اللدغات المرئية» التي تم اختيارها من ميدان القتال نمت روح السفطة واللامبالاة بشكل منظم أكثر مما نجحت في تعبئة الناس للتصرف أو حتى لازدراء الوضع.

وباسترجاع الأحداث، يدرك المرء أن الذين اعتقدوا منا أن النتيجة كان

يمكن أن تكون غير ذلك كانوا ساذجين. كان هناك نوع من «تأثير CNN» بالمعنى الواسع والمتمثل في أنه لولا إظهار CNN و BBC وغيرهما للمأساة البوسنية طول الوقت لخمدت في أذهان الناس بعد الشهور القليلة الأولى من القتال برغم أنها كانت تحدث على مائتي ميل من إيطاليا. وبمفهوم أضيق، كانت كاميرات التلفزيون وليس حلف الناتو في الواقع، ناهيك عن الأمم المتحدة، هي التي أنقذت سراييفو بعد المذبحة في السوق المركزي في أوائل فبراير ١٩٩٤. لقد قاوم البريطانيون والفرنسيون وكذلك قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة وقسم عمليات حفظ السلام بكل قواهم أي تهديد حقيقي من جانب الغرب باستخدام القوة للدفاع عن سراييفو على مدى ما يقرب من عامين. فقد أصروا على أن التفويض لا يسمح بذلك وأن المخاطرة بالجهود الإنسانية كبيرة وأنه في النهاية ستكون للتهديدات العسكرية نتائج عكسية.

ولكن في أعقاب مذبحة السوق، أدركوا أن هناك غضباً حقيقياً في أوطانهم، وهو غضب ولو لمرة لن يتبدد بنفس السهولة مثلما حدث في أعقاب الأعمال الوحشية السابقة. وليس من المستغرب أنه قد اتضح لهم إمكان تطبيق عدد من الخطوات التي حكموا باستحالتها. وكما أخبرني دبلوماسي مما يسمى بالدول الخمس الدائمة في مجلس الأمن وهو يسخر: «ليس التفويض هو الذي تغير بل عواطف الجماهير وبخاصة في أوروبا الغربية».

وعلى طول الخط، أخذ كثير من الصحفيين على عاتقهم، بوعي أو بغير وعي، أن يغيروا من مشاعر قرائهم ومشاهديهم تجاه المذبحة. وهذا هو السبب في أنه ربما كان المراسلون وأطقم شبكات التلفزيون، طوال معظم فترة الحصار، هم حلفاء البوسنيين الموثوقين. وفهمت حكومة البوسنة، التي راهنت على التدخل الأجنبي، تأثير رجال الصحافة مبكراً، كما فهمت أنه مع حرمانها نتيجة لاستمرار حظر السلاح من وسائل الدفاع عن نفسها بفاعلية فإن استدرار العطف الأجنبي وجمع الأموال من العالم الإسلامي هي الدعامات القوية المتاحة.

ولكن لم يكن صحيحاً، كما كان يجب أن يقول رجال الأمم المتحدة، أن مشاعر

العطف جعلت الصحفيين يشوهـون القصص ليظهـروا الطرف البـوسني في صـورة إيجابية لا يستحقهـا . وفي الواقع ، كـانت أصـابع الاتهام تشير أكثر إلى الأخـلاقيات المشبوهة التي خلقها بين كبـار مسؤولي الأمم المتحدة هذا الالتزام بالحيـادية حيال ما أسموه غالباً «ادعاءات الأطراف المتحاربة» ، وبـرغم جو الدهشة المجروحة فقد كان على هؤلاء المسؤولين أن يعرفـوا أنه لو كانت هناك أية عدالـة في جانب صرب البوسنة فإنها بنفس نسبة العـدالة في جانب النـازيين أو الخمير الحمر. ومرة أخـرى ، فإن ما كان يقوم به الصرب هو الإبادة الجماعية .

أما ما كان صحيحـاً ، ولأن ما كان يحدث في البوسنة كان إبـادة جماعية ، فهو أن معظم الصحفيين تعاطفوا مع القضيـة البوسنية بنفس الأسلوب الـذي تمنى به المرءلو أن ممثلو الصحافة الأجنبيـة تواجدوا في حي اليهود بوارسو عـام ١٩٤٣ وتعاطفوا مع اليهود .

إن المنطق في موقف الأمم المتحدة في البوسنة يوحي بأنه لو تواجدت الأمم المتحدة أثناء الحرب العالميـة الثانية وأعتقدت أنها منحت «تفويضاً» بمعـاملة جميع الأطراف بحيـادية ، لكـانت قـد شكت من عدم فهم الصحفيين أن معـاداة السـامية كـانت مشكلة أوروبا عبر القرون وأن مخاوف الألمان من نفـوذ اليهود لابد أن تفهم من خلال سياقها التاريخي . ومن ناحية تاريخية بحتة ، يتصادف أن تكون تلك الأمور صحيحة مثلما كانت تأويلات القـومية الصربية صحيحة عام ١٩٩٤ . لكن الصحـافة ، وهو ما يحسب لها ، لم تقبل بتفسير الأمم المتحـدة القائم على المثل الفرنسي القـديم القائل إنه لكـي تفهم كل شيء عليك أن تغفر كل شيء . فقـد رأى الصحفيون في البـوسنة أموراً لا يمكنهم أن يغتفروها ، أمور كـانت الأمم المتحدة مصممة على أن تذهب إلى أبعد الحدود لتغطيتها .

والـواقع أن الأمم المتحـدة كـانت محقـة بمعنى ضيق معين في رفضهـا للتفـاعل بين الحكومـة البوسنية ورجـال الصحافة الأجنبية ، فعلى مـدى القتال ، حاولت حكـومة البوسنة تعبئـة هذا التعاطف كما تعبىء شبابها وعـاملت الصحفيين الأجانب وكأنهم ذخيرة حربية . وبمرور الوقت ، أصبح البوسنيون متمرسين في القيام بذلك . لكنها لم

تعرض المأساة البوسنية بما يتفق مع أهـدافها الاستراتيجية. ومهما اختارت قوة الحماية التـابعة لـلأمم المتحـدة، من جنـرال ماكينـزي عـام ١٩٩٢ حتى الجنرال روز عـام ١٩٩٤، من التلميح سراً، بأن البوسنيين هـم المسـؤولون عن مذبحة طـابور الخبز في سراييفو أو عن قصف السـوق المركزي في المدينة فلـم يكن ذلك من الصواب بحيث يمكن للأمم المتحـدة أن تقوله علنـاً وتسمح للصحافة بتحري الأمـر. وحقيقة أنهم رفضوا إظهار الأدلـة الحاسمة التي ادعوا أنها تدعم تأكيـداتهم التي ذكروها سراً ومع ذلك صدقوها بإخـلاص، أوحت لكثير منا لا أنهم كانوا يعرفون أكثر مما يبوحون به بل أن قوة الحمايـة ومسؤولـو الأمم المتحدة يـريدون أن يـؤمنوا بأن البـوسنيين وكذلك الصرب مذنبون، لدرجة أنهم لم يتخلـوا عن فكرة عدم وجود أبطال بل أشرار فقط في الصراع.

وقد خـدمهم هذا الاعتقـاد كثيراً في البوسنة. فـاعتقاد الأمم المتحـدة بخسة حكـومة البوسنة زودها بـوسيلة رخيصة لتحرير نفسها من الالتـزام الأخلاقي بإعادة النظر في حيادها المشهور. وفي الـواقع لقد فضل المسؤولون في قوة الحماية وفي سكـرتارية الأمم المتحدة أن يتجنبـوا السؤال الأخـلاقي. وكانـوا يميلون إلى تـذكيرك بسرعة بـأن هناك تفويضاً يؤخذ في الاعتبار حتى قبل أن توجه السؤال. لم يطرح مسؤولو الأمم المتحدة المسألة على هـذا النحو ولكن منطقهم في تبريـر أسلوب عملهم لم يكن يختلف كثيراً عن اتجاه آخـر ذائع الصيت من التبريـر المؤسسي تلخصه عبـارة: «كنت فقط أنفـذ الأوامر». وكل ما كانوا يفعلونه، رغم أنهم لم يستطيعوا إثبات تهمة حكومة البوسنة، هو تعكير المياه بإطـلاع قليل من الصحفيين الذين تأثروا بتلك النظـرة مسبقاً على ما ادعوا أنـه سر. ففي أعقاب مـذبحة السـوق، اطلع عضو رفيع في هيئـة الجنرال روز اثنين من الصحفيين على الصفحـة الأولى من تقـريـر مبـدئي مؤذي قـدمـه الفـريق الملكف بتحليل الفجـوات الناتجة عن انفجـار القنابل يشير إلى ضلـوع البوسنيين في الموضـوع. وأصر على أن داخل التقـريـر يـوجـد كل مـا يلـزمك للـوصـول إلى تلك النتيجة.

ولكن إذا وجد مثل هـذا الدليل، فلم يكن من القـوة بحيث يقنع مسؤولي الأمم

المتحدة ـ الـذين لا يمكن القول بأنهم راضون عن عزت بيجـوفيتش أو سيلازيتش. فقد أمروا بتحقيق ثـان موسع والذي لم يكن قاطعاً. ولو كـان هناك تستر لكان ذلك يعني بين أمور أخـرى أن المسؤولين الـروس العاملين في المجموعـة كانـوا ضالعين في الأمر، وهذا غير محتمل. كما أنه من غير المحتمل، بافتراض أن الأمم المتحدة أخفت القصة لمصلحتها، أنه في مؤسسة لا يبقى فيها شيء مهم سراً لفترة طويلة، ألا يسرب بعض المتعاطفين مع الصرب داخل الأمم المتحدة القصة.

ولكن رجال الجنرال روز كانوا مشغولين بـرواية قصة مختلفة. فقد كشف في وقت لاحق المساعد نفسه للجنرل روز، الـذي سرب قصة من الذي قصف السوق المركزي في سراييفـــو، أن روز ظل هـــادئاً حتـى يستطيع أن يبقى على «بعـض التأثير» على سلطات سراييفـو. وادعى أن روز أجبر نائب قاد الجيـش البوسني، الجنرال جـوفان ديفياك على حضور جـولة من المفاوضات العسكريـة بإشراف الأمم المتحدة في مطار سراييفو وذلك بتهـديد الرئيس عـزت بيجوفيتش بأنـه بغير ذلك سيفضح «الحقيقة» حول مـذبحة السوق. وكـان تعليق مساعـد روز هو أن عزت بيجـوفيتش أذعن فوراً لأنه علم بالمأزق الذي هو فيه. أما مسؤولو الحكومة البوسنية فقد قدموا صورة مخالفة حيث قـالوا إنـه لم يكن لدى روز في الحقيقـة أي دليل، ولكن كـان من الواضح أنـه صدق ما يقوله. قال مسؤول بوسني: «كان يريد أن يصدق أننا قتلة، كان يريد ذلك بشدة».

كان هذا بالضبط ما التزمـت به الأمم المتحدة. وكما قال لي أحد المسؤولين: «إن الصرب قتلة بـالجملة والكروات سفاحـون والمسلمون قتلة». وكم كان تصـديق هذا مـريحاً لقوة الحمايـة التابعـة للأمم المتحـدة. كانت تستطيع أن تظل في وضع سعيـد بالتعاطف مع ضحايا الحرب البوسنيـة دون أن تضطر إلى اتخاذ موقف مما هو صواب وما هو خطأ. وعلى أي حـال فهي لم تفكر في البديل. لقد احتاجت اللجنـة الدولية للصليب الأحمر إلى عشرات السنين لتستعيد مكانتها الأخلاقية بعد أن تواطأت فعلياً مع النازيين بإرسال وفود لزيارة عـرض معسكرات الاعتقال مثل ثيريزينستاد ـ وذلك في عام ١٩٤٣ ـ وعودتهم إلى جنيف ليعلنوا أنهم وجدوا الأحوال صعبة ولكنها مقبولة

بحسب الظروف المتاحة. وإذا كان ما تقف الأمم المتحدة أمامه مكتوفة في البوسنة هو الإبادة الجماعية فعندئذ تكون مصداقيتها الأخلاقية قد اهتزت بصورة مماثلة من خلال الأفعال «أو اللاأفعال» التي قامت بها هناك.

إن الازدراء الذي بدأ يشعر به الناس تجاه عصبة الأمم كان نتيجة مباشرة لعدم جدواها كأداة لمحاربة الفاشية في الثلاثينيات، وكان ما حاول كثير من عمال الإغاثة والصحفيون الذين جاءوا إلى البوسنة كمساندين للأمم المتحدة أن ينقلوه إلى مسؤولي الأمم المتحدة هو أن رفضها مجابهة التطهير الفاشستي في التسعينات سيثبت أنه لا يقل تدميراً للمصداقية الأخلاقية التي تعتمد عليها فاعليتها، من الوجهة العملية على الأقل.

وقد أدرك مسؤولو الأمم المتحدة كأفراد، وبخاصة داخل اللجنة العليا للإغاثة، مدى التدهور الذي لحق بمكانة المنظمة نتيجة لتورطها في البوسنة. ولكن ككيان رفضت الأمم المتحدة ببساطة أن تقبل أن ذلك هو ما حدث بالفعل. فالخطأ يكمن في التفويض أو تراخي القوى الكبرى أو ببساطة وحشية وتهور المحاربين أنفسهم. وكان من المحتم ـ مع تزايد إحباط جهود الإغاثة وقد صار واضحاً أن الإغاثة الإنسانية لن تأتي بأكثر مما أسماه أحد مسؤولي اللجنة العليا للصليب الأحمر، ثييري جرموند، ذات مرة «حد أدنى ـ دائماً غير سليم ـ من الإنسانية في مواقف كان يجب ألا تحدث»، أن يكون كان هناك اتجاه لإلقاء اللوم على الضحايا فيما آلوا إليه. وقد يتساءل كثيرون من مسؤولي الأمم المتحدة لماذا يصر البوسنيون على استمرار القتال بعدما صار واضحاً أنهم خاسرون؟ ففي عقول كثير من مسؤولي الأمم المتحدة أصبحت المقاومة البوسنية ذاتها نوعاً من الجريمة ضد الإنسانية، فلو أن الضحايا قبلوا بكونهم ضحايا لكان في استطاعة المجتمع الدولي أن يفعل الكثير من أجلهم.

ومع تزايد إدراكها للطرف البوسني من هذا المنطلق كان من المنطقي أن تتمسك الأمم المتحدة بكل اتهام يجعل الطرف البوسني مسؤولاً عن قتل شعبه أو اقتراف جرائم الحرب ضد صرب البوسنة. ففي ٦ أكتوبر ١٩٩٤ شنت قوات حكومة البوسنة غارة على مواقع الصرب في سراييفو. وفي اليوم التالي، تم اكتشاف عشرين جثة لجنود من صرب البوسنة، وقد فصل عنها الرأس.

وسرعان ما أصدر صرب البوسنة بياناً يدعون فيه أن الهجوم «عمل إجرامي» ويبدو أن ياسوشي أكاشي أيد ذلك فقد طار إلى سراييفو للاحتجاج شخصياً على «بتر» رؤوس الجنود الصرب. ولم يكن هناك أي أعمال بتر فكما اعترف المتحدث باسم قوة الحماية التابة للأمم المتحدة العقيد تيم سبايسر، في اليوم التالي فإنها كانت «عملية بأسلوب الكوماندوز» غير مسبوقة في وقت الحرب. وأعلن سبايسر أن الأمم المتحدة تسحب ادعاءها.

والحقيقة هي أنه يبدو أن حكومة البوسنة بما وصلت إليه من يأس كانت ترحب في مناسبات عديدة ليس بالفظائع التي التزم الصرب بارتكابها بل بمناسبات التصوير الفوتوغرافي التي توفرها تلك الفظائع.

فقد ظن بعض المسؤولين، وهو أمر مفهوم، أن منظر المدنيين وقد قطعت أجسادهم قد يشد من أزر القوى الكبرى أخيراً للقيام بحماية البوسنة بما هو أكثر من مجرد إصدار قرارات هزيلة في مجلس الأمن تطالب بنهاية للمذبحة. وكان البوسنيون على خطأ في هذا، كما كانوا في كثير من الآمال الأخرى التي علقوها على الغرب. وكان الغضب الذي أثارته مذبحة السوق استثناء لذلك. وقد اتضح ذلك بجلاء عندما بدأ الصرب قصف غوراجده بعد شهرين، واكتشف البوسنيون أن المنطقة المحظورة حول سراييفو لم تشكل سابقة لوقف إطلاق النار في باقي البوسنة والذي ادعاه السياسيون الغربيون في الأساس.

ولوا أن الصرب كانوا على استعداد للإذعان لإنذار الناتو الثاني لأبدت الأمم المتحدة استعداداً كافياً لتنفيذه. ولكن الصرب لم يكونوا ضعفاء ولم يكونوا بلهاء ،لقد انحنوا قليلاً في غوراجده ولكنهم لم ينثنوا. وبعد ثلاثة أسابيع من إنذار الناتوا اعترفت قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة أن قوات الصرب دخلت المنطقة ثانية متخفين هذه المرة في زي الشرطة وقد تمركز بعضهم على بعد ٩ , ١ ميلاً من «المنطقة المحظورة على جنود المشاة» من مركز مدينة غوراجده. واعتبرت تلك المسافة طويلة حتى بالنسبة للقائد المحلي لقوة الحماية وهو عقيد بريطاني يدعى ديفيد سانتا أولا لا. أما سيرجيودي ميللو، والذي فعل أكثر مما فعل من أي مسؤول آخر للأمم المتحدة

لمنع الضربات الجوية بدخوله جورازدي قبل انتهاء فترة إنذار الناتو، فقد تخطى هذه المرة مهمة قوة الحماية وأخبر صرب البوسنة أنهم يستطيعون الإبقاء على شرطتهم هناك ويضربون عرض الحائط بالإنذار النهائي.

كان دي ميللو في ذلك يتصرف تماماً مثلما تصرف كبار مسؤولي الأمم المتحدة منذ بدء القتال. والآن وبعد أن عرف البوسنيون باتجاه الأمم المتحدة، لماذا لا يلجأون إلى الصحافة ويشنون في الإعلام الحرب التي كان يجب أن يسمح لهم بشنها في ميدان القتال فقد كان السلاح الوحيد المتاح لهم وبقدر وافر هو معاناتهم. وإذا كانوا في بعض الأحيان يؤخرون إزاحة جثة حتى يصل الصحفيون الأجانب وأحياناً يبدون مازوخيين (يتلذذون بالاضطهاد) في رفضهم التفاوض على اتفاقات قد توفر كهرباء أو غاز أكثر لسراييفو فإن هذا، كما يحب رجال الأمم المتحدة في زغرب وسراييفو ونيويورك أن يماروا به أحياناً، لا يعني أنهم المسببون لمعاناتهم. لقد كانوا الضحية. ولكن كونهم الضحايا كان يضايق بل ويقزز مسؤولي الأمم المتحدة بصورة متزايدة في كل من الميدان وفي نيويورك وجنيف. وأصبح ضباط قوة الحماية التابعة للأمم المتحدة بشكل خاص أقل كتماناً للكراهية التي يحملونها للبوسنيين.

ومن ناحيتهم، فإن خطأ البوسنيين لم يكن فهمهم الخاطىء لقوة الحماية التابعة للأمم المتحدة ــ ارتكبوا هذا الخطأ بادىء الأمر ولكن سرعان ما فهموا أن بعثات قوة الأمم المتحدة في البوسنة لم تكن تتضمن الدفاع عن البوسنيين - بل تصورهم أنه طالما أمكن جعل الناس في العالم الخارجي ساخطين بما فيه الكفاية على ما كان يجري، فإن مستقبل البوسنة سيخرج من أيدي قوة الحماية. وهذا هو سبب اتجاه البوسنيين نحو الصحافة. لقد حاولوا ــ وكذلك نحن، لقد فشلوا - وكذلك نحن. وعندما نكون جالسين في غرفة في فندق هوليداي إن في سراييفو آخر الليل نشرب أحدث زجاجة شعير أحضرها وافد جديد من سبليت أو أنكونا، بعد يوم قضيناه على خط النار أو في جناح الحوادث في المستشفى الفرنسي أو بين الباحثين عن الخشب على طول سفوح التلال الجرداء (كانت سراييفو مشهورة بحدائقها) كان يبدو لنا أنه يستحيل أن يظل العالم غير مبال بما يجري في البوسنة أو الأسوأ من ذلك أن يتصور أن ما يجري

كـان مجرد نوع من الصراع العـرقي القـديم ــ مجرد حرب أخـرى في البلقـان حيث لا يفضل جانب عن الآخر.

من المؤكد أن صورة واحـدة أخرى أو قصة واحدة أخرى أو وقفـة مراسل منتصباً مسجلة على الفيـديو أمـام مبنى يتصـاعد منه الـدخان بعـد قصفه ستجمـع الناس وتجبرهم على التـوقف عن هـز أكتافهم أو لـوم الضحـايا، كما تفعل الأمم المتحـدة، وهكـذا كانت تـرسل القصص بالفـاكس عن طـريق الأقمار الصناعيـة إلى نيويـورك وباريس ولندن وواشنطن وتنقل الصور إلى وكالات العـالم وتبث اللقطات التلفزيونية حية عندما توافق عليهـا مكاتب التحرير في شبكة CNN و TN أو القناة الثـانية. ويسجل لمحرري الأخبار هناك أنهم أعطوا تلك التقارير والصور مساحة ضخمة من المشـاهدة في السنتين الأوليتين من الحرب على الأقل. ولن يستطيع أحـد في المستقبل أن يقـول، كما قال كثير من الألمان بشكل شرعي بعـد الحرب العـالمية الثـانية، أنـه لم يعرف شيئاً عما كان يحدث في البوسنة. وقـد تعزى الأمم المتحدة نفسها بأن الصحافة كانت منحازة. أما في الواقع فلم تغط الصحافة مذبحة بدقة ومقدرة أكثر من هذه.

ما فهمتـه الصحافـة وعجزت الأمم المتحدة عن فهمـه هو: أن تكـون عادلاً وأن تكون محايداليسـا الشيء نفسه. وكشخص لم يكن مطلقاً عضواً في الصحافـة العاملة في الميدان ـ فلم اضطر مطلقاً لعمل ملفات أو مناقشة مسائل التحرير أو كتابة مقال حول موضوع غير ذي مغزى إنسانياً ـ ولكن قضـى قرابة عامين قريباً منهم، فقد كان مؤثـراً بالنسبة لي على الدوام، أن هـذه المجموعة من الشكاكين المهنيين والـذين كان يمكن أن يكون كثير منهم جنوداً لو لم يكونوا يسارين فـوضويين كانوا يؤمنون «بالقيم الغربية» أكثر مما تفعل حكومـاتهم، وقد كلف هذا الالتزام كثيراً منهم حياته. وحتى بالنسبـة لمن لم يعاني مطلقاً أي جـروح جسدية فـإن مشاق العودة ثـانية، رغم أنها لا تسـاوي شيئـاً إلى جانب مـا كـان البـوسنيون أنفسهم يعـانـوه، كلفتهم حتماً الكثير شخصياً ومهنياً. ولكنهم ظلوا يعودون.

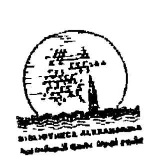
ولأطول وقت كانت سـاحات سراييفو مكتظة بالأحـلام كما كانت مكتظة بنيران القنابل. وبحلـول صيف ١٩٩٣ أصاب النـاس في البوسنـة الضجر من الصحـافة

وأصبحوا متشائمين من مقدرتها على تغيير أي شيء وهو ما أصبح أخيراً المعيار الوحيد الذي يحمل معنى، أما الصحفيون الذين كان يحتفى بهم سابقاً كأصدقاء موثوقين وعلق الناس في البوسنة عموماً وفي سراييفو بشكل خاص عليهم الآمال فقد أصبحوا يقابلون ببرود أشد. ولم يكن ذلك لأن البوسنيين اعتقدوا بأنهم لم يحكوا القصة بل لأن ذلك لم يأت بخير. ولقد كان من المحتم في تصوري أن يصبح وجود الغرباء مثيراً للغضب بعد أن كان تفضلاً. سألني صديق في سراييفو عندما رجعت إلى المدينة في أوائل شتاء ١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ : «سفرة أخرى؟ ماذا تأمل أن ترى هذه المرة؟ زيادة في الجثث، زيادة في الدمار؟ علينا أن نتقاضى رسوماً على بقائك».

قال كل ذلك برباطة جأش معقولة ولكنها لا تعرف طريقاً للصفح، فقد اعتقد صديقي أن اهتمام الإعلام لم يفعل شيئاً. وبعد شهور قليلة، عندما نجح وقف إطلاق النار في سراييفو وبدأت المدينة حركة عرجاء وهي محاصرة كسابق عهدها ولكن بغير قصف، فإن المرارة نحو الغرباء أصبحت أشد حدة. والآن وقد أصبح الحضور إلى سراييفو آمناً نسبياً، كانت الشخصيات الرفيعة تتدفق على المكان، يزورون الأنقاض ويواسون الأهالي. كانت دوافعهم رقيقة في العادة ولكن أهل سراييفو لم يستطيعوا كتمان امتعاضهم لهذا الاهتمام، وبالطبع لقدرتهم، بعد ما أخذوا كفايتهم من المشاهدات، على الذهاب إلى المطار في الناقلة المدرعة لقوة الحماية وركوب الطائرة والعودة إلى بلادهم. كانت التقارير الصحفية تتقلص بشكل ثابت حيث يخمد ثانية التهديد بتدخل الناتو. فعندما كان القتال في ذورته، فعلت الشهادة الجماعية للصحافة القليل لسراييفو. أما وقد خفت حدة القتال فقد استطاع الزوار فعل القليل ليضمدوا جراحها وحتى ولو ساهموا في النهاية هم وقرناؤهم الغربيون في إعادة البناء المادي للبوسنة. وبالطبع نال الملل أخيراً من رؤساء التحرير في الوطن، الذين أصبحوا متقاعسين بشكل متزايد عن السماح لأفضل مراسليهم باستمرار العودة إلى البوسنة. وعلى مدى عام ١٩٩٤ سحبت مجموعات الأعلام الكبرى رجالها الدائمين خارج سراييفو.

وفيما عدا عمال الإغاثة ومهربي الأسلحة ظل السؤال حول ما إذا كان يستطيع أي

غـريب أن يفعل شيئاً مفيـداً جداً في البـوسنـة في المستقبل المنظور. ذلك أن القتـال والموت لم يتـوقف ولن يتـوقف لـزمن طـويل مهما وقعت اتفـاقات وسـواء رفع خطـر السـلاح أم لا وسـواء ظلت قوة الحماية أو انسحبت. فمستقبل البـوسنـة، بل ربما مستقبل الكثير من بلـدان أوروبـا الشرقيـة كـذلك، يحمـل السيف وليس غصن الزيتون. وبعد ما فعله الغرب والأمم المتحـدة وما لم يفعلوه، كان كل ذلك متوقعاً. وربماكان أي شيء آخر مجرد حلم. وأياً كان ما كانوا سيفعلونه كان حلماً. إن سقوط الأمبراطوريات العظمى غالباً ما تتبعـه سلسلة من الحروب الوحشية. ومن المؤكد أن كثيراً من الأحـلام قد تلاشـت في البوسنـة خلال السنتين والنصف السنـة الماضية: الحلم بأن للعالم ضميراً، والحلم بأن أوروبـا مكان متحضر، والحلم بأن هنـاك عدل للضعيف كما للقـوي. ولن يكون غـريباً أن يموت هنـاك الحلم القديم بـأن الحقيقة سوف ترفع الأغـلال عنا. وتتضح معالم هذه الحقيقـة في أجلى صورة في حطام وسط وسط المدينة بغوراجده وفي قرى بوسانسكا كـرايينا التي طهروها عرقياً وفي مقبرة لايون في سراييفو، أكثـر مما تتضح في قصر الأمم المتحـدة في جنيف أو في مبنى سكرتـارية الأمم المتحـدة في نيويـورك، برغم أننـا مـا كنا نتمنى أن تكـون كذلك. إن الهزيمـة ساحقة والخزي شامل.



هذا الكتاب

على امتداد صفحات هذا الكتاب، يدين دافيد ريف -من واقع رؤيته المباشرة كشاهد عيان- ومن قلب الأحداث في ميادين الحرب، الغرب والأمم المتحدة لوقوفهما موقف المتفرج بينما يجري إفناء البوسنة. وخلال تنقلاته كمراسل لمجلة أمريكية في منطقة البلقان لأكثر من عامين، من سراييفو إلى المدن والقرى الأخرى المحاصرة، لم يكن ريف يتصور في البداية -شأنه في ذلك شأن البوسنيين أنفسهم- أن ما يشاهده إنما هو حرب للإبادة. ويحلل ريف، في هذا الكتاب/ الشهادة، بدقة وصرامة بالغتين، ومن خلال حواراته مع المسؤولين والناس العاديين في قلب هذه القصة المأساوية، أبعاد السقوط الأخلاقي للغرب. إنها رحلة صادمة ومذهلة، وشهادة لا تقل قوة وعمقا عن رواية جورج أورويل الكلاسيكية لوقائع الحرب الأهلية الإسبانية في «المجد لكتالونيا».

